الإسلام والحضارة

أنور الجندي

منشورات المكتبة العصرية
صيدا - بيروت



الإسلام والحضارة



بسم الله الرحمن الرحيم

مدخل

لم يعد هناك شك في تقدير الباحثين المنصفين أن « الإسلام » هو الذي أطلع فجر العصر الحديث وأنه هو الذي قدم للبشرية مفهوم الحضارة الأصيل: تحرير العقل الإنساني من الوثنية وتحرير الإنسان من عبودية الإنسان وأنه وضع مفهومه الرباني في نموذج تطبيقي رائع قدم به إلى البشرية هذه الأمة الوسطى التي حملت لواء التوحيد وأنشأت مجتمع الرحمة والإخاء البشري وقدمت للدنيا المنهج العلمي التجريبي. فكانت بذلك فاصلا عميقا بينها وبين الحضارات الفرعونية والهندية والفارسية واليونانية والرومانية التي كانت تحمل طوابع العبودية والوثنية معاً ثم جاءت الحضارة الغربية استمداداً من حضارة الإسلام وبعدها بأكثر من سبعة قرون مقتبسة نفس الأسس العلمية والحضارة وإن غايرت مفهوم الإسلام للعلم وللمجتمع فقبلت المنهج العلمي التجريبي الإسلامي ولكنها انحرفت به إلى الاستعلاء وإذلال الشعوب وفي مقدمتها تلك الأمة التي قدمت لها هذا المنهج التجريبي.

ولقد استطاعت الحضارة الغربية أن تكتسح العالم كله وأن تفرض وجودها على المجتماعات الإسلامية ولكنها لم تستطع القضاء على الحضارة الإسلامية التي توقفت ثمة عن العطاء، ودار صراع واسع عريض بين المجتمعات الإسلامية وبين حضارة الغرب التي تستهدف انتزاع المسلمين من منهجهم الأصيل ومنهجهم القرآني وأسلوب العيش الإسلامي.

وخضع المسلمون تحت ضغط ظروف التأخر والتخلف إلى قبول الاقتباس من الحضارة الغربية وترددوا طويلا بين قبول الوسائل المادية أو المعطيات الثقافية، غير أن الموقف كان حاسما منذ اليوم الأول بأن الاقتباس المادي

جائز لأن المسلمين هم الذين وضعوا أسس هذه الحضارة الأولى، ولكن حركة اليقظة كانت قادرة على أن تكشف وجه الحق في قضية الاقتباس ومفهوم التقدم، ذلك أن الغربيين لم يقبلوا القيم الأساسية حين نقلوا علوم المسلمين، ولكنهم صهروا هذه العلوم في منهجهم العقائدي والثقافي، ومن هنا فإن ما يقدم للمسلمين اليوم ليس هو ما قدمه المسلمون من قبل، وأن على المسلمين أن لا يأخذوا الأمور من نهاياتها، وأن يكون موقف المسلمين من اقتباس الحضارة الغربية قائماً على أساس واضح هو اقتباس الأساليب والتنظيمات وليس اقتباس الأيدلوجيات والمناهج.

ويردد البعض القول بأن الحضارات تتلاقى وتتلاقح وهو قول ساذج ومضلل، ذلك أن التقاء الحضارة الإسلامية: حضارة التوحيد لا تستطيع أن تقبل بالحضارة الوثنية الغربية، وهو أمر من الاستحالة بمكان ذلك أنه لا يمكن أن تلتقي حضارتان إلا إذا كانتا من نبع واحد وبين الحضارة الإسلامية وحضارة الغرب بون شاسع وأبعاد عميقة من الأساس الفكري. ولذلك فإنه من المستحيل أن تلتقي الحضارتان في حضارة واحدة أو أن يقتبس المسلمون الحضارة الغربية في مرحلة انهيارها، أو يستبدلوا بها عن أسلوب العيش الإسلامي ومنهج الفكر والعقيدة والروح الأساسي. وإذا كانت «المسيحية» لا تستطيع إنقاذ الحضارة وكذلك لم يستطع العلم ولا الماركسية، فإن الاسلام يستطيع أن ينقذ الإنسانية حين يقدم حضارته الإسلامية الأصيلة التي توقفت عن العطاء ثمة وباتت اليوم مؤهلة لتتقدم إلى البشرية بوصفها الأداة الوحيدة لإنقاذها.

ولقد بات معروفا أن الحضارة الغربية المعاصرة لم تعد تملك إمكان حل أزمتها الخانقة، بعد أن عقمت التربة وفسد الهواء فهي تقفز من حل إلى حل ومن منهج إلى منهج في محاولة الخروج من الأزمة دون جدوى، منذ أن تركت الدين، بعد أن عجزت التفسيرات اللاهوتية أن تقدم له ما تتطلع إليه من عطاء النفس والروح مرتبطا بمنجزات العلم، لم يكن هو الدين الذي يواجه الحضارة ويعارض العلم ولكنها كانت تفسيرات الدين مختلطة بسموم الفكر البشري والوثنية الهلينية والمادية التلمودية. فشلت الفردية لأنها استعلت

وفشلت الجماعية لأنها سحقت الفرد، وفشلت الرابطة القومية لأنها أصبحت عدوانية لمن جاورها وفشلت الرابطة العالمية لأنها كانت غير إنسانية، وهكذا اضطربت كل القيم والمقاييس: فإلى أين يتحرك التطور بالحضارة وإلى أي مدى، وأين وجهة الحضارة وأي هدف، وأين غاية العلم وإلى أي حد، لا بد من وجود الأساس الثابت، حيث تبدأ منه الحركة وعنده تنتهي: نقطة البدء والنهاية بعد الحركة الواسعة يجب أن تعود إلى أصل أصيل ليس من عند أحد غير الله وليس من صنع أحد سواه.

ولقد آمن المسلمون بأن اخلاقية الحضارة وإنسانيتها هي قانون بقائها واستمرارها وكلمة السر التي تسقط إذا انسحبت منها.

ولقد جاوزت الحضارة الغربية ضوابطها إلى معارضة قوانين الحياة نفسها بالإسراف في تدمير الإنسان ودفعه إلى شهواته وأهوائه.

إنها حضارة وليدة عن حضارة الإسلام ولكنها انحرفت مرة ثم مرة اخرى وما تزال اصول الحضارة الإسلامية قائمة وما تزال الحضارة الوليدة المنحرفة تصيبها قارعة حتى تسقط وتبقى حضارة الإسلام ما دامت تسير على سنن الله تبارك وتعالى وتلتمس الطريق المستقيم.

لقد صاغ المسلمون حياتهم وحضارتهم في ظل الإسلام منذ نزوله وجددوا الحياة مرة ومرة خلال تاريخهم المتصل وهم قادرون على صياغة التاريخ في الغد القريب والبعيد. لقد بدأت الحضارة الإسلامية من منطلق المجتمع الإسلامي واستصفت تراث الحضارات وصهرته في بوتقة التوحيد.

لقد سقطت الحضارة الرومانية بسقوط روما عام ٤٤٠م وبدأت الحضارة الإسلامية بعد ذلك بقرنين وامتدت حتى وصلت قلب أوروبا في القرن السابع الميلادي.

أما الحضارة الغربية فإنها بدأت على أصح الأقوال في القرن الخامس عشر الميلادي بحركة « الرينسانس » بعد فاصل زمني امتد ألف عام بعد سقوط الحضارة الرومانية لم يعرف العالم خلالها إلا عطاء الحضارة الإسلامية وأن سنوات ما يسمى عصر الظلام في أوروبا كانت بمثابة عصر النهضة والضياء الإسلامي

الذي انتشر ما بين الصين شرقا وبين نهر اللوار غربا.

لقد سبقت الحضارة الإسلامية حضارات وثنية عبودية: كان آخرها الفرعونية والفارسية والرومانية وقد سقطت هذه الحضارات وتوارت الى الأبد وسقط مجتمعها وفكرها ولغتها وكيانها كله وبدأت الحضارة الغربية في القرن الخامس عشر «التاسع الهجري» وليدة الفكر الإسلامي ومن منطلق المنهج العلمي التجريبي الإسلامي الذي نقله المسلمون إلى الأندلس قبل غروب شمس الدولة الإسلامية فيها بقرنين أو ثلاث.

وقد تمثلت حضارة الإسلام في قيم أساسية أربع:

(أولا) تمدين الإنسانية وتحريرها من العبودية.

(ثانيا) الدعوة إلى التوحيد الخالص وتحرير البشرية من الوثنية والتعدد والإله الخاص.

(ثالثا) المسئولية الفردية والبعث والجزاء.

(رابعا) أخلاقية المجتمع وتكامل الفرد والجماعة دون أن يفقد الفرد ذاتيته.

(خامسا) التفرقة بين الألوهية والنبوة وبين النبوة والبطولة.

وحين سيطر الاستعمار على العالم الإسلامي الذي كان قد دخل مرحلة التخلف حاولت القوى الأجنبية عن طريق الاستشراق والتبشير والغزو الفكري ثم عن طريق الماركسية والصهيونية إفساد صورة الحضارة الإسلامية وتشويهها حتى تعجز عن أن تجد القبول في الغرب ولكنها لم تفلح، ذلك لأن حضارة الإسلام كانت وستظل بشهادة المنصفين الغربيين انفسهم مصدراً للتساؤل: هل هي قادرة على إنقاذ الحضارة الغربية وذلك بإعطائها ما ينقصها، كما حاول أن يقول بذلك توينبي وغيره ولكن الواقع كان يؤكد أن للحضارة الإسلامية طابعها المتميز الفريد، وهي به قادرة على إنقاذ البشرية نفسها وليس إنقاذ الحضارة الغربية التي دخلت مرحلة المحاق.

(٢)

يجب أن يفرق المسلمون تفرقة واضحة وعميقة بين أمرين مختلفين تمام الاختلاف، وما بينهما من الاختلاف عميق غاية العمق، وذلك هو ما يطلق عليه اسم العلم وما يطلق عليه اسم الحضارة. ولقد اصبح من تبسيط الأمور إلى الحد الذي يكون أقرب إلى التمويه والمغالطة أن يطلق اسم الحضارة على أشياء متعددة، منها ما يمكن تقبله ومنها ما يجب مواجهته في حذر، وتحليله والبحث عن وجوه التقائه مع الأصل الأصيل للفكر الإسلامي ووجوه اختلافه.

ومن أساليب التمويه: تلك الدعوات التي تدعونا إلى تقبل الحضارة خيرها وشرها، أو تقبل الحضارة أدواتها وفكرها، والواقع أن الحضارة الآن مصطلح معمم يحمل وراءه أشياء كثيرة. تبدأ بالعلم وتطبيق العلم واتخاذ العلم أداة للفن واتخاذ العلم اداة للحرب. واتخاذ العلم أداة للترف، والاستهلاك، والتحلل والانحراف، فكيف يمكن تقبل الحضارة على هذا النحو. إن مفهوم الحضارة المقبل هو مفهوم خروج المجتمعات من البداوة إلى المدنية، أو خروج الناس من أساليب العنف والشر والقسوة إلى الخير والرحمة والسماحة، أو خروج البشرية من العبودية لغير الله إلى عبودية الله وحده. هذا مفهوم التحضر الأصيل، اما المفهوم الذي غلبت، عليه مفاهيم الفلسفة المادية الآن فقد أخرج الحضارة من طور إلى طور، وجعل من الضروري التحوط والتحرز من تقبل مفهومها بكل ما ينطوي عليه تقبلا غير مشروط.

يجب فصل العلم التجريبي عن استعمالاته في مختلف جوانب الحياة والمجتمع تحت اسم الحضارة. كذلك يجب فصل العلم التجريبي عن الفلسفة وما يتصل بها من مفاهيم الجبرية والحتمية ويجب تناول هذه المسائل في وضوح كاشف حتى لا نقع في محظور الاستسلام لمفهوم من وراءه محاذير كثيرة.

إن قاعدة الإسلام في مواجهة الحضارات والمدنيات ومعطيات الأمم وتراث الشعوب هو موقف واضح صريح، إنه يتقبل كل العناصر الإيجابية والمعطيات النافعة التي لا تتعارض مع قيمه وحدوده وضوابطه. ثم هو يأخذ

هذه المعطيات بمفهوم أنها «مواد خام» يستخدمها على النحو الذي يراه صالحاً، وليس لأي حضارة أو أمة عليه قيد أو إلزام أو سلطان أو شرط مسبق، وهذا ليس شأن الإسلام وحده ولكنه هو المفهوم الطبيعي في تبادل الثقافات والتقاء الحضارات، وما من حضارة معطية أو قوية أو سابقة فرضت على حضارةٌ أخرى أو مجتمع آخر كل ما لديها أو فرضت فكرها بشروط مسبقة على النحو الذي نقرأه لبعض كتاب التغريب الذين يتجاهلون أصالة الحضارة الإسلامية وذاتيتها واعتزازها بكيانها الخاص اعتزازاً يدفعها إلى المحافظة عليه أولا حتى لا تحتوي ولا تقهر ولا توضع في بوتقة الأممية، ولقد كان هذا شأن الحضارة الإسلامية في العصور الأولى حين واجهت حضارة الرومان والفرس والفراعنة والهند فأخذت ورفضت، وكان هذا أيضاً شأن الحضارة الأوروبية في عصر النهضة إزاء الفكر الإسلامي والحضارة الإسلامية، فإنها حافظت على كيانها الخاص وأخذت ما شاءت ثم صهرته في كيانها فيكف يراد الآن بالمسلمين- وقد امتلكوا إرادتهم بعد مقاومة استمرت أكثر من قرن ونصف القرن حفاظاً على ذاتهم وفي مواجهة اخطر تحد استعماري عرفه التاريخ- كيف يمكن أن يطلب إليهم اليوم أن يأخذوا الحضارة المعاصرة: مادة وفكراً كذلك، فان الحضارات دائماً هي من صنع الأمم، ولكل أمة حضارتها التي تشيدها من جوهو تراثها وعقائدها ويكون تشكيلها للعلوم والمعطيات العملية على النحو الذي تراه في إطار ذلك فليس للمعطيات العلمية والتكنولوجيا شرط معين مفروض على تشكيلها، وإذا كان الغرب قد شكل هذه المعطيات في إطار الفنون والمسارح والرقص والترف والاباحيات والملابس الزاهية والقصور والعطور والمتعة المالية الغالية المسرفة وجعل المجتمع الاستهلاكي يعج بالكماليات، فان هذا شأنه وذلك من نتائج فكره وعقيدته.

أما الإسلام فانه سوف يحصل على معطيات العلم والتكنولوجيا لا ليوجهها على هذا النحو، وإنما ليوجهها وجهة أخرى بعيدة عن السيطرة على الشعوب وإذلالها وتهديدها بالدمار الذري، وبعيداً عن الإسراف في تجميل الحياة، إعلاء شأن جوانب اللذات والشهوات والإباحيات: انه سوف يجعلها في ضوء القرآن للبشرية عامة، على أساس الإخاء الإنساني، وفي مواجهة الرحمة والخير

والبر، سيجعلها موافقة لفكرة القرآن عن الحضارة: «تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً ». ونحن نعرف أن رجال العلم لم يقدموا الإباحة ولا التدمير كليهما وإنما الذي قدم ذلك أولئك الذين يمتلكون نتاج العلم من أصحاب السلطان المادي القادرين على صنعه وتوجيهه، وقد أعانهم على ذلك جماعة من الفلاسفة- لا العلماء- هم الذين برروا لهم الظلم والاستبداد والفساد: ميكافيلي، سبونزا، شوبنهور، هيجل، ماركس، فرويد، دارون، ديكارت، نيتشة، فولتير، مونتسكيو، هيوم، سبنسر.

لقد كان التقدم العلمي والتكنولوجي ثمرة رخيصة في يد القوى التلمودية الربوية التي تريد السيطرة على العالم وموارده في جشع وكبرياء، هؤلاء الذين يقودون الحضارة الحديثة لحساب المادية الربوية والانحلال والعنف والتدمير.

وإذا نحن راجعنا كل نتاج الفكر القانوني والاقتصادي والسياسي الغربي وجدنا فيه روح التلمودية اليهودية الراغبة في السيطرة على العالم والتي استطاعت أن تحول اهدافها إلى مناهج ودعوات وأيديولوجيات تخضع لها المجتمعات العربية والحضارة العربية خضوعاً تاماً تحت اسم الفلسفة المادية وفروعها من ماركسية وليبرالية ووجودية وعلوم اجتماعية وغيرها. وكلها تعمل على تبرير: استعلاء الإنسان الغربي وتأكيد الاستعمار والسيطرة الاستعمارية الاقتصادية والفكرية على الشعوب، وإباحة الربا وإباحة الفساد والفاحشة وحمايتها عن طريق القانون الوضعي.

تلك ليست روح الغرب المسيحية الأصيلة، ولكنها هي روح اليهودية التلمودية التي سيطرت على الفكر الغربي ونقلته بعيداً عن الدين وعن الفلسفة المثالية إلى اتون الشهوات المادية والإلحادية والإباحية وهي التي تعلي الآن من شأن الجبرية حتى تسحق الإرادة الفردية والمسئولية الإنسانية والالتزام الأخلاقي.

وهي التي دفعت الفكر الغربي كله إلى قيود المادية وآصار التمزق والغربة والضياع، تلك الظواهر التي تفشت في هذه المرحلة من تاريخ الحضارة على نحو بات يهددها بالانهيار، ومن عجب أن يدعى المسلمون إلى نقل حضارة تغرب

وتمر بمرحلة الأزمة والهزيمة والتحلل.

إن ما يدعى المسلمون إليه من الفكر: هو سارتر وفكره الذي يقوم على سطور مريض بالغثيان، أو البير كامي وفكره الذي يقوم على أن كل ما في الوجود عبث، أو ماركس الذي يرى لقمة العيش تحكم التاريخ والمجتمعات، أو فرويد الذي يرى الإنسان عبد شهوته، أو هذه المحاولات التي تريد أن تعالج أزمة البشرية بالهيبية ورفض المجتمع أو البوذية والفناء والنرفانا.

أما ما يدعى إليه المسلمون من الحضارة فهو تلك الفنون المضطربة الهزيلة القائمة على الإباحة والعري واندماج الناس في الشهوات والأنغام المصروعة أو تلك الصور من الانحلال في علاقات الرجل بالمرأة وتهديم الأسرة والقضاء على القوامة واستغلال حبوب منع الحمل في تجاوز كل حد محدود أو استعمال العقاقير من خمر وماريجوانا في الغياب عن الواقع، أو ذلك الاندفاع نحو القضاء على الفوارق الأصيلة بين الرجل والمرأة، ملبساً وزينة وكلاماً وتصرفاً، أو ظهور الجنس الثالث من البشر الذين ليسوا رجالا ولا نساءاً. رجال يتخنثون ونساء يترجلن، وصديق الأسرة، وجماعية عمل الجنس، كل هذا هو ما يطلق عليه اليوم «الحضارة» التي يراها بعض التابعين التغريبين قمة آراء الحضارة وعظمة منتوجها، وهو ما يدعى إليه المسلمون أصحاب التوحيد والأخلاق والالتزام الفردي والمسئولية الأخلاقية والجزاء الأخروي الذين عاشوا يمثلون نموذج الإيمان والخلق ويحملون رسالة التوحيد والحق إلى البشرية كلها وما زالوا مؤملين في أن يستأنفوا هذه الرسالة ويؤدوا هذه الأمانة ليكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليهم شهيداً.

(٢)

إن أخطر الحقائق التي يجب أن يفهمها المسلمون ويضعوها أمامهم نبراسا لا يغفلون عنها أبدا: تلك هي أنهم (الأمة الوسطى): أقامها الله في هذه المنطقة الخطيرة بين القارات وعلى مفارق الطرق بين الشرق والغرب وفي مواجهة مطامع الدول واهواء النفوذ وفي هذا الجزء الغني الحافل بثرواته وخيراته من العالم والذي هو منذ فجر البشرية مطمع الغزاة ومن حوله تحاك مؤمرات

الصراع والسيطرة. ومن هنا فلا بد أن يعرف المسلمون مكانهم الخطير وموقعهم الدقيق ويفهمون مدى ما يحملهم هذا من مسئولية ويفرض عليهم من يقظة ويلزمهم بأن يكونوا قادرين على حماية بلادهم والسيادة على أرضهم والتحكم في مصادرهم ومواردهم ولا ريب يفرض ذلك عليهم استعداداً قائماً وشحنا للثغور دائماً وحشدا لا يتوقف ولا ينفرط، فهم في رباط إلى يوم القيامة حسبما حدث عن ذلك رسول الله ﷺ وأن نظرة سريعة إلى التاريخ الإسلامي لتكشف في وضوح أنهم عاشوا تاريخهم كله في رباط ومقاومة وإعداد لمواجهة عدو لا يغفل عن حصارهم والإدالة منهم إذا ما غفلوا.

ومن هنا فإن أسباب نصرهم إنما يتركز في التماسهم قيمهم الأساسية ومفهومهم الأصيل لحضارة التوحيد والرحمة والإخاء البشري. ولا بد أن يكون التقدم الحضاري جامعاً بين التقدم الخلقي والتقدم المادي. أما التنازل عن الأخلاق فإنه مصدر الأزمات التي دمرت كل حضارة ولا بد أن تسير الحضارة الإسلامية بوجهة الله وعلى طريقة الحق وإلا فإنها لن تستطيع أن تحقق وجودها، وكل حضارة لا تلتمس هذه الوجهة فهي زائلة.

ولذلك فإن الإسلام يقف من الحضارة القائمة موقف المعارضة في الوجهة المادية وفي إسرافها في الترف وفي إنكارها للصانع الأكبر.

إن وقوف الإسلام بحدوده وضوابطه في وجه الحضارة لا ينقص عطاءها المادي ولا تقدمها وإنما ينقص من الأخطار التي تحيط بها ومن الوجهة الضالة الإباحية المادية المسرفة والإسلام يقطع في هذا الأمر بالرأي فلا سبيل إلى قبول التقدم الحضاري المادي الصرف ولا سبيل إلى التنازل عن الضوابط الأخلاقية والاجتماعية ولا يضير الإنسانية أبدا أن يتوقف هذا الجانب الحضاري الآثم، وأن يعترف العالم بمن بيده مقاليد القوانين والسنن وصانعها ومعلم الإنسان إياها والقادر على تغييرها وخرقها: الله جل جلاله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل.

ولا ريب أن المسلمين اليوم وهم يقفون على مفترق الطرق يلتمسون العلم والتكنولوجيا ومعطيات الحضارة ويستشرفون هذه المرحلة الجديدة من حياتهم

فإنهم في حاجة إلى أن يصروا على هذا الإيمان بأسبقية الإيمان بالله والأخلاق
على كل عطاء حضاري مادي وليعلموا أن نقل مستحدثات العلم والتقدم هو
إنما لتكون مواداً خاماً يصهرونها داخل إطار فكرهم وقيمهم، وبذلك يصنعون
الحضارة القادمة: حضارة القرن الخامس عشر الهجري.

الباب الأول
حضارة ما قبل الإسلام

استعراض حضارات اليونان والفرس والفرعونية.
ومقارنتها بالحضارة الإسلامية.

عندما ظهر الاسلام كان ذلك علامة كبرى على طريق البشرية: وفاصلا كبيراً بين عصر ما قبل الإسلام وعصر ما بعد الإسلام: فقد قدم الإسلام للبشرية منهجاً جديداً انتقلت به من الطفولة إلى الرشد ومن البشرية إلى الانسانية بعد أن مرت بمراحل طويلة من رسالات النبوة وصراع الفكر البشري لها خلال عشرات القرون المتوالية.

ولقد كانت الحضارة البشرية قبل الإسلام قد خطت خطوات واسعة في مجال الحرب، الزراعة والنجوم والحساب وتقدمت في مجالات البناء والصناعة خلال حضارات الفراعنة والبابليين والسومريين واختصرت ذلك كله في الحضارتين الكبيرتين اللتين جاء الاسلام وهما ينتقلان من الأوج إلى الانحدار بعد عصور طويلة فرضت العبودية والوثنية وهما حضارة الفرس وحضارة الرومان اللتين تصارعتا في أفق المشرق وسيطرت الواحدة بعد أخرى في مرحلة تزيد على الف عام حيث سيطرت الفرعونية واليونانية والرومانية والفارسية على هذه المنطقة التي حررها الاسلام من بعد واستخلصها من عبودية الوثنية في العقيدة وعبودية الفرعون والقيصر في المجتمع.

ومن ثم فقد استصفى الإسلام عصارة العلوم والفنون والصناعات التي عرضتها هذه الحضارات وصهرها في بوتقة التوحيد من جديد وأنشأ للحضارة مفهوماً جديداً يختلف عن مفهوم التمدن الصناعي القائم على البناء والزراعة والنجوم والحساب وهو مفهوم الاخاء الانساني واخلاقية الحياة وتوجيه اسباب

النهضة والتمدن كلها لخدمة هدف واحد هو بناء المجتمع الرباني القائم على التقوى والرحمة والاخاء.

فلا ريب إذن أن الإسلام هو الذي اطلع فجر العصر الحديث في حياة البشرية حين صبغ الحضارة بطابع (الربانية) المستمد من خالق الكون وصولا إلى (الإنسانية) التي نقلت البشرية من العبودية المزدوجة: عبودية الجسد وعبودية الروح.

ولقد جاء الإسلام والعالم يزخر بالصراع بين اليهودية والمسيحية محفلة في عديد من الأديان الوضعية البشرية وبقايا المزدكية والمانوية والبوذية والزرادشتية وغيرها وكانت هناك أيضاً بقايا الحضارات والامبراطوريات الفارسية الرومانية والفرعونية والهندوكية ومعها لغات السريانية والقبطية وغيرها وركام مضطرب من المفاهيم الوثنية والمجوسية والافلاطونية الحديثة والغنوصبة.

وكان هناك ميراث الفكر اليوناني والحضارة الرومانية التي زاحمته المسيحية حين سيطرت وحولت معابد الوثنية الرومانية إلى كنائس مسيحية وأديرة وهناك صراعها مع المجتمع الروماني بشريعته الوضعية ونظامه العبودي حين عبرت إلى أوروبا واستطاعت أن تشكل عنصراً جديداً من عناصر الحضارة الرومانية إلى جانب ميراث الفكر الهليني والقانون الروماني.

وإذا كانت المسيحية قد عمدت إلى دفن تراث اليونان القديم الوثني وأخفته في الأقبية وحرمت التعامل معه وتداوله لأنه متعارض مع عقيدتها فإن المسلمين لم يلبثوا أن ابتعثوا هذا التراث ونقبوا عليه وجعلوه من مبادلاتهم في معاهدات الصلح بينهم وبين الدولة البيزنطية على أيدي الرشيد أو المأمون ثم تعاملوا معه قبولا ورفضا، قبلوه مادة خاماً ورفضوه منهج حياة أو نظاماً اجتماعياً وعرضوا وقائعه وتفاصيله على منهج التجريب الذي التمسوه من القرآن وصاغوا به أسلوبهم في المعرفة ومنهجهم في العلم.

وهكذا بدأت الحضارة الاسلامية من نقطة التوحيد ومن منطلق الأصالة حين أقامت قاعدتها العلمية الأصيلة مستمدة من القرآن ببناء منهج التجريب

ثم كان عليها وهي وارثة كل الفكر القديم والحضارات السابقة أن تعرض مواريثها على قوانينها الاصيلة. وأن تستصفي منها الصالح والنافع والايجابي وأن تتلخص من ذلك الركام الفلسفي الباطل الذي صنعته أهواء البشرية.

والواقع أن المسلمين واجهوا واقع حضارتي الفرس والروم (البيزنطيين) اللتين كانتا تحملان كل معطيات الحضارة القديمة منذ فجر التاريخ، وظلوا يحملون أمانة الحضارة ألف سنة كاملة حتى جاء عصر النهضة الأوروبية في القرن الخامس عشر الميلادي بعد مرور تسعة قرون على الإسلام ليكون وليد المنهج التجريبي الإسلامي.

ومن ثم بدأت الحضارة الفرعونية من نقطة واضحة هي ميراث الإسلام في مجالي العلم ثم انطلقت لتقيم حضارتها التي استعادت مواريثها القديمة من الفلسفة اليونانية والحضارة الرومانية والمسيحية الغربية لتشكل ذلك النتاج الجديد الذي لم يلبث أن صارع حضارة الإسلام التي كانت قد توقفت عن العطاء.

لم يطمس المسلمون حضارات من سبقهم بل حاولوا مراجعة نتاجها وتصفيته واساغة الصالح منها ورد الزائف وتصحيح المقاييس الخاطئة وتحرير هذا النتاج كله من أوضار الوثنية وتصفيته في بوتقة التوحيد الخالص وقد عالجوا الأمور بعقلية متفتحة وصدر رحب فرفضوا الفلسفات الإلهية القائمة على الوثنية والإباحية، وحرروا شذرات الفلسفة فأهملوا تلك التي لا تتحقق نتائجها بالتجربة كالسحر والنجوم والأساطير وصححوا اخطاء بطليموس وأرسطو وسمحوا لأنفسهم بنقل التنظيمات لا بالنظم فلم تمنعهم عقيدتهم من الانتفاع بالدواوين والأنظمة الخاصة بالمعاملات والدبلوماسية وتنظيم الجيوش والخراج والكتابة مما وجدوه في حضارتي الفرس والروم البيزنطيين وبقي للنظم مفهومها الإسلامي وجوهرها القرآني في الحرب والسياسة والاجتماع والأخلاق. وكان أبرز ما حملت حضارة الإسلام إلى الأصقاع التي دانت لها وآمنت بها: روح الإخاء والرحمة والعدل وأبرز ما حطمت أسلوب العبودية والنظام الطبقي وامتيازات الرؤساء، وكان هذا هو الشق الحضاري لدعوة الحرية وإلغاء العبودية: الأولى ممثلة في تحرير العقل الإنسانس من الوثنية

وعبادة الله الواحد الأحد وهذه الأخرى تحرير المجتمع والإنسان من عبودية الفرد وتسلط القيصر وظلم الطاغوت.

وقد قضت حضارة الإسلام بذلك هو اقوى ركائز الحضارات الفرعونية واليونانية والفارسية والهندوكية التي تمثل عصر ما قبل الإسلام القائمة على العبودية والاستعلاء على الناس وقد جاءت خطة الاسلام في ذلك مطابقة لقاعدة الإسلام الأساسية:

[كلكم لآدم وآدم من تراب: الناس سواسية كأسنان المشط: لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى]

وقد حرص المسلمون في مواجهة نتاج الحضارتين الفارسية (واليونانية الرومانية البيزنطية) على (الأصالة) وحماية الشخصية الاسلامية القائمة على التوحيد وكان لهم بذلك موقفهم الواضح من ترجمة العلوم والفلسفات فقد حرصوا على الانتفاع بنتاج العلوم وحدها ورفضوا الفلسفات الوثنية وحين ترجموا العلوم حرروها من الزيف والأساطير وقوموها بمقياس حضارتهم الجديد (التجريب) الذي كان دعامة بناء الحضارة الاسلامية، ومنها انتقل إلى الحضارة الغربية الحديثة.

وبذلك أهدت الحضارة الاسلامية لوليدتها الحضارة الغربية كل مقومات الحياة والنمو لو استقامت على الطريقة غير أن الحضارة الغربية لم تلبث أن أصابتها ردة الاستعانة بالمفاهيم الوثنية والمواريث الهلينية، القديمة، في أسلوب العيش والحياة في نفس الوقت الذي أقامت منهجها العلمي على أساس التجريب الإسلامي.

وقد اعترف بهذا الأثر كثير من علماء الغرب المنصفون بل إن البعض بلغ في تقديره لها إلى درجة القول بأنه لو لم يظهر العرب على مسرح التاريخ لتأخرت نهضة أوروبا الحديثة عدة قرون ومن هؤلاء مسيو ليبري وغيرهم ممن يقدرون حق التقدير أن الحضارة الإسلامية في عطائها للبشرية بعامة كان لها عطائها الخاص للغرب.

وبالجملة فإن أبرز معالم الاسلام وأعظم مظاهر حضارته ممثل في الذاتية

الخاصة المخالفة لأهل الجاهلية من الأميين والكتابيين في أكثر من مائة مسألة عددها الامام محمد بن عبد الوهاب أبرزها الخوارق والكهنوت والرهبانية والعجز عن التفرقة بين الألوهية والنبوة فجاء الإسلام قائما على النظر الجامع بين العقل والروح والربط بين الدنيا والآخرة، المؤازر للعلم، المؤمن بسنن الله في الخلق والحياة والمجتمعات والحضارة.

(٢)

كانت صورة الحضارة لمفهوم الامبراطوريات الفارسية والفرعونية والرومانية السابقة على الاسلام قاتمة مظلمة ،قائمة على الظلم والاستبداد وعبادة الفرد.

كان كسرى وقيصر والفرعون غلاة في الاستعلاء مسرفين في التسلط.

كانت العبودية هي الصيغة الغالبة للمجتمعات، قطعان العبيد الذين كانوا يمثلون السواد الأعظم كانوا يباعون بسعر خيالي وتستنزف عافيتهم ويكبلون بالسلاسل ويقتلون دون أي حساب، وتتمثل مأساة العبودية في عشرات الصور خلال العصور في هذه المجتمعات. كان تجار العبيد يصحبون الجيوش ويتنازعون الأسرى ويبيعونهم في أسواق الرقيق الكبرى. فتتشكل منهم غالبية الشعوب ويظلون في موقعهم عبيدا على مدى السنوات والأزمان ذلك لأن طبقة الأشراف قائمة على قاعدة التوارث وهي لا يقبل فيها أحداً ولا تقر للعبد سيادة حتى ولو ولى امر السلطان ولا ترى للسيد عبودية حتى ولو سقط عن منصب القيادة هكذا كانت قوانين الأشراف في فارس ومصر وروما جائرة وبذلك فقد فقدت طبقة العبيد حقها في الحياة منذ وقعت في الأسر.

ولقد كانت نسبة العبيد إلى السادة نسبة العشرة إلى الواحد وفي أثينا في القرن الخامس قبل الميلاد كان المواطنون ٢١ ألف مواطن كان الأرقاء مائتي ألف.

وهذه الصورة لا تختلف في حضارات فارس ومصر والهند والمعروف أن الرقيق قبل الاسلام كان سائداً ورابياً نتيجة روح الظلم والعدوان التي عاشتها تلك الحضارات والمجتمعات فقد كانت العادة السائدة قبل الاسلام أن أسرى

الحرب يقطعون بالسيوف ثم تصير نساؤهم وأولادهم عبيداً أرقاء (كما يقول سيد المرسلين) ولكن محمداً ﷺ نهى عن ذبحهم والتمثيل بهم وأمر بأن يبقى في الأسر إلا من أخذ في حرب نظامية متى تدفع له الفدية، ولم يسمح الاسلام بحال من الأحوال بفصل الوالدين عن أولادهم فإذا حملت إمرأة أسيرة في طفل من سيدها تصبح حرة ويصير للطفل حقوقه الشرعية على الوالد.

كذلك حرر الاسلام المجتمعات البشرية من زواج الأمهات وكانت المجوسية والوثنية تستبيح زواج المحارم من البنات والأمهات وترى جواز الجمع بين الأختين قال اليعقوبي في كلامه عن الفرس، انها كانت تنكح الأمهات والبنات وتذهب إلى انه صلة لهن وبربهن وتقرب إلى الله منهن فلما جاء الإسلام أعلن من يحل للإنسان أن يتزوجهن ومن يحرم عليه الزواج منهن وكذلك عرف العرب ما يسمى نكاح الضماد في أن تجتمع جماعة دون العشرة ويتزوجون امرأة واحدة.

وكذلك عرفت النحل الزرادشتية والمانوية والمزدكية هذا الانحراف والتردي في أمر المرأة الى اصبحت رقيقاً مجرداً للبغاء وإدارة للفساد ووسيلة الى اضطراب الأنساب وتداخلها.

وهكذا كانت الحضارات القديمة والمجتمعات في الامبراطوريات المتقدمة الفارسية واليونانية والرومانية غارقة في العبودية وكان نظام الرقيق والاستعباد دعامة تقوم عليها جميع مفاهيم الحياة الاقتصادية وترتكز عليها جميع فروع الانتاج في مختلف شعوب العالم وكانت للرقيق دولة وتجار ومراكز.

ولذلك فقد جاء الاسلام ليقضي على هذه الظاهرة الخطيرة بأسلوب التدرج والتناقص على مدى من الزمن على نحو يحول دون حدوث فجوة في نظام المجتمعات وأوضاعها، ولقد كان أكبر اهتمام الاسلام في سبيل تحقيق ذلك إلى تضييق الروافد التي تمد الرق وتغذيه وتكفل بقاءه. وتوسيع المنافذ التي تؤدي إلى العتق والتحرر وبذلك أصبح للرق على حد تعبير الدكتور على عبدالواد وافي اشبه بجدول كثرت مصباته وانقطعت عنه منابعه التي يستمد منها الماء ليكون مصيره إلى الجفاف وقد أمكن القضاء عليه فعلا بعد فترة إنتقال.

ولما كانت أبرز روافد الرق قبل الاسلام: الحرب وكان مصير الأسرى القتل والاسترقاق والخطف والسلب والقرصنة وكان من روافد الرق إرتكاب الجرائم الخطرة كالقتل والسرقة والزنا ومنه أيضاً عجز المدين عن دفع دينه وسلطة الوالد على أولاده فكان يبيعهم في حالة عوزه، جاء الاسلام قاضياً على هذه الروافد جميعاً ما عدا رافدين اثنين هما رق الحرب الذي يفرض على أسرى الحرب ورق الوراثة الذي يفرض على تلك الجارية ثم قيد هذين المصدرين. قيد رق الوراثة بأن استثنى منه من تأتي به الجارية من سيدها فان ولدها هذا الولد حراً ويلتحق نسبه بالسيد، هذا القيد الذي قيد به الاسلام رق الوراثة انفرد منه بين جميع الشرائع وكان كفيلا بالقضاء هذا الرافد ونضوب معينة.

وفي رق الحرب استثنى الذين يؤسرون في حرب اهلية بين طائفتين من المسلمين فهؤلاء لا يضرب عليهم الرق. ولم يجعل الاسلام الرق نتيجة لازمة للأسر بل يتيح للامام ان يتصرف حيال الأسرى سواء بالمن أو الفدية أو العمل.

وقد أورد القرآن الأمور التي يلجأ إليها المجتمع حيال الأسرى بعد القتال وقصرها على المن والفداء ولم يجعل الرق منها بل قيده بقيود تكفل نضوب معينه بعد أمد غير طويل. كذلك وسع الاسلام منافذ العتق والتحرير وكانت قبل الاسلام ضيقة كل الضيق ولم تكن إلا سبيلا واحداً هو رغبة المولى في عتق عبده، وحطم الاسلام كل القيود وفتح للعبيد ابواب الحرية على مصاريعها واتاح لتحررهم آلافا من الفرص وتلمس للعتق من الأسباب ما يكفي للقضاء على نظام الرق نفسه ومنه التدبير: « الوصية بالعتق » والمكاتبة وعمد الاسلام الى طائفة من الجرائم فجعلها تؤدي إلى تحرير الأرقاء. فجعل العتق كفارة للقتل الخطأ وللحنث في اليمين وكفارة لبعض انواع الطلاق وهو الظاهر وكفارة للفطر في رمضان وجعل سهما من مال الزكاة لتحرير الرقيق (على عبد الواحدوافي).

وهكذا نجد أن الاسلام هو الذي حرر العبيد في كل مكان ووضع الركيزة

الحقيقية في هذه الحرية (بعد أن احتوت المسيحية الغربية مفاهيم الوثنية والتلمودية فاعترفت بالرق وأقرت العبودية الرومانية) وألغى ما بين الأسود والأبيض من أوضاع اقامتها الحضارات القديمة كما ألغى مواضعات البشرية التي جعلت للمال أو الدم أو الجنس أو العنصر أو القبيلة عاملا مقدما.

(٢)

ولعل أبرز ما حملته حضارة الاسلام إلى البشرية: «روح الرحمة» فقد كانت الحضارات القديمة حافلة بأساليب من الظلم والقسوة وحب التعذيب واستمتاع بآلام الغير أنكرها الاسلام وعزف عنها.

فقد كانت حضارتي الرومان والفرس المتاخمتين لحضارة الاسلام تتسمان بالقسوة والوحشية وحب السيطرة والاستعلاء حتى كانت تعد من أبرز خصائص هذه الحضارات، يقول على أدهم: «كان الرومان يعتبرون أنفسهم سادة العالم بالحق المقدس، وكان هدفهم غزو العالم والاستيلاء على كل خيرات الأرض ولم يحجموا في سبيل ذلك عن أي عمل واستباحوا في سبيل ذلك كل خطة واستحلوا كل منكر».

وحين قام الرومان بوضع القانون الروماني جعلوا تنفيذه قاصراً على السادة أو جمهرة الشعب من العبيد والرقيق، فلم تستطع شيئاً أكثر من ممارسة أحاسيس الوحشية والقسوة في الألعاب والمصارعات وكثيراً ما كانوا يذبحون سكان المدن التي يستولون عليها ويقتحمونها كما تذبح الشاة بعد جلدهم وضربهم ضرب مبرحا، ولما كثرت المصارعات واتسع مجالها كان الأسرى لا يقتلون وإنما يسلمون للمدن المختلفة لاستخدامهم في الألعاب.

وكان السادة يبيعون عبيدهم بيع السلع وفي المدن المحصورة يجمع ما بالمدن من مؤن وعتاد ويحرم العبيد من الطعام ويضطرون أن يعيشوا على الحشائش الضارية والاستمتاع بمرأى الوحوش وهي تفترس الآدميين.

وكان الاعدام بالالقاء إلى الوحوش في عهد الامبراطور أغسطس قيصر عقوبة قانونية.

ولما صدرت القوانين لتخفيف الأحكام: حدث أمران، كان ذلك عملا

اقتصاديا فقد قلت المصادر التي يجتلب منها الرقيق بعد استقرار الامبراطورية. وفي نفس الوقت الذي بدأت تتحسن فيه احوال العبيد تزايدت صرامة العقوبات وطريقة تنفيذها واساليب الاعدام كانتزاع اللسان وصب القصدير المغلى المذاب في أفواه المجرمين.

هذه الصورة أزالها الاسلام ومحاها من مجتمعه وحضارته التي شملت القارات الثلاث ووصلت إلى حدود الصين وإلى مصب نهر اللوار في فرنسا وبذلك محاها من العالم خلال هذه الألف عام التي سيطر فيها على الحضارة العالمية.

وإذا كانت الحضارة الرومانية هي الصورة القريبة من مجتمع الاسلام وحضارته فقد كشفت أبحاث المؤرخين عن أنها أقرت العبودية والرق وقننته مادة في القانون وفلسفته أصلا في الفلسفة وقد عرف الرجلان الكبيران في اليونان بتبرير العبودية والرق وهما أرسطو وأفلاطون.

وفي الحضارة الرومانية كان العمالقة الثلاث من فلاسفتها:

(سيشرون وتاسنياس وسنيكا) يبررون العبودية والرق.

يقول علي أدهم: إن كبار المفكرين الأعلياء لم يرفعوا الصوت باستنكار هذه العادة المزرية الحاطمة للاخلاق الهادمة للشعور الكريم، وليس ذلك غريباً فقد كانت النزعة السادية متمكنة في نفوس الرومانيين أصيلة في أخلاقهم.

وكان الرومانيون يستمدون السرور من هذه العادية السيئة لا بحكم التقاليد وحدها وإنما بحكم الدوافع السادية التي ترقد في كل قلب والتي إذا استقطبت يتلهف عليها دافع اقوى واقتناع آثم وكان دافعه حب القوة في نفس الرومان يزيدها حدة وسطوة.

وقد بلغت القسوة في معاملة العبيد في قانون الرومان من القسوة ما يقشعر لها الأبدان، كان العبد الذي يعتدي على سيده يقتل ويقتل معه عبيد المنزل جميعهم وكان يبيعونهم بيع السلع ويعتبرونهم اشياء مثل الجمادات.

هذه الطوابع من القسوة والعنف والظلم كانت ظاهرة أساسية ثابتة في

مختلف الحضارات الشرقية والغربية قبل الاسلام وكان المؤرخون والفلاسفة يبررونها ليحفظوا للسادة الأشراف نفوذهم وسلطانهم مستمراً متوارثاً.

ولقد قرأنا كثيراً من الدراسات التي كتبها التغريبيون فلم نجد هذا الوجه من الظلم والقسوة واضحا فقد وصفت الحضارة الأغريقية والرومانية بأنها منبع النور والثقافة والتمدن دون أن تكشف هذه الجوانب بل اخفيت اخفاءاً مبطلا ظالما فلم يذكر هؤلاء التغريبيون أن تلك الحضارة كانت مؤسسة على عرق جبين الأرقاء ودمائهم فقد كانوا يهملون ذكر ما كان يحدث في المحاكم الاغريقية إذا ادعى احدهم دعوى على رجل وانكر هذا الرجل الدعوى وجيء بالارقاء الذين يملكهم هذا الرجل المنكر وعذبوا باصناف العذاب القاسي الشنيع كي تؤخذ اعترافاتهم وهم يعذبون حجة على سيدهم وكان السيد إذا اعترض على تعذيب أرقائه عد معترفا أو شبه معترف بما يؤدي إلى أدانته هو.

ومن امثال تلك القسوة في الحضارة الاغريقة ما كان يلاقيه الأرقاء في المناجم والمحاجر، ومثلهم مثل الأرقاء في مناجم اليونان.

ويكفي وصف مالاقاه جنود أثينا الأسرى عندما حاولوا غزو (سراقوسة) في صقلية وفشلوا واستخدموا في المحاجر والمناجم ارقاء ومن مظاهر القسوة أيضاً معاملة المدينة الظافرة للمدينة المغلوبة على أمرها إذا ثارت على سيدها فقد كانت المدينة الظافرة تقضي في بعض الأحايين بقتل جميع الرجال وبيع الأطفال والنساء في سوق الرقيق.

وفي حضارة الرومان وجدنا أن مظاهر القسوة لم تكن اقل منها في الحضارة الاغريقية وكان الصلب والتمثيل بالمصلوبين وهم مصلوبون، وكانت ميادين الكولسيوم معرضاً لجنون قسوة النفس الانسانية حتى صارت من ملذات الجمهور الروماني رؤية الوحوش وهي تفترس اجسام الأحياء وتمزقها تمزيقاً.

ولم تتوقف هذه الصورة بعد دخول المسيحية إلى الغرب إلا قليلا ثم احتضنت الكنيسة هذا الأسلوب في تعاملها مع خصومها من الفرق الأخرى على النحو الذي عرف في ابان الصراع بين الكاثوليك والبروتستانت في عديد

من المعارك التي وصفت بأنها مجازر دموية عاتية، بل أن محاكم التفتيش كانت تواجه من يبكي بعذاب أشد فلا يزيدهم بكاء الرحمة الارغبة في تعذيب ضحايا تلك المحاكم اعتقاداً أن ذلك التعذيب وتلك القسوة رحمة بالضحايا ويبررون ذلك بأن تعذيبهم في الحياة الدنيا يقلل من عذابهم في الآخرة.

ويقول المؤرخون أن مظاهر القسوة لم تكن مقصورة على طائفة دينية دون الطوائف الأخرى بل اشتركوا فيها جميعاً. وأن القوانين التي كانت تطبق في الأمور غير الدينية كانت مثقلة بروح القسوة والتعذيب.

ومن يقرأ كتاب فان لون المؤرخ الأمريكي المسيحي (تحرير الإنسانية) يدهش لما ساقه من صور الظلم ومظاهر التعذيب والقسوة في الحضارة الأوروبية مما ورثته من الحضارات الرومانية ولا تزال آلات التعذيب في المتاحف الأوروبية الخاصة بها تدل على مدى ما كانت النفس الغربية تحوي من قسوة.

ولقد كانت القوانين والمحاكم الرومانية ثم الأوروبية إلى قبيل الثورة الفرنسية توقع عقوبات لقطع الأيدي وجدع الأنوف وصم الآذان وقد كان حقاً على هؤلاء أن يتوقفوا عن ترديد كلماتهم بشأن الحدود الإسلامية التي هي عامل درء للجريمة قبل وقوعها والتي تتضائل كثيراً امام تلك الصور القاسية بل أن الباحثين يقولون إن قراءة وصف العقوبات التي وقعت بعد فشل ثورة (دون مونموت) تكفي للدلالة على أن المؤرخين ينسون ما كان في الحضارات الأوروبية من مظاهر القسوة فإننا نقرأ كيف كانت اجسام الأحياء تقطع وتنصب أجزاؤها على النصب والمباني والأعمدة وعند ملتقى الطرق فمن رؤس واحشاء وأرجل وأيد منصوبة نتنة كانت تفسد الهواء في إنجلترا.

ولا ريب أن إعادة النظر في هذا تكشف بلا أدنى ريب تلك الحقيقة التي تقول بأن الإسلام نقل البشرية إلى الرحمة والإخاء وقضى على العبودية والرق وظلم العقوبات وقساوتها وأن الإسلام هو الذي نقل البشرية من طفولة البشرية إلى رشدها ومن قسوتها إلى رحمتها ومن ظلمها إلى عدلها.

وانه هو الذي علم النفس الإنسانية ان تكون غضبتها للحق وان تكون

رحيمة في العقوبات وفي القصاص بما يمنعها من الإجرام والقسوة والهمجية والوحشية.

(٤)

كذلك فان الإسلام نقل البشرية إلى مفهوم «أخلاقية الحضارة» بعد أن كانت الحضارات القديمة تقوم على الإباحية والفساد والنهب وتعامل المرأة معاملة البغى والرقيق ويشهد العلامة درابر على الدولة الرومية فيقول: لما بلغت الدولة الرومية من القوة الحربية والنفوذ السياسي اوجها ووصلت في الحضارة إلى أقصى الدرجات هبطت في فساد الأخلاق وفي الإنحطاط في الدين والتهذيب إلى أسفل الدرجات، فقد بطر الرومان معيشتهم واستهتروا وكان مبدؤهم ان الحياة فرصة للتمتع ينتقل فيها الإنسان من نعيم إلى ترف ومن لهو إلى لذة فكانت موائدهم تزهو بأواني الذهب والفضة مرصعة بالجواهر، ويزيد في نعيمهم حمامات باذخة وميادين للهو واسعة ومصارع يتصارع فيها الأبطال أو مع السباع وقد عرفت حضارات الفراعنة والفرس واليونان والرومان ضروب الرذائل كهتك النساء وإباحة الخمر وتحليل الربا وكان الناس يعتبرون الحق للقوة فكان القوي يتحكم في الضعيف فيسخره لمنفعته أو يبيده وكانت الشعوب الضعيفة تفنى في الشعوب القوية تحت تأثير الأسر المكتسب بحق الفتح وكان الناس يسرقون بعضهم بعضا فيؤخذ الأبناء والبنات من أحضان آبائهم كرهاً ليباعوا في الأسواق وكان الناس لا يعتبرون للمراة حقا فلا يعلمونها ولا يورثونها وكان الناس يستحلون دماء بعضهم لمجرد إختلافهم في العقائد.

هذه هي نماذج من حضارة ما قبل الإسلام، كان الإسلام هو العامل الأكبر في تحرير البشرية منها وتقديم حضارة كريمة قائمة على الرحمة والأخلاق.

وكانت روما كفارس ومصر وبنارس وغيرها في مفهوم الأشراف والعبيد وطبقة الأشراف كانت فيها جميعاً قائمة على قاعدة التوارث وكانت كلمة الناس تعني الأشراف وحدهم اما الأرقاء المحررون والعبيد فقد فقدوا حقهم في الحياة وكانت قوانين العبودية تبيح للدائن أن يسجن المدين الذي يتكرر عجزه عن الوفاء بدينه في سجن إنفرادي وان يبيعه بيع الرقيق وكان

أفلاطون وأرسطو يقران بأن الرق أمر طبيعي لتنظيم المجتمع.

يقول الدكتور عبدالمجيد محمد الحفناوي في كتابه تاريخ النظم الاجتماعية والقانونية ان الوضع القانوني للرقيق- في اليونان- مجرد شيء منقول وقابل للتملك ويمكن بيعه ورهنه وتأجيره إذا لم يكن السيد في حاجة إليه، غير أن وضع الرقيق في هذه الحالة يسوء إذا اجره مع غيره من الأرقاء ولا يتمتع الرقيق بالشخصية القانونية وليس له ذمة مالية ولا يعترف له بحقوق فردية وليست له القدرة على إبرام زواج شرعي صحيح وهو بالتالي لا يستطيع تكوين أسرة شرعية ولا يمكنه الظهور أمام القضاء وشهادته ليست مقبولة وليس له مكانة في المجتمع فهو محروم من كل الحقوق السياسية وللسيد عليه جميع الحقوق التي يمكنه مباشرتها على الأشياء والحيوانات فللسيد حق التأديب ولكن لم يعترف الإغريق له بحق سيده.

(٥)

ونفس الصورة نجدها في مصر القديمة:

يقول الدكتور نور الدين حاطوم في كتابه (موجز تاريخ الحضارة) من المؤكد انه كان للعبودية مكانها في التنظيم الاجتماعي لمصر القديمة. لقد كان غالبية العبيد في الأساس من أسرى الحرب وكانت ملكيتهم تعود بطبيعة الحال إلى الفرعون نفسه الذي كان يستخدمهم في قصوره أو غيرها وقد أبيح لمختلف الطبقات الاجتماعية أن تقتني العبيد فراجت تجارتهم وأخذ الموسرون من المصريين يشترونهم.

وكان الفلاح في زمن الامبراطورية القديمة «قناً» وظلت عبوديته للأرض قائمة في الواقع حتى حين أعلنت شرعة حربية، ذلك لأنه كان اليد العاملة. لهذا كان يرتبط على الدوام بأراضي الفرعون أو بالأراضي الملحقة بالمعابد وليس له حق التحرر من هذا الإرتباط.

وقد حفظ التاريخ الكثير من الوثائق التي تتحدث عن ظلم جباة الضرائب للفلاحين والعقوبات التي يفرضونها عليهم على أن الطابع الغالب كان بؤس الفلاحين وإرهاقهم بالضرائب والفرائض العينية تحت ستار من الواجب

الديني تجاه الفرعون المنقذ والمخلص في العالم الثاني.

(٦)

وفي مجال العقائد نجد الحضارات السابقة على الإسلام قد رسمت صورة قائمة لعبودية العقل والروح قائمة على الوثينة وتعدد الآلهة وعبادة الحيوانات والأحجار والكواكب والنجوم وكانت هناك آلهة كثيرة تعبد في اليونان أو مصر أو فارس والهند، لكل منها طبيعته الخاصة التي تجعله متميزاً عن غيره من الآلهة، كان المصريون يمثلون آلهتهم بشكل حيوانات وبشر معاً وكان بعض المصريين يعبدون ثالوثات إلهية أو حيوانات تحولت مع الزمن إلى صورة بشرية وقد عبد المصري قوى الطبيعة كالشمس والقمر والأرض والسماء وذوي الخصب والتوالد وكان السحر والإعتقاد بالأرواح يشكل جزءاً هاماً من طقوس عبادته على أن البعض كان في الأصل بشراً ثم آلهة. ولما توحدت مصر وأصبح على رأسها حاكم واحد هو «الفرعون» قدمت لهذا الفرعون جميع فروض التقديس وعومل على انه إله تستمر ألوهيته بعد موته، وبعد مرور الأيام ساد الإعتقاد عند المصريين أن الفراعنة هم أحفاد أوزيريس أو صوراً أخرى منه وكانت أخته إيزيس زوجته ولأوزيرس ولد اسمه حورس، واعتقد المصريون أنه كما قدر لأزوريس أن يعيش ويموت ويعود للحياة ثانية فان احفاد الفراعنة سيجدون نفس المصير، وهكذا عرفت الوثنية التثليث الذي إنتقل إليها من الهندوكية ثم منحته لأديان أخرى فيما بعد.

وكان هناك رجال الكهنوت الذين يمثلون السلطة العليا فهم يعمدون الملوك ويقبلون القرابين ويقدمونها للالهة ويقول الدكتور حاطوم مرجعنا في هذه النقطة- أنه كان بين الكهنوت نساء يعتبرون بمثابة خليلات الإله وأخريات يعشن عيش النسك والإنزواء. أما الوظائف العليا. فكانت دوما من نصيب بنات الأسر الكبيرة، وكانت الملكة أو اليد المقدسة هي الكاهنة الاولى لمعبد الإله آمون في الكرنك.

أما كهنوت الرجال فيرأسه كاهن أكبر، ولكل معبد كاهن يرأسه ويتبع الملك الذي يعين كهنة المعابد جميعاً ونتيجة لما كانت تتمتع به بعض المعابد من

ثروات ومقام رفيع أصبح لرئيس كهنتها نفوذ لا يحده إلا سلطان الفرعون نفسه وكان أعلى الكهنة نفوذا الكاهن الأكبر لمعبد آمون في الكرنك.

فإذا انتقلنا إلى الحضارة الفارسية وجدنا نفس الصورة ولكنها من بعض جوانبها أشد قتامة وغلظة، فقد كانوا يقدسون قوى الطبيعة (النار والماء والريح والعاصفة والشمس والقمر والخير والشر، ويعبدون مثرا إله الشمس).

والفكرة السائدة في العقيدة تتمثل في ثنائية العالم بين الإله أهورا مزدا والشيطان اهريمان وليس العالم سوى ميدان صراع بين الخير والشر، وهناك عبادة النار تكريماً للاله (أخورا مزدا) على قمم الجبال وفي القصور وفي قلب المدن وكانوا يعتبرون النار مقدسة، وعلى كل أسرة أن تعمل على أن تظل النار متقدة دائماً؛ وكانت بيوت النار المقدسة تشيد على دكة صخرية مرتفعة وعلى الناس أن يقدموا إلى الشمس وإلى النار وإلى آهور مزدا القرابين.

وفي الهند كانت فكرة الإنسحاب من الحياة والزهد وأمانة النفس، رداً على نظام البرهمية الذي كان يفرض نظام الطبقات وتجعل السيادة للكهنة والبراهمة الذين يحتكرون تفسير (الفيدا) ويعتقدون أنهم أتوا على رأس الآلهة براهما وقد جاءت البوذية معارضة لسلطان الكهنة البراهمة وتحولت بالتدريج إلى عبادة بوذا وأصبح لها طقوس وكهنة.

وفي اليونان تعود الديانة الوثنية على تعدد الآلهة كما صورها هوميروس (ديانة الأبينون وقد عبد الشعب كثيراً من الآلهة التي جعل لها صوراً بشرية، وجعلوا من (زيوس) إلهاً للألهة ومن معبوداتهم الشمس والنجوم والجبال والأرض وعبادة الأوثان بمختلف صورها ومنها إلهة الأولمب.

وكان التوتونيون القدماء يرون في الشتاء قوة تسعى حثيثاً للقضاء على الانسانية وكان الشتاء وليله الطويل ملعب الأرواح الشريرة المخيفة الخارجة من المفاوز في قلب الأرض ومن أعماق البحار الهائجة تفتش عن فريسة بشرية فكان الإحتفال بالأعياد الوثنية ترضية لهذه الأرواح الشريرة.

وكانت هناك برسيفونية التي تخرج إلى العالم فيعود الخصب والنماء فإذا ذهبت جاء القحط والشتاء، وللنيل عروس تزف حتى يفيض مائه، وهناك

الطواف حول شجرة على أنغام الصنوج والطبول والمزامير وفي أيديهم أسواط يضربون بها أجسادهم حتى تدمى، وكان يرافق الطواف رقص وخمر وفسق.

تلك صورة سريعة للحضارات القديمة السابقة على الإسلام بقيمها ومفاهيمها في مجال الأخلاق والعبادة والعلاقات بين الناس.

وقد دمرت هذه الحضارات مظالمها وفسادها: وقد صور القرآن الكريم هذا المعنى في عديد من مواضعه وكشف عن أن تدمير القرى إنما يأتي بعد أن تفقد الأمم قيمتها وأخلاقها وتنحرف عن عبادة الله الواحد وتعيش حياة البطر والترف والفساد.

ويصور ول ديورانت سقوط الحضارات جزاءاً وفاقا لانحرافها وفسادها يقول: إن الحضارة العظيمة لا يقضى عليها من الخارج إلا بعد أن تقضي هي على نفسها من الداخل والأسباب الجوهرية لسقوط روما تتمثل في شعب روما نفسه أي في أخلاقها وفي النزاع بين طبقاتها وفي كساد تجارتها وفي حكومتها الاستبدادية البيروقراطية وفي ضرائبها الفادحة وفي حروبها المهلكة.

ويقول ول ديورانت: كان الإفراط في الصلات الجنسية قد أنقض الحيوية البشرية وكان للامتناع عن الزواج أو تأخير وقته هذا، يضاف إلى هذا عادة الإخصاء التي أخذت تزداد بسبب سريان العادات الشرقية.

وكان الترف سبباً في ضعف الأغنياء والسلام الطويل الأجل سبباً في حرمان الطبقات كلها في شبه الجزيرة عن الروح العسكرية والفنون الحربية وقد عجل الفساد الخلقي هذا الإنحلال، ذلك أن صفات الرجولة التي نشأت عن بساطة العيش وتحمل المشاق ودعمها بايمان قوي، هذه الصفات قد أضعفها بهرج الثورة وحرية عدم الإيمان، فقد أوتي الناس من أهل الطبقتين الوسطى والعليا في ذلك الوقت الوسائل التي يتمكنون بها من إرضاء شهواتهم والخضوع لما يحيط بهم من غوايات لا يصدهم عن ذلك إلا ما عساه أن يكون لديهم من واجب مراعاة اللياقة والآداب العامة.

ثم انحطت عن الناس معايير الخلق والجمال، وتحررت الشهوات الجنسية من القيود في الوقت الذي ضاعفت فيه الحرية السياسية.

ويقول الدكتور إبراهيم علي طرخان أن المؤرخ أميانوس مارسيللينيوس الذي ولد عام ٣٣٠م يرى أن جميع المآسي التي تعرضت لها الامبراطورية الرومانية إنما ترجع إلى التدهور الخلقي.

ويقول المؤرخ ديفر: أن المجتمع الروماني طبقي البنيان والفروق بين طبقاته في غاية التفاوت والتناقض فالطبقة الدنيا المعبر عنها بالعامة أو الفلاحين القرارين تعاني أشد الضيق والظلم والكبت وأخذ فقرهم يزداد سوءاً بسوء توزيع ثروة البلاد.

وظلت سياسة الرومان قاسية مجحفة تجاه هذه الطبقة حتى العهد الجمهوري، وتدخل طبقة العبيد أو الرقيق عند سفح الطبقة الدنيا ويقال أن عدد العبيد في الامبراطورية الرومانية بلغ نحواً من ٥٠ مليون عبد زمن الامبراطور كلوديوس ٥٤م.

ويقول طرخان: أن الأمبراطورية عرفت بدولة العبيد الأذلاء بصرف النظر عن الأرقام ولا سيما أن من المؤرخين من قدر عدد الأحرار من المواطنين بنحو عشرة آلاف أو عشرين ألف مواطن وسري في عرف الرومان أن المواطن الحر العادي هو الذي يمتلك بين خمسة وعشرة آلاف عبد ويقال أن أحد المحررين (أي كان عبداً ثم أعتق) مات في زمن الأمبراطور أغسطس عن ٤١١٦ عبد. وكان للرق أثره البالغ في القضاء على الطبقة الوسطى عماد كل تقدم كذلك لا يخفى أثره في اضعاف الدفاع عن الإمبراطورية الرومانية خلال الأزمات الكثيرة التي تعرضت لها.

مثال ذلك أنه عندما جاء الأريك القوطي وهدد إيطاليا في مطلع القرن الخامس الميلادي هرب الرقيق من استبداد سادتهم وأقبلوا جماعات على معسكر الأريك، إذ كانوا يتطلعون إلى منقذ من الخارج وتجمع لدى الأريك نحو أربعين ألف عبد خلال الفترة ما بين حصار روما الاول ٤٠٨ وحصارها الثاني ٤٠٩ وأدوا له أجمل الخدمات في تعريفه الطرق والمسالك وارشاده إلى مواطن الغنيمة والسلامة في غزوته الأخيرة واقتحامه مدينة روما عام ٤١٠م.

أما الطبقة الوسطى وهي عماد الادارة ومجلس الولايات بل عصب الحياة

في الأمبراطورية الرومانية فقد كان إضعافها وتدميرها من بين الأسباب الكبرى في سقوط الإمبراطورية.

(٨)

كذلك عرفت الحضارة اليونانية- الرومانية عبادة الإنسان فقد سجل توينبي في دراسة (تاريخ الحضارة الهلينية) هذا المغمر الخطير: حين قال: لعل من الأسباب الجوهرية التي أدت إلى انهيار الحضارة الهلينية انهياراً سريعاً هو حين أخذ الهلينيون يتأرجحون بين ضربين من ضروب عبادة الإنسان.

كانت هناك الملاحم التي خلقها هوميروس بمثابة الإنجيل وكانت هناك مجموعة من الآلهة صنعت على صورة الإنسان وصورة الإنسان البربري من دون سائر البشر، ثم قال: لم تشعر الهلينية بالاطمئنان قط لممارستهم عبادة الإنسان ولقد أدرك الهلينيون أنه ليس في استطاعة الإنسان أن يؤله نفسه ويفلت من القصاص، ولذلك فقد اعتنق الهلينيون في الهند ووسط آسيا الديانة البوذية واعتنقوا في حوض البحر المتوسط الديانة المسيحية، وكانت الديانة المسيحية التي استأثرت في النهاية بنصف العالم الهليني تعد صورة معدلة للديانة اليهودية. وقد تم هذا التغيير عن طريق تطعيم الديانة اليهودية بفكرة هلينية تعد في نظر اليهود على النقيض تماماً من كل ما تمثله الديانة اليهودية ألا وهي فكرة التجسد.

ويرى توينبي أن الحضارة الهلينية كانت وثيقة الارتباط بالأديان السماوية التي سادت وانتشرت في كل من آسيا والشرق عامة ولا سبيل إلى الفصل بينهما بحال من الأحوال.

ويقرر توينبي أن ظهور الديانة المسيحية كتب للعالم الهيليني النصر في معركتها مع سائر الديانات المنافسة ولما كانت الديانة الهلينية تؤمن بتعدد الآلهة فقد اكتسبت المسيحية لدى الهلينيين سحراً طاغيا كان كفيلا بأن يأسر النفوس الهلينية ومع ذلك لم يكن في وسع الديانة المسيحية ذاتها أن تشق طريقها في العالم الهليني لو لم تتخذ لنفسها ثياباً هلينية مثلما فعلت الديانات التي تصدت لمنافستها.

وهكذا نجد المؤرخين البارزين يؤكدون احتواء الفكر البشري للنصرانية على النحو الذي أعجزها عن أداء رسالتها في تحرير الإنسان: عقله وجسده.

ويؤكد توينبي هذا بوضوح حين يقول: «وهكذا حلت الديانة المسيحية محل الحضارة الهلينية إلا أنها لم تبرز كما لم يكن في استطاعتها أن تبرز عناصر الحضارة الهلينية التي كانت قد استعانت بها في الماضي في سبيل تحقيق مرماها الأصلي ألا وهو هداية العالم الهليني».

وإن كان عدد كبير من المؤرخين قد أكد أن للمسيحية دوراً أساسياً في انهيار الحضارة الرومانية فإن الواقع يثبت أنها لم تكن قادرة على تقديم البديل القادر على تحرير البشرية من عبودية العقل والجسم وإن كانت قد خففت جفاف الوثنية وأحلت بدلا منها روحاً من الرحمة والسماحة غير أنها عجزت عن أن تنقل البشرية الى التخلص من محاذير الحضارات القديمة وآثامها.

(٩)

جاءت النصرانية إلى أوربا من الشرق واستطاعت أن تخفف كثيراً من غلواء هذا الظلم الاجتماعي والفساد الخلقي ولكنها لم تلبث بعد قليل أن تورطت في مفاهيم وتفسيرات دخلت إليها في شأن التوحيد والرهبانية والعلاقة بين الألوهية والنبوة فعجزت من أن تؤدي رسالتها كاملة وكان أن سقطت بعد قليل في براثن الفكر البشري الوثني فاعترفت بعبودية الرقيق وأحلت الربا وقد سجل هذا الأثر المفكر الغربي ليكي فيما نقله عن العلامة درابر الذي قال إن الوثنية والشرك دخلا في النصرانية بتأثير الذين تقلدوا وظائف خطيرة ومناصب عالية في الدولة الرومانية فقد اختلطت مبادىء الوثنية بالمسيحية.

ونشأ عن ذلك دين جديد تتجلى فيه النصرانية والوثنية سواء بسواء.

(وهنا يختلف الإسلام عن النصرانية إذ قضى الإسلام على منافسة الوثنية قضاء تاماً ونشر عقائده خالصة من غير غش أو تحريف) حتى أصبحت النصرانية الملحقة بالوثنية المشوهة، وقد ابتعدت عن رهبانية تعذيب الجسم مثلا كاملا في الدين والأخلاق وكان من نتائج الرهبانية أن من خلال الفتوة والمروءة التي كانت تعد فضائل عادت فاستحالت عيوباً ورذائل وزهد الناس

في البشاشة وخفة الروح والصراحة والسماحة والشجاعة والجرأة وهجروها.
وكانت العقيدة بهذه الصورة بمثابة تصدي للفطرة الإنسانية ومحاولة لتغييرها بنظام لا تطيقه الفطرة ولا تسيغه ولذلك فهي سرعان ما تخلصت منه وثارت عليه وكان رد الفعل هو حركة الاباحة المعاصرة حيث انتقلت الحضارة الغربية من الرهبانية العاتية إلى المادية الجامحة.

الباب الثاني
منطلق الحضارة الإسلاميّة

أولاً : منطلق الحضارة الإسلاميّة
ثانيًا : عطاؤها لحضارة الغرب

الفصل الأول
منطلق الحضارة الإسلامية

« الإسلام هو الذي أشرق فجر العصر الحديث »

أرست حضارة الإسلام قاعدة: [التوحيد، الإخاء البشري، العدل، الرحمة] أساساً لبناء المجتمع الجديد ثم سمحت بإعادة النظر في التراث البشري القديم فاستصفت منه ما كان من ميراث النبوة، فجددته وحررته من الوثنية، وقد التمست بذلك ترابطها مع دعوة إبراهيم الحنيفية التي جاء الإسلام امتداداً لها بعد أن انحرفت الطريق بما أنزل على موسى وعيسى عليهما السلام ولا ريب أن دين إبراهيم والأنبياء من أتباعه جميعاً كان يحمل أصول الدين المنزل من السماء الموحى به من عند الله والقائم على الحق والعدل، هذا الدين الذي تبلور في الإسلام بصورة عالية ورسالة خاتمة وكتاب خاتم مهيمن على ما سبقه من الكتب.

ولذلك فإن ميراث النبوة الذي أقام بالفعل الحضارة الإنسانية كان على الرسالة الخاتمة أن تستصفيه وأن تتخذ من أصوله الأصيلة القائمة على التوحيد قاعدة بناء الحضارة الربانية: حضارة التوحيد التي ألقى إليها تحرير العالم كله من الوثنية والمادية والإباحية في حلقة الحضارات الفرعونية والبابلية والفارسية والهندية واليونانية والرومانية ومما كان متمثلا إبان فجر الإسلام في امبراطورتي فارس والروم وكانت رومية القديمة قد تركت في الأمة الوسطى المتمثلة في هجرات الجزيرة العربية إلى العراق والشام ومصر وإفريقية منذ ألوف السنين، آثاراً بعيدة وعميقة امتدت أكثر من ألف سنة في اللغة والعقيدة والقيم وهذه هي التي سرعان ما حرر الإسلام منها الأمة الوسطى وردها إلى الأصالة التي كانت طريقها الأول منذ عرف أهلها الحنيفية السمحاء طريقاً مستقيماً متصلاً قائماً على الفطرة والحق.

وهذا الأصل القديم الأصيل هو السر وراء تلك السرعة العجيبة في قيام الدولة الإسلامية واتساع نطاقها من حدود الصين إلى مصب نهر اللوار في فرنسا فقد أعاد الإسلام البشرية إلى الفطرة، وحررها من عبودية العقل والجسم معاً، ووجد الناس في حكم الإسلام العدل والرحمة والسماحة دون أن يفرض عليهم عقيدته ما لم يروا هم ذلك خيراً لأنفسهم.

ذلك أنه سرعان ما تهاوت الحضارة الفارسية والرومانية وانطفأت بيوت النار التي أقيمت فوق القمم العالية، وسقطت كل الأصنام والتماثيل ومعاقل الوثنية، وتبين بالقرآن فساد المقومات التي قامت على الوثنية والمجوسية والهندوكية والبوذية واستطاع الاسلام أن يقضي على نظام الطبقة المستعلية بالاستبداد والظلم وعبادة الفرد والسحر والإباحية فقد سقطت هذه النظم في الغرب والشرق على السواء، وعرف الناس أنهم أحرار بمولدهم وخلقهم وليست عليهم عبودية إلا لربهم، وإنهم أعزاء بخالقهم فلله العزة ولرسوله وللمؤمنين.

فلا ريب إن كان تكريم الإنسان هو أرقى مفهوم في الحضارة الإسلامية.

كذلك فقد أعادت مفاهيم الحضارة الاسلامية الإنسانية إلى الفطرة فقد حررتها من كثير من الخرافات ومنافرة الطباع من عبادة قوى الطبيعة، أو عبادة النار أو الحيوانات أو إنكار البعث والجزاء أو الدعوة إلى سقوط التكليف أو الحلول والاتحاد والإشراق أو تحريم ما أحل الله من لحم الطير وتحريم صيد الحيوان بدعوى قتل النفس أو تعظيم البقر وعبادتها أو نكاح ذوات المحارم كما في الماجوسية.

(٢)

تتمثل معطيات الحضارة الإسلامية في هذه الأصول العشرة:

أولا: قامت الحضارة الاسلامية على أساس رسالة سماوية هي الاسلام: تؤمن بوحدة البشرية لأنها تؤمن بوحدة الله وبوحدة الانسانية وبوحدة الحقيقة وهي بالتالي تتوجه إلى العالم كله وإلى الكون. من هذه الإنسانية في الحضارة الإسلامية تنشأ الوحدة الثقافية والوحدة الاجتماعية المستندة إلى نظرة إلى الكون واحدة ونظرة إلى الحياة واحدة.

وقد قامت على أساس من التوازن بين العقل والروح، هذا الأساس المزدوج اللازم لكل بناء اجتماعي أهل للخلود.

وقد قامت الحضارة الاسلامية على أساس تفاعل علوم الدين مع الحياة ومن ثم لا يرى للفكر الاسلامي ما يسمونه النظرة الدينية منفصلة عن كافة القيم مجتمعة ومن هنا كانت سماحة الحضارة الاسلامية وإنسانيتها وعالميتها.

ومن شأن الحضارة التي تنبع كل مقوماتها الجوهرية من وحي رسالة السماء أن تستمد منها القوة والتماسك والروح وأن يتمثل فيها التوازن بين مطالب الروح ومطالب البدن والبعد عن الزهد المعطل للعمل والارتفاع عن المادية الجامحة المفسدة لانسانية الحياة.

ولعل ميزة الحضارة الاسلامية التي تمثل ذاتيتها الخاصة هي أنها ربطت الحياة بالآخرة، والعلم بالدين والسياسة بالحق، وبذلك تقدمت إلى البشرية على أنها حضارة متكاملة يعيش أصحابها لدنياهم وآخرتهم جميعاً.

ثانيا: أقامت الحضارة الاسلامية من وحدة الفكر رابطة ومن الايمان بالله عـروة جامعة بين أهله رفعتها فوق الروابط والعصبيات والأجناس وقضت بها على عصبية الجاهلية، ومن هنا فلم يكن هناك تقسيم للفكر والنتاج العملي بين الأجناس من فارسية وعربية ورومية ذلك لأن مصدر الفكر لم يكن العرق والدم بقدر ما كان ذلك التوحيد الذي انصهرت فيه العقول والقلوب فأخذ بمجامعها وصدر عنها الطابع الواضح، ذلك أن الاسلام منذ أول أمره وفي أعمق مفاهيمه هو صهر للنفس والعقل والروح في كيان واحد تحررت به جميعاً في كياناتها السابقة سواء أكانت جاهلية عربية أو وثنية هندية أو مجوسية فارسية ولقد حدد الإسلام هذا المعنى حين جعل الأهلية والنسب والعروة الرابطة هي رابطة الفكر وليست رابطة العرق أو القبيلة أو الأرض.

ويتصل بهذا مفهوم الإسلام عن الدين بوصفه نظاماً اجتماعياً كاملا جامعا بينما يقف الفكر الغربي من مفهوم الدين على أنه عبادة، كذلك فإن الاسلام يرى الدين عنصراً أصيلا في تكوين الانسان والمجتمع والحضارة بينما يرى الفكر الفردي أن الدين فكرة تجاوزتها الأمم وإنها عامل من عوامل التخلف ويرى

الغربيون أن الغربي إذا صار عالما ترك دينه بينما يرى لا يترك المسلم دينه إلا اذا صار جاهلا.

ثالثا: يقرر الإسلام أن القيم الأخلاقية هي أساس بناء الحضارات وعمادها فإذا انهارت الأخلاق انهارت الحضارة، فالأخلاق هي مصدر التفوق في مختلف مجالات السياسة والاقتصاد ومن هنا استطاعت الحضارة الاسلامية أن تطبق الصدق والمساواة والتواصي بالحق وأن تقيم العدل على المسلم وغير المسلم وعلى الصديق والعدو.

ولقد كان سقوط الأخلاق هو أول أسباب سقوط الحضارات التي لا ينقذها ازدهار القوة العسكرية فالانحلال الأخلاقي يعرض النسيج الاجتماعي كله للخطر وكذلك سقطت الحضارات القديمة .

وقد غاب عن بال أصحاب- الحضارات القديمة أن العلم والأخلاق وجهان متلازمان بالضرورة للبناء الحضاري لأن العلم بلا أخلاق تحويل لقدرة الانسان نحو الشر والباطل والأخلاق بلا علم تحويل لقدرة الانسان إلى سراب حضاري قائم على الفقر والعجز.

ولقد قرر الإسلام أن أخلاقية الحضارة وانسانيتها هما قانون البقاء والاستمرار وسرهما الذي لا يقوم إلا بهما ويسقط إذا إنسحبت منها وأن أكبر محاذير الحضارة هو إطلاقها من ضوابطها إلى معارضة قوانين الحياة ونواميس الكون في كلا الاتجاهين إلى العزلة والرهبانية أو إلى الإسراف والانحراف وكليهما يدمر الإنسان.

رابعا: من ابرز الدعائم الاجتماعية التي أقام عليها الإسلام حضارته: الإيمان بالترابط بين حق الفرد ومصلحة الجماعة، وإنكار إحتكار الثروة لطبقة واحدة وإحتكار التجارة في الأسواق العامة، وفرض كفالة المجتمع لأبنائه من العجزة والضعاف والمحرومين والنهي عن حصر المال في طبقة دون سائر الطبقات ومنع كنز الذهب والفضة وتحريم أكل أموال الناس بالباطل وتحريم الربا واحلال البيع والتجارة.

وحيث يـرى الإسلام أن البشرة السوداء لا تقلل من شرف النفس

الطاهرة ولا ينقص من علم العالم ولا من سمو المفكر كما يقول ابن خلكان كذلك فقد حرص الإسلام ألا يسمح لعائق أن يقف في وجه وحدة المجتمع لا سيما العائق الطبقي الذي يحكم على الإنسان باعتبار الطبقة الاجتماعية التي ينتمي إليها وإنما أقام التفاضل على أساس المواهب والقدرات وما يمكن أن يقدمه الفرد للمجتمع من خدمات وبذلك قضى على أنظمة الهندوكية والزرادشتية واليونانية والرومانية التي قسمت الناس إلى طبقات وأقامت مجتمعاتها على أساس الانساب وحرمت الترقي بين أبناء الأمة.

أما الإسلام فقد جعل كل فرد من المجتمع الاسلامي يستحق من الاحترام والطاعة قدر ما يتحمل من المسئولية وقدر ما يتحلى به من صفات طيبة كالعقل والعلم والخلق والسن والمكانة بين الناس وقد أوجب الاسلام الحفاظ على اسباب الولاء بأنواعه الثلاثة : ولاء النسب وولاء العقد وولاء الدين وجعل الضعفاء في المجتمع في حماية وأمن كامل سواء الضعفاء من ناحية التركيب كالنساء أو من جهة السن كاليتامى أو من جهة المعاش كالفقراء أو من جهة الرقبة كالعبيد أو من جهة الوطن كالغرباء وأبناء السبيل وقد حث الاسلام على رعايتهم جميعاً.

خامسا: كرم الاسلام المرأة ودعا إلى حسن معاملتها واحترامها والعمل على رفع مستواها وكانت الحضارات القديمة والمجتمعات الرومانية والفارسية والفرعونية تسيء معاملتها وتنكر أن لها روحاً وكان الرجل يقسو عليها فجاء الاسلام ليرفع من شأن المرأة، ويطلق يدها في التملك دون قيد على معاملاتها وأموالها وقد منح القرآن الحقوق المدنية الكاملة للمرأة، أُمّاً وزوجة وأختا وبنتا لها حق التمتع بحقوقها في أموالها وفي معيشتها وقد جعل لها الحق فيما اكتسبته [للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيباً مفروضاً] كما ساوى بينها وبين الرجل وجعل للرجل عليها درجة: هي درجة القوامة، كذلك فقد أباح الاسلام لها حرية الانفصال إذا تعقدت الأمور وتعذرت عشرة الزوجين ومع ذلك فقد جعل الطلاق من الأمور المكروهة وأمر أن يعاشر الرجل المرأة بالمعروف وأن يفارقها بالاحسان. ولم يكن تعدد الزوجات إلا حكمة عالية من

الاسلام في مواجهة ما يحدث في النحل الأخرى من زنا وفساد وحياة فاسدة دون علم الزوجة.

ولا ريب أن حضارات البشرية السابقة للاسلام كانت تعامل المرأة معاملة شديدة القسوة. وقد أشار جوستاف لوبون إلى هذا المعنى حين قال إن الأوربيين أخذوا عن العرب مبادىء الفروسية مما اقتضته إحترام المرأة، وأن الاسلام حقا لاغيره من الأديان هو الذي رفع المرأة من الدرك الأسفل الذي كانت فيه فإذا نظرت إلى سيرة المرأة للاقطاعيين في العصور الوسطى رأيتهم لم يجعلوا شيئاً من الحرية للنساء وأنت إذا تصفحت كتب تاريخ ذلك الزمن علمت أن رجال عصر الاقطاع كانوا غلاظاً نحو النساء قبل أن يتعلم الغربيون من العرب أمر معاملتهم بالحسنى ».

سادساً: عمل الاسلام على توجيه سير الحضارة إلى الأمن والسلام والرحمة فأدارها من خلال القيم والأخلاق والتقوى حتى لا تصبح العلوم التجريبية أداة لتدمير الانسان على النحو الذي اعتنقته الحضارة الغربية من بعد حين إدارتها على الجشع والطمع والتسلط.

كذلك قامت حضارة الإسلام على أساس مفهوم التوازن بين مقاصد الروح ومطالب البدن والبعد عن الزهد المعطل للطاقات وبين المادية الجامحة المفسدة لانسانية الحياة،. ولذلك اتسمت الحضارة الاسلامية بالسماحة والانسانية وحرصت على توفير الخير للناس كافة واحترمت شعائر غير المسلمين وفتحت أمامهم أبواب الترقي والتبريز وجعلت حماية الفقراء والمساكين وذوي الحاجة والعلة والمرضى والمزمنين حقاً مفروضاً على الأقوياء والأغنياء وليس منحة أو صدقة.

وحين أقام الاسلام مبدأ الأخوة الانسانية لم يحارب طوابع الأمم والشعوب وإنما اعترف بها وأفسح لها مكاناً وعمل على القضاء على تفاخرها وتناحرها فالاسلام لا يلغي وجود الناس ولكنه يلغي التعصب والصراع ويفتح أبواب اللقاء والترابط ولقد سقطت النازية بوصفها مذهباً يقوم على التفرقة العنصرية وعلى سيادة جنس من الأجناس بدعوى تفوقه على سائر البشر

وسوف تسقط نظرية الشعب المختار وتسحقها حقيقة الوحدة البشرية.

واذا كانت الحضارة الغربية ما تزال تشيع وتعمق مبادىء العنصرية في واقع حياتها وفي أفلام السينما فان ذلك هو مقتلها القريب أما في الاسلام فان هذا الأفريقي الأسود ساكن الأحراش إذا ما دخل الاسلام فقد أصبح له كل حقوق المسلم وواجباته.

سابعاً: رعاية الفطرة والحيلولة دون إفسادها وذلك بتربية المسلم وحماية فطرته وتزكيتها ودفعها إلى طريق الخير. والحيلولة بينها وبين الفساد الذي يأتيها عن طريق الرخاوة والترف ومن ثم يشكلها قوية صابرة مفطومة عن الشهوات قادرة على مواجهة تحديات الخطر عارفة بدورها في الحياة ورسالتها في المجتمع، فهي لا تستسلم ولا تستنيم وإنما تحمل دائماً سلاحها في يدها مرابطة حتى لا يفاجئها العدو، فالاسلام هو رسالة الله الحقة إلى البشرية يجب أن تبقى وتستمر وأن تحتفظ بطوابعها وملامحها وقيمها دون أن تضعف أو تنصهر أو تحتوى في الحضارات الأخرى، ولا يحفظ لها ذاتيها إلا القيام عليها للحيلولة دون التعقد فتظل بسيطة يسرة سهلة سمحة، متكاملة جامعة تصل بين العبد وخالقه دون واسطة، وتجمع بين العبادات والمعاملات وتأخذ وتعطي دون أن تفقد قاعدتها الأساسية، وتجمع بين الإيمان والعمل وتربى الإرادة القادرة على تحمل المسئولية والجزاء الأخروى والتي تدفع الفرد الى حماية شخصيته وتأكيدها مع انماء طوابع الغيرية والرحمة والعطاء والبذل للآخرين ومن هنا كان الجهاد في سبيل الله فريضة من فرائض الحضارة الاسلامية، دفاعا عن دين الله ونصرة للحق، وقضاءاً على الظلم وإنصافاً للمظلومين وشداً من أزر المستضعفين من الرجال والنساء ومقاومة الفساد.

ومن شأن مفهوم الإسلام الجامع أن يحترم الإسلام القوة ويحث على حماية المال أن ينفق في غير مصادره الصحيحة، وأن تكون القوة وسيلة لردع العدو وإرهاب الخصم وحماية أرض الإسلام وليس للاستعلاء أو الاستعمار والإفساد في الأرض.

ثامناً: تقرر مفاهيم الإسلام أن الحضارة هي كل تقدم يقوم به الإنسان في

مجال بناء الإنسان نفسه (عقلا ونفساً) وفي المجتمع وفي المادة على أن يكون هذا التقدم موجهاً لله خالصاً لإقامة المجتمع الرباني وتحقيق رسالة التوحيد ومن ثم فإن علاقات الناس في المجتمع لا تبنى على أساس مادي وإنما على أساس معنوي فليست قيمة المرء بغناه وجاهه وإنما بالتقوى والتقوى هي تجنب ما يغضب الله وما حرمه والوقوف على حدوده وإقامة التعاون في السراء والضراء يسعى بذمتهم أدناهم وأن يقوم المسلم بواجبه نحو أخيه، أن ينصحه ويساعده ويعينه، ويحب لأخيه ما يحب لنفسه، والحرية مضبوطة لها حدودها ووجهتها الخالصة إلى الخير والنصح وحجب الشر، وإعلاء وجهة الحق وروح الجماعة وأن تكون كلمة الله هي العليا.

تاسعاً: تتمثل روح الإسلام في بناء الحضارة في تحرير نفس الإنسان من الشهوات وتحرير الإنسان نفسه من العبودية وتطهر النفس بالعبادات.

ومن ثم فإن تهذيب النفس وتذكيتها أصل أصيل في الحضارة الإسلامية وتطهير النفس لا يعني حرمانها من زينة الله التي أخرج لعباده ولكنه توسط ومعادلة تحول دون الانحراف بها أو الوقوع في حدود الله. وحيث لا يقر الإسلام الانحراف إلى الشهوات والإنغماس فيها فهو لا يقر قهر الجسم وتعذيبه بمفهوم الرهبانية التي تحول دون الاستمتاع بما أحل الله: « قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا خالصة يوم القيامة ».

فالإسلام يدعو إلى التحرر من عبودية المادة وطغيانها ولكنه يدعو إلى الإنفاق وإظهار نعمة الله وإشاعة روح الرحمة والعطاء والفضل في كل ما يتصل بالإنسان من أسرة مجتمع وأقارب.

وقد وضع الإسلام من أجل ذلك نظامين: نظام الزكاة ونظام الصدقات وجعل من الزكاة ومن الميراث عاملين هامين في تغيير المجتمع ونقل الثورة من يد إلى يد أخرى خلال أربعين سنة.

ولذلك أقام الإسلام الإقتصاد الإسلامي على أساس البيع والاقراض بغير فائدة فأحل الله البيع وحرم الربا وحرم أعمالا كثيرة لتكون مصدراً للرزق

وارتفع بالانسان عنها وخاصة تجارة الموبقات ودعا إلى الكسب من الطيبات والأعمال الشريفة.

عاشراً: حرر الإسلام العقل من كل سلطان إلا سلطان الله فالعقل من خلق الله فهو يخضع له فلا يشترك معه في الألوهية وقد أودعه في الإنسان ليكون أداة في معرفة الكون وكشف ما يلزمه منه ويهتدي به في الظلمات التي ليس للدين أن يكشفها. والعقل واسطة لا غاية وهو آلة تنكسر على ما يتعدى ميدانها ولا تستطيع أن تعطي إجابة فيما هو فوق مقدرتها ولا تستطيع أن تتحدى قوانين الله فليس للعقل قداسة ولا سلطان متصل بذاته، وإنما هو نور مصباح يكشف الظلمات ويهتدي بالوحي المنزل، وينكسف أمام نور الله وهو لا يستطيع أن يكشف سر الخلق والكون أو يضع مبادىء المعرفة.

ولذلك فقد أعطى الله الإنسان هذا العلم عن طريق الوحي ورسالة النبوة وكتبه المنزلة وقد قدم الله تبارك وتعالى للبشرية في القرآن الكريم منهجاً كاملا لعالم الغيب وما وراء الحياة البشرية المشهودة، وذلك حتى لا يشغل عقله ولا يضيع وقته في البحث عنها بنفسه وبإرادته القاصرة لأنه لن يستطيع أن يصل إلى شيء منها وإنما أعطى العقل ليكتشف ويعمل في مجال الرزق وشؤن العيش واستكناه ثروة الأرض المدفونة وتذليل أوجه الكسب.

ومن هذا المنطلق عرف المسلمون طريقهم إلى العمل مهتدين بقوله تبارك وتعالى: « قل أنظروا ماذا في السموات والأرض ومن هنا استطاع المسلمون إنشاء المنهج العلمي التجريبي الذي به بدأت الحضارة البشرية تدخل مرحلة الصناعة والتجارة والكهرباء والذرة والتكنولوجيا.

(٢)

لم تعد هناك مماراة ولا ريب في أن الإسلام هو الذي قدم للبشرية مفهوم الحضارة الانسانية، وإن الحضارة الإسلامية هي التي قدمت للإنسانية: منهج التجريب.

بل إن الحضارة الإسلامية لم يتوقف عطائها عند العلوم التجريبية وحدها بل امتد إلى العلوم الإنسانية. وقد انتهت منذ وقت قريب تلك النزعة الضارة

التي عرفها الفكر الأوروبي: نزعة إنكار أثر الفكر الإسلامي في مجالات العلوم الطبيعية والرياضية والتي أطلق عليها (مؤامرة الصمت) والتي حمل لوائها رينان وعدد من المفكرين الغربيين والتي رددها وأذاع بها طائفة من تابعيهم من دعاة التغريب، تلك دعوى إنكار أثر المسلمين في بناء الحضارة. انتهت هذه النزعة منذ قريب وعلت أصوات منصفة تعترف للمسلمين بأثرهم العميق ودورهم الواضح في الفكر الإنساني كله وليس في مجال العلوم التجريبية وحدها وسجلت كتابات دراير، ولوبون، وهونكه، اعترافاً صادقاً بدور الحضارة الإسلامية الواضح في بناء العلم االتجريبي.

وأصبح معروفا في مختلف مجالات الثقافة والفكر أن الإسلام هو المصدر الأساسي لبناء منهج التجريب الذي أنشأه العلماء المسلمون والذي صدروا فيه عن القرآن الكريم، وكيف أن الحضارة الإسلامية بسمتها الواضحة وذاتيتها الخاصة قد تخطت المنهج اليوناني القياسي في كل ما يتصل بمفاهيم «الأرجانون» الوثني المستمد من طبيعة الفكر اليوناني والذي هو روح الحضارة اليونانية، وقد تقرر على أيدي عدد من الباحثين أن مناهج أي فلسفة إنما هي مستمدة من نظامها الإجتماعي، ومن ثم فإن النظام الإجتماعي الإسلامي الذي قام على أساس قاعدة التوحيد. لم يكن ليقبل أن ينصهر في الفلسفة اليونانية التي تقوم على تعدد الآلهة وعلى التفرقة بين الناس وتقسيمهم إلى سادة وعبيد، ومن هنا فقد تجاوزت الحضارة الإسلامية هذه العقبات والقيود إلى مجتمع الإخاء الإنساني والرحمة وفي مجال العلم تجاوزت المنهج النظري القياسي إلى المنهج التجريبي الإسلامي.

لم يقف أثر الإسلام عند إنشاء المنهج العلمي التجريبي الذي يمثل القاعدة الأساسية للحضارة الإسلامية بل نرى الإسلام وقد أمد العلوم الإنسانية جميعاً من فيضه القرآني ويتمثل ذلك بوضوح في علوم السياسة والإجتماع والتربية والإقتصاد والقانون ومن خلال نظرياتها ومناهجها.

في خلال ألف عام قدم المسلمون نتاج العقول وأقاموا الحضارة الإسلامية على دعامة القرآن فاستوعبت كل مجالات التمدن والنهضة والتقدم وصهرت في

أعماقها ما صلح من بقايا المدنيات القديمة وفكرها وأعاد تشكيل هذا كله مع الإضافات الجديدة في إطار التوحيد، فصدر منهجاً تجريبياً حياً متحركاً بدلا من ذلك الاستقرائي الجامد الذي خلفه اليونان وسرعان ما سقطت اللغات القديمة والعقائد والتفسيرات المضللة وعبادة النار وتجددت النفس الإنسانية في ضوء تحررها من الوثنية وتحرر الإنسان من عبودية القيصر والفرعون وطبقة الأشراف وسقطت حضارات الفراعنة والفرس والهندوس والرومان نهائياً.

وقدمت الحضارة الإسلامية منجزاتها الوافرة ومعطياتها الثرة في مجال الطب والبصريات والكيمياء والرياضة والفلك وطبقات الأرض وعلم الإجتماع والهندسة التحليلية وحساب المثلثات والجبر اللذين لم يكونا معروفين عند اليونان والبصريات والصفر والفلك وتكوين الأحجار والمواد المعدنية.

وبرزت أسماء ابن خلدون والغزالى وابن حزم وابن القيم والبيروني وابن الجوزي وابن حنبل والأشعري والماوردي والحسن بن الهيثم.

ولم تلبث الحضارة الإسلامية أن قدمت العلم للبشرية كلها ولم تجعل منجزاته قاصرة على أهلها وحدها وبذلك تمكن الغرب من ورود مناهل العلم الإسلامية في الأندلس والانتفاع بتلك الانجازات.

وقد صاحب هذه المعطيات الحضارية العلمية قوانين أخلاقية وإجتماعية تنظم العلاقات بين الفرد والجماعة وتقضي على الأنانية والعصبية والظلم والطغيان وتحرك الحضارة كلها في إطار الرحمة والإيمان وتوجهها نحو اسعاد البشرية.

وبذلك خرج العالم القديم من حجب الوهم والخرافة، وأخذت الإنسانية تسعد بكشف قوانين الكون وأسرار الحياة فاخترقت الآفاق المجهولة في البحار والجبال واندفع العقل البشري إلى العمل والتجربة في نفس الوقت الذي أمنه ايمانه بالله من القلق والتمزق، وكانت النفس المسلمة المهذبة المرتبطة بالله والتي تخافه وترجوه، وتتقيه، تجد طريقها الصحيح فقد منح الايمان النفس الإنسانية سلامها ويقينها بعد أن كانت مضطربة تعتقد أنها في حرب دائمة مع الآلهة والأرواح الشريرة تحاول استرضائها ودفع سخطها فجعلها الإسلام

مطمئنة راضية تؤمن بإله واحد هو وحده القادر المتصرف، وهو وحده الذي تعنو له الجباه.

ويمكن القول أن حضارة الإسلام ممثلة في قيم أساسية خمس:

(١) تمدين الإنسانية وتحررها من العبودية.

(٢) توحيد العبادة وتحرير البشرية من الوثنية والتثليث والاله الخاص والتعدد.

(٣) إقامة المسؤولية الفردية والبعث والجزاء.

(٤) أخلاقية المجتمع.

(٥) التفرقة بين الألوهية والنبوة وبين النبوة والبطولة.

وهكذا نرى أن الحضارة الإسلامية لها ذاتيتها الخاصة ولا تنتسب إلى حضارات سابقة لأنها تشكلت تشكلا ذاتياً خاصاً منفصلا عن الحضارة القديمة وقد استكملت وجودها ثم لم تلبث أن واجهت الحضارتين الرومانية والفارسية وهي ذات أداة مستقلة وقدرة ذاتية على على عدم الانصهار ومن هنا يبدو خطأ أرنولد توينبي الذي يرى أن الحضارة الإسلامية متصلة بالحضارة السريانية القديمة على بعد ما بينهما من فوارق وعلامات.

الفصل الثاني

عطاؤها لحضارة الغرب

إن أبلغ ما أعطت حضارة الإسلام للبشرية إنما يتمثل في تلك القاعدة الأساسية: أن نقطة البدء في الحضارة هي العقيدة وأن روح الحضارة هي الأخلاق. ولأول مرة تتعلم البشرية كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين، وتقوم مفهوم التقدم كاملا ترتبط فيه الروح والمادة والدين والعلم والدنيا والآخرة.

وإن أبرز ما أعطته الحضارة الإسلامية لحضارة الغرب هو:

أولا: تحرير الفكر الأوربي من وثنية الفكر الإغريقي.

ثانياً: تحرير العقائد الدينية وإخراجها من نفوذ الكنيسة.

ثالثاً: إعطاء العلم أسلوب التجربة وكان اليونان يأخذون بالقياس.

رابعاً: إعطاء البشرية مفهوم الحرية والإخاء والعدل الإجتماعي.

ولا ريب أن هذا العطاء هو الذي بنى الحضارة الغربية الحديثة التي هي وليدة الحضارة الإسلامية جاءت بعدها بعشرة قرون وجاءت بعد المسيحية بخمسة عشر قرناً.

ولقد شهد بهذا العطاء مفكرون منصفون فقرروا هذا الأثر الضخم.

١ - يقول دكتور لويجي رينالدي: بينا كان نجم المدنية الرومانية التي قامت على أطلال المدنيات القديمة قد أخذ في الأفول وكانت أوروبا قد عادت وسقطت في ظلمات الجهل كان العرب يشرفون برؤوسهم من سواحل البحر الأبيض ولم يلبثوا أن قامت منهم تلك البعثة الخطيرة التي أيقظت الأمم الأوروبية. وإن ظهور العرب لحادث جلل يستحق أن يذكر منا بالشكر والامتنان لأن مدنية هذا الشعب العظيم كان لها تأثير. وأي تأثير في حياة

الشعوب اللاتينية بل الأوروبية، وكان العالم اليوناني وأخوه الروماني قد سقطا في كل مكان عندما أخرج محمد العظيم خلفاءه من أبناء الصحراء ونشرهم في أنحاء العالم لفتحه وغزوه فانتشروا في كل مكان وجروا فوق صهوات جيادهم شرقاً وغرباً حتى شيدوا ذلك الملك الكبير الزاهر الذي كان يمتد من بلاد الهند إلى بلاد الأندلس ومن بحر الخزر حتى المحيط الأطلسي. ثم نقل المسلمون مدنيتهم وحضارتهم وعلومهم وصنائعهم إلى صقلية في منتصف القرن السابع الميلادي. وكان يعيش الرعايا في راحة وسرور تحت حكم أمراء المسلمين وكانت حالتهم أحسن بكثير من حالة إخوانهم الإيطاليين الذين يرزحون تحت نير اللنجورمانيين والفرنجة وأن وجود مئات الكلمات العربية في اللغة الإيطالية (وغيرها) ليشهد بما كان للمدنية الإسلامية من نفوذ عظيم في العالم المسيحي، ومما كان من العلاقات التجارية بين بلادنا.

ويقول: اجتاح العالم المسيحي حوالي سنة ١٠٠٠م غزو إسلامي جديد كان كالسيل الجارف ولم يكن أي حاجز يقوى على شده ولكنه كان هذه المرة مخالفاً لسابقه إذ لم يكن ضغطه على الأجساد بل على العقول: ذلك الغزو كان التهذيب العربي والمدنية العربية فإن شعب الصحراء العظيم ظهر على وجه الأرض بعد سقوط المدنيتين الرومانية واليونانية واندثار معالمها. وعقب ذلك النصر الدموي الكبير الذي أحرزه بسلاحه ذلك النصر الجميل الذي كان نتيجة الدرس والتعلم الذي أوجده أمراء العرب وسهلوا سبله لأبنائهم وذلك قام العرب في ظلمات بربرية القرون الوسطى بإعادة نور الحضارة والمدنية الذي كان قد انطفأ في جميع بلاد الغرب والشرق حتى القسطنطينية.

في أيام سقوطنا لجأ العلم إلى ظل الأديرة الهادىء حيث كان الرهبان المساكين قد انزووا في مقصوراتهم وأخذوا يمسحوا رخامتهم القديمة ليكتبوا عنها أصول ديانتهم وكانت مدنية العرب في القرنين التاسع والعاشر في الأندلس وصقلية قد بلغت أوج الكمال. فلما شعرنا بالحاجة إلى دفع ذلك الجهل الذي كان يثقل كاهلنا تقدمنا إلى العرب ومددنا إليهم أيدينا لأنهم كانوا الأساتذة الوحيدين في العالم، وتسرب العلم من أسبانيا وصقلية إلى بلاد أوروبا.

وقد تلقى « جلبرت » الذي كان بابا عام ٩٩٩ ميلادية تحت اسم سلفستر الثاني دروسه كلها في مدارس العرب بالأندلس ولما رجع إلى أوروبا وأراد نشر ما أخذه من العلوم بين مواطنيه ظهر لهم ما نشره بينهم غريباً جداً حتى اتهموه بأنه باع روحه للجن وبدأت ١١٣٠م بمدينة طليطلة ترجمة الفكر الإسلامي.

كان العالم المسيحي في ذلك الوقت في صراع مع العالم العربي فبينا كان رسل الصليبيين يذهبون بعددهم وعددهم لانتزاع الأماكن المقدسة من أيدي العرب في الشرق كان هنا في الغرب ينتزع منهم ملك العلم والعرفان. ازدهرت الحضارة في ظل الهلال وذلك بفضل الرعاية العظيمة التي كان الخلفاء والأمراء العرب يسبغونها على العلوم والآداب وكان في الأندلس وحدها سبعون مكتبة وكان في مكتبة قرطبة زهاء الستمائة ألف مجلد. وبينا كان كل واحد في الأندلس يعرف القراءة والكتابة كان في أوربا جميع المسيحيين حتى نبلاؤهم وأشرافهم لا يفكرون في التعلم، ولقد كانت الهدايا العظيمة التي أرسلها أمير المؤمنين هارون الرشيد إلى الأمبراطور الروماني شارلمان موضع دهشة عظيمة وكانت تتألف من فيل عظيم وخيمة مطرزة بأفخم تطريز، وروائح عطرية ثمينة وشمعدانين وساعة مائية وهي أشياء كانت لا تزال مجهولة عند الأوروبيين. (ونقول إن هذه الهدايا أصبحت الآن موضع شك كبير).

٢ - يقول جوليفه كستلو في كتابه قانون التاريخ la loi de l'histoire كان التقدم العربي بعد وفاة الرسول عظيما، جرى على أسرع ما يكون، وكان الزمان مستعداً لانتشار الإسلام فنشأت المدنية الإسلامية نشأة باهرة، قامت في كل مكان من الفتوحات بذكاء غريب، ظهر أثره في الفنون والآداب والشعر والعلوم وقبض العرب بأيديهم خلال عدة قرون مشعل النور العقلي، وتمثلوا جميع المعارف البشرية التي لها مساس بالفلسفة والفلك والكيمياء والطب والعلوم الروحية فأصبحوا سادة الفكر مبدعين ومخترعين لا بالمعنى المعروف، بل بما أحرزوا من أساليب العلم التي استخدموها بقريحة وقادة للغاية. إن أوربا

---

(١) (محاضرة ألقاها في القاهرة ديسمبر ١٩٢١) المقتطف م ٦٠/٥٩

لمدينة لهم بما كتب لها من ارتقاء من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر وعنهم أخذت الفكرة الفلسفية العلمية التي سرت إليها سرياناً بطيئاً في القرون الوسطى ولم يتمكن أهل إسبانيا من أن يحولوا دون تغلغل النفوذ الإسلامي في صميم حياتهم حتى أن ممالك إسبانيا النصرانية استعملت النقود الإسلامية أربعة قرون، وماتت روح التسامح في إسبانيا بالقضاء على الإسلام وحل محله روح خبيث ملؤه التعصب الأعمى الذي أشعل ناره القساومة الكاثوليك لتصبح إسبانيا أسيرة رقهم وعبوديتهم.

٣- يقول بريفولت في كتابه بناء الإنسانية:

لم يكن روجر بيكون إلا رسولا من رسل العلم والمنهج الإسلاميين إلى أوروبا المسيحية، وهو لم يمل قط من التصريح بأنه تعلم من معاصريه اللغة العربية وعلم العرب، وهو الطريق الوحيد للمعرفة الحقة. وكان النهج العلمي التجريبي في عصر بيكون قد انتشر انتشاراً واسعاً وانكب الناس في لهفة على تحصيله في ربوع أوربا، لقد كان العلم أهم ما جاءت به الحضارة العربية على العالم الحديث ولكن ثماره كانت بطيئة النضج. وأن العبقرية التي ولدتها ثقافة العرب في إسبانيا لم تنهض في عنفوانها إلا بعد مضي وقت طويل على اختفاء تلك الحضارة وراء سحب الظلام ولم يكن العلم وحده هو الذي أعاد إلى أوروبا الحياة بل أن مؤثرات أخرى كثيرة من مؤثرات الحضارة الإسلامية بعثت باكورة أشعتها إلى الحياة الأوروبية فإنه على الرغم من أنه ليس ثمة ناحية واحدة من نواحي الازدهار الأولى إلا ويمكن إرجاع أصلها إلى مؤثرات الثقافة الإسلامية بصورة قاطعة فإن هذه المؤثرات توجد أوضح ما تكون وأهم ما تكون في نشأة تلك الطاقة التي تكون ما للعالم الحديث من قوة وفي المصدر القوي لازدهاره: أي العلوم الطبيعية وروح البحث العلمي.

أن ما يدين به علمنا لعلم العرب ليس فيما قدموه لنا من كشوف مدهشة لنظريات مبتكرة فحسب، بل يدين هذا العلم إلى الثقافة العربية بأكثر من هذا، أنه يدين لها بوجوده نفسه.

والعالم القديم كما رأيناه: لم يكن للعالم فيه وجود وعلم النجوم عند اليونان

ورياضياتهم كانت علوماً أجنبية استجلبوها من خارج بلادهم وأخذوها من سواهم ولم تتأقلم في يوم من الأيام لتمتزج امتزاجاً كليا بالثقافة اليونانية.

ولقد نظم اليونان المذاهب وعمموا الأحكام ووضعوا النظريات ولكن أساليب البحث في دأب وأناة وجمع المعلومات الايجابية وتركيزها والمناهج التفصيلية للعلم والملاحظة الدقيقة المستمرة والبحث التجريبي، كل ذلك كان غريباً تماما عن المزاج اليوناني.

أما ما يدعى العلم فقد ظهر في أوروبا نتيجة لروح من البحث جديدة ولطرق من الاستقصاء مستحدثة: لطرق التجربة والملاحظة والمقاييس ولتطور الرياضة إلى صورة لم يعرفها اليونان وهذه الروح وتلك المناهج العلية أدخلها العرب إلى العالم الأوروبي.

٤- قال الألماني هاللر: كانت كتب أبي القاسم الزهراوي هي المصدر العام والذي استقى منه جميع من ظهر من الجراحين بعد القرن الرابع عشر وقد توفي الزهراوي ١١٥١م.

وكان أشهر جراحي المسلمين في الأندلس واخترع كثيراً من آلات الجراحة ورسمها في كتبه، ووصف لأول مرة في تاريخ البشرية عملية سحق الحصاة في المثانة وإخراجها، وقد حاول البعض نسبة هذا الاتجاه العلمي إلى الغرب الحديث.

ولكن جوستاف لوبون كشف عن هذه الحقيقة وإلى الزهراوي يرجع الفضل في معرفة أكثر من مائتي آلة ومبضع مما تولاها بالشرح في كتبه ووضع تصميماتها وظلت طريقته متبعة في أوروبا الوسطى إلى مدى خمسمائة سنة.

وقال العلامة سخاو: أن البيروني هو أعظم عقلية عرفها التاريخ.

وأن ابن الهيثم لولاه ما كان علم البصريات، أخذ عنه كيلر معلوماته في الضوء ولا سيما ما يتعلق بانكساره في الجو ووصف كتابه المناظر بأنه أعظم ما ظهر في علم الطبيعة فقد أقام بحثه على الإستقراء. والقياس والاعتماد على المشاهدة والتجربة وقد صحح الأطباء المسلمون ما وقع فيه أبقراط وجالينوس وغيرهم من أخطاء وفي مقدمة من فعل ذلك علي بن العباس.

٥- قال الدكتور أوليري: في كتابه مسالك الثقافة الإغريقية: أن العرب استطاعوا أن يصححوا معلومات الإغريق القدماء ولم يعترف كثير من علماء المسلمين بالتنجيم ولم يروا علاقة بين النجوم وبين ما يحدث للناس في الأرض وبذلك خالفوا اليهود والمسيحيين وفي الطب كانوا دقيقي الملاحظة وقد أضافوا من خبراتهم الشيء الكثير كما اخترعوا كثيراً من الآلات التي تستعمل في الجراحة.

ويقول: إن الإسلام أقر مبدأ الاقتباس في مجال العلم وتكميل أعمال السابقين وقد تحرك محصول المدنية الإسلامية في إطار العقيدة الإسلامية بعيداً عن الترف والظلم والتحكيم. وقد وضعت ما أقتبست من حضارة القدماء في إطارها الفكري العقائدي القائم على التوحيد وقد نحت عنها الفلسفات والأدب والتشريعات القديمة وأفادت مما سوى ذلك من مادة الحضارة وأدواتها وخاصة في الزراعة والورق وتدجين الحيوانات وأساليب التجارة والبناء والأسلحة وتنظيم الجيوش والبارود والنار اليونانية.

وكان المسلمون في العصور الحديثة قد واجهوا خطأ التجاهل البشع لدور المسلمين في الحضارة الإنسانية وأنكروا دورهم الرائد في بناء المنهج العلمي التجريبي، ثم جاءت الإعترافات المنصفة التي قدمها داربر وبريفولت الذي قال أن مأثرة العرب الخالدة لتقوم على أساس أنهم مبتدعو «التجربة» بالمعنى الدقيق للعلم والمنشؤن الحقيقيون للإستقصاء العلمي وأن المنجزات التي حققها المسلمون والعرب على أساس المشاهدة والتجربة هي الأساس العلمي لما قدمه من بعد روجر بيكون وفرنسيس بيكون.

وقال جوستاف لوبون أن الحضارة الإسلامية هي التي هزمت البرابرة الذين قضوا على دولة الرومان، وهم الذين فتحوا لأوروبا ما كانت تجهله في عالم المعارف العلمية والأدبية والفلسفية، وحين كانت الحضارة الإسلامية في إسبانيا ساطعة جداً رأينا أن مراكز الثقافة في الغرب كانت أبراجاً يسكنها أمراء اقطاعيون متوحشون يفخرون بأنهم لا يقرأون، وأن أكثر رجال النصرانية معرفة هم الرهبان الذين كانوا يقضون أوقاتهم في أديارهم ليكشطوا

بخشوع كتب الأقدمين النفيسة فيكون عندهم من الرقوق ما هو ضروري لنسخ كتب العبادة وظلت همجية أوروبا طويل زمن ولم يبين منها بعض الميل إلى العلم إلا في القرن الحادي عشر، وفي القرن الثاني عشر على الخصوص ظهر فيها أناس رأوا أن يرفعوا أكفان الجهل الثقيل عنهم ولوا وجوههم شطر العرب الذين كانوا أئمة وحدهم.

ويقول فشر: لعد أفاق العالم الغربي على نور الإسلام وكان يغط في نوم الجهالة والظلام.

٦- ويقول جوستاف فوق جرونباوم في كتابه حضارة الإسلام: يبدو ظهور الإسلام وازدهاره للمسلم المؤمن معجزة، فالنجاح الساحق لدعوة النبي هو أقوى دليل على صحتها، أما غير المسلم فهو مستعد كذلك إن لم يسلم أن يرى فيها شيئاً معجزاً فقد استطاع هذا الصرح أن يرتفع عالياً ومتناسقاً على قاعدة ضيقة- حضاريا ومكانياً- في وسط وشمال جزيرة العرب، وقد استمد هذا الصرح قوة بنائه وعظمته من قدرته على التحول من الارتباط بطائفة دينية وطنية إلى جامعة حضارية دينية ترتفع فوق المستوى القومي، هذه المعجزة الحضارية مرتبطة بعالمية الإسلام فالدين كان هو الدافع الأول نحو هذه العالمية، والقوة الحضارية الكامنة في هذه الدعوة الجديدة: هي قوة غير مرتبطة بسلطة الحكم المركزية وعلى هذا لم يؤد استقلال أقاليم إسلامية إلى نكسة حضارية بل استمرت وحدتها المرتكزة على عالمية الدين. نعم لم يظهر الإسلام مرتبطاً بمكان معين أو بفكر محدد التفاصيل بل هي (العالمية) التي يمثلها الإسلام كدين والإسلام كحضارة، إنها حضارة لا ترتبط بعنصر دون غيره بل هي حضارة المسلمين فيها يظللهم الإسلام وتربطهم أولا وقبل كل شيء عقيدة واحدة.

٧- ويقول أرسكن تشايلدز في كتابه (العرب في نظر الغرب).

لم يكن غزو العرب لأوروبا غزوا عسكرياً فحسب بل كان «غزواً فكرياً» أيضاً «والحضارة العربية هي الحضارة الوحيدة التي غزت أوروبا في قلبها وتحدياتها وتفوقت عليها واستطاع العرب خلال ثلاثة قرون من الزمان أن

يقدموا للعالم حضارة أصيلة تمتد من بغداد إلى قرطبة ».

فقد وجد الغرب نفسه أمام حضارة متفوقة ذات قوة لا قبل له بها فحمل لها العداء والكراهية، وأسبغ عليها من الصفات والنعوت ما ولده هذا العداء في نفسه، وهذا هو السر في الفرق بين نظرة الغرب إلى العرب ونظرته إلى الأمم الأخرى فهو لا يكاد يسمع باسم العرب حتى يعبر خياله ذلك التاريخ الطويل لأصحاب الدين الذين كانوا قاب قوسين أو أدنى من السيطرة التامة على كل أوروبا وليس عهد سلاطين آل عثمان وهم يدقون أبواب « ڤيينا » عنا ببعيد.

وهذه الروح هي التي دعت القائد البرتغالي (البوكرك) أن يقول لرجاله قبل احتلاله مالطا: أجل خدمة لخضد شوكة الإسلام بحيث لا يقوم له قائمة بعد اليوم بعملنا هذا وأنا على يقين أننا إذا انتزعنا الأفاوية والبهارات من يد العرب فإن الدمار سيحل بالقاهرة ومكة وستتوقف تجارة البندقية مع العرب.

وفي ميدان الطرف الأغر في لندن تحيط البنوك بالميدان وهي تستعمل الصكوك في معاملاتها وهي صكوك كان العرب أول من استعملها في التجارة ثم انتقلت إلى أوروبا فأصبحت شيكات، أما المجاري فهي من ابتكار العرب في بغداد ومرتبطة هذه القبة الزرقاء تزينها نجوم ما زالت تحمل أسماءها العربية لأن الفلكيين العرب هم الذين اكتشفوها في مراصدهم.

هذا القائد نلسون الذي تمثاله يناطح السحاب إنما استطاع أن يجوب بأسطوله البحار ويصل إلى الطرف الأغر من إسبانيا بفضل التحصينات التي أضافها الملاحون العرب إلى السفن يوم كانوا يسيطرون على أطول خط بحري عرفه العالم القديم من البحر الأحمر حتى كانتون في الصين.

ولم تجد بريطانيا عندما رأت أن تكرم قائدها أفضل من لقب أدميرال المنقول عن العربية « أمير البحر ».

هذا الماء الذي تبعثه النوافير ما كان ليكون نقياً لولا الكيمياء التي للعرب فضل كبير في وضع اسمها وتطويرها.

في فلسفة التاريخ لا ينسون الرائد الأول وهو عربي: إنه ابن خلدون وفي

الطب كتاب الرازي ظل المرجع الأساسي في أوروبا لمدة تزيد عن أربعمائة عام، إن مثل هذه الحقائق قد تفجأ المواطن في الغرب لأنه اليوم بسبب من عداء قديم موروث لا يعترف للعرب بأي فضل في بناء حضاراته مع أنه ليعترف لأمم أخرى بما هو دون ذلك بكثير.

والأنكى أن الغرب لا ينكر على العرب فضائلهم فحسب بل ينسب إليهم أحداثاً مشينة لا صلة لهم بها ومن ذلك مكتبة الإسكندرية فقد أشاع الغربيون أن العرب هم الذين أحرقوا مكتبة الاسكندرية وقد ثبت أن هذا الإتهام لا أساس له من الصحة فقد أحرق نصفها قبل الفتح الإسلامي بزمن طويل وحافظ العرب على نصفها الباقي إلى أن أحرقه الصليبيون في هجوم مفاجىء لهم على الإسكندرية (جيبون- رينان) وأجمع المؤرخون على أن المكتبة لم يكن لها وجود عام ٦٢٤ أي سنة فتح العرب لمصر.

٨- ومن جماع ما كتب كثيرون عن دور المسلمين في قيام الحضارة ومنهج البحث التجريبي ومنهج المعرفة نجدهم رواداً أصلاء.

تقول الدكتورة سجريد هونكه في كتابها (شمس الله تشرق على الغرب) إن آراء كانط وديكارت ونيوتن في الطبيعة والإنكسار والضوء والإبصار قد ثبت فيما بعد أنها أو أغلبها مأخوذة عن ابن الهيثم وأن هارفي ليس مكتشف الدورة الدموية وإنما مكتشفها الأصيل هو ابن النفيس مدير مستشفى قلاوون بالقاهرة.

وإن ما نادى به لامارك من أثر الطبيعة والبيئة في الأحياء سبقه إليه ابن خلدون حيث قال إن العادة قد تغير من صفات العضويات كما يغير الطقس.

وما أورده الجاحظ وابن سيناء من ملاحظات في التطور والارتقاء نسبها الغرب على علماء وأغفل فضل العرب وسبقهم وقبل كبلر وجاليلو وكوبرنيك وضع العلماء العرب علم حساب المثلثات بطريقة منتظمة وأعتبر علماً عربياً ووضعوا الازياج وعملوا الأرصاد وأقاموا المراصد وقدروا أبعاد بعض النجوم والكواكب وقالوا باستدارة الأرض وقاسوا محيطها وحسبوا طول السنة الشمسية وكتبوا عن البقع الشمسية وهي الكسوف والخسوف ووضعوا أسماء

كثير من الكواكب ما زالت تستعمل حتى اليوم مثل الدب الأكبر والدب الأصغر والحوت والعقرب.

ولقد عرف العرب الطريقة العلمية قبل أن يولد باكون الذي يدعون أنه مبتكر هذه الطريقة.

وأثار الباحثون أن ابن الهيثم عبر عن ارجانون علمي جديد هو ارجانون الاستقراء والتجربة الذي صاغه فرنسيس بيكون فيما بعد متخطيا بها ارجانون أرسطو، هذا الارجانون الذي عرف في طب ابن سيناء ورياضيات الخوارزمي ونظريات ابن الهيثم وكيمياء جابر وهو منطلق الحضارة الحديثة الذي صاغه بيكون.

٩- ويقول الدكتور ماكس /ماير هوف/: إن العرب قدموا خدمات حقيقية جليلة جداً لعلم البصريات الذي منه يتجلى لنا عظمة الابتكار الإسلامي والتي كانت المنهل الذي نهل منه روجر باكون لوديكلو وليونار دو فنشي وكيلر وتعترف دائرة المعارف البريطانية بأن كتابات العرب في الضوء هي التي أوحت باختراع النظارات.

ويقول سيديو في كتابه تاريخ العرب: لما استقل العرب بالفلك التفتوا إلى العلوم الرياضية فأتوا بالعجب العجاب في الهندسة والحساب والجبر وعلم الضوء والنظر والميكانيك وقد ظلت مؤلفات الحسن بن الهيثم مرجعاً معتمداً في أوروبا حتى القرن السادس عشر وأن علم المناظر وصل إلى أعلى درجة من التقدم بفضل ابن الهيثم. وقد اعترف العالم الفرنسي لوينر قياردد بأن العلاقة كبلر أخذ معلوماته في الضوء ولا سيما في إنكسار الضوء في الجو بعد اطلاعه على ما ألفه ابن الهيثم».

وإن ابن الهيثم هو واحد من الذين اعتمدوا الطريقة الحديثة في البحث العلمي بعناصرها الثلاث: وهي الاستقراء والقياس والتمثيل قبل فرنسيس بيكون وهو بذلك لم يسبق باكون إلى طريقة الاستقراء بل سما عليها سموا وكان أوسع منه أفقاً وأعمق تفكيراً.

وأشار الباحثون إلى أن الفارابي في المادة ١٦ من الصفحة العاشرة من

رسالة عيون المسائل يقول: وكل جسم له مكان خاص ينجذب إليه فإن كان الجسم بسيطاً وجب أن يكون مكانه وشكله من نوع واحد لا يكون فيه خلافه وكل جسم له قوة يكون ابتداء حركته بذاته.

ويقول انشتين في هذا المعنى: أنها قد تكون من صفات المكان (القضاء) أي أن جسما من الأجسام ينجذب إلى غيره لا لأن هذا الغير فيه صفة تدعى صفة الجاذبية بل لأن شكل الفضاء الذي يتحرك فيه الجسم المنجذب يحتم عليه الاقتراب من الجزء الثاني ويعلق أحد الباحثين بأن النظرتين مختلفتان في صور الجمل والألفاظ وتتفق المعاني إتفاقاً يثير الدهش والعجب.

* * *

وهكذا نجد أن مجال العلم، لا الاستشراق ولا النفوذ الأجنبي هو الذي يعلن اعترافه بدور الحضارة الإسلامية في بناء وليدتها الحضارة الغربية.

الباب الثالث
منطلق الحضارة الغربيّة

أولاً : الحضارة الغربية وهل صلحت لأهلها
ثانيًا : مواطن النقض في الحضارة
ثالثًا : دعامة الحضارة الغربيّة : الإستعمار والعنصريّة
رابعًا: المسيحيّة والحضارة
خامسًا: حضارتان لا حضارة واحدة

الفصل الأول

الحضارة الغربية وهل صلحت لأهلها

تتمثل أول علامات ظهور الحضارة الغربية في التفوق الذي أحرزته في ميدان الحرب وصناعة الأساطيل البحرية إبان الصراع بين الدولة العثمانية التي كانت تمثل أعلى درجات الحضارة الإسلامية وبين الغرب فلما هزم الأتراك مرتين تبين أن الغرب استطاع استحداث قوة حربية وصناعية مكثفة من التفوق وكان معنى هذا أن الغرب قد أحرز التفوق العلمي في مجال الصناعة وأنه غير موازين القوة العالمية، ذلك لأن الإستعمار الذي تحرك للسيطرة على العالم الإسلامي كان متمثلاً في هذه القدرة العلمية والحربية. ومن هنا فإن أبرز مظاهر الحضارة الغربية هو التفوق المادي. فقد أخذ الغرب خيوط الدراسات والعلوم التجريبية الإسلامية التي كانت مركزة في جامعات الأندلس وسار بها إلى مزيد من التقدم بينما توقف المسلمون عند «الوضع» الذي كانوا عليه. وإذا كانت نقطه الافتراق قد بدأت منذ القرن العاشر الهجري تقريباً فإنها لم تتضح بالتجربة إلا في القرن الثالث الهجري الذي استطاع النفوذ الغربي أن يسيطر في الملايو والهند وأن يزحف على الوطن العربي.

قامت الحضارة الغربية على التحدي: وحاولت امتلاك القوة العلمية لتحول بها بين سيطرة الإسلام على الغرب، ووصلت في ذلك إلى أبعد الغايات من القوة واستطاعت في نفس الوقت أن تسيطر على عالم الإسلام.

ولقد مضت الحضارة الغربية في طريق البحث العلمي إلى أعلى الغايات فحققت نتائج ضخمة في مجال المخترعات الحديثة وترقية حياة الإنسان البشري في ميادين الصناعة والبناء والمواصلات وأساليب العيش ولكنها لم تستطع أن تجري حركتها في داخل الإطار الطبيعي الذي تتحرك فيه الحضارات العالمية وهو الدين والأخلاق فهي سرعان ما اصطدمت بالمسيحية واختلف أهل العلم

التجريبي مع رجال الكنيسة وانفصلت الحضارة عن العقيدة وحاولت إنشاء عقيدة وضعية أخرى تحل محل الدين وسارت في ذلك خطوات سرعان ما اسلمتها إلى الفلسفة المادية.

ومنذ اليوم الأول استعادت الحضارة الغربية أساليب الرومانية التي دمرها الظلم والفساد فبرزت في مظاهر حياتها الإجتماعية علامات ثلاث:

(١) الإلحاد (٢) الإباحة (٣) الظلم والعبودية.

وهي أبرز مظاهر الحضارات القديمة ولكنها حاولت أن تغلف هذه الإنحرافات بأغلفة براقة ذات طابع علمي، تحاول أن تخفي الشر والفساد الذي عارضت به طبيعة الحضارات ومنهجها الأصيل.

وكانت حركة الاستعمار التي قامت على أساسها الركيزة الكبرى للحضارة الغربية: تمثل أشد ألوان الظلم والعبودية القديمة ولكنها وضعت في أساليب خادعة وعبارات براقة فاستطاعت الحضارة أن تحصل على الخامات الضخمة التي نقلتها إلى أوروبا وجعلتها وقوداً لمصانعها بأتفه الأثمان وأقل الأجور وحرمت منها أهلها الذين عاشوا على الفتات، وأخرجت منها ثمرات عديدة عادت فباعتها في أسواق البلاد المستعمرة بأغلى الأثمان وحاولت خلال فترة الاستعمار أن تحرم هذه الشعوب من حريتها ومن حقها في التعليم والثقافة وحجزت الأمم عن إمتلاك إرادتها وثرواتها ولا تزال تفعل ذلك بعد أن جددت استعمارها بالاستعمار الجديد الثقافي والإقتصادي والسيطرة الصهيونية المثلة في إسرائيل.

وهكذا كانت الحضارة الغربية في تفوقها العلمي والصناعي قد التمست طريق الظلم والعدوان على الأمم الإسلامية صاحبة الحضارة الأصيلة التي كانت تمر إذ ذاك بفترة توقف وضعف بعد أن واصلت رسالتها أكثر من ألف سنة.

ومن ناحية أخرى فإن الحضارة الغربية التي سرقت ثروات الأمم الإسلامية ولم يكن في استطاعتها أن تقيم صناعتها وتفوقها العلمي لولا هذه الخامات لأن الغرب لم يكن يمتلك هذه الموارد، هذه الحضارة وجهت ثرواتها

الضخمة التي كسبتها من الشعوب الإسلامية إلى الترف والإنحلال والفساد وجعلت الفنون القائمة على البغاء والعري وإعداد المرأة للشهوات وإثارة عوامل الجنس واللذات على نحو خطير وكسرت جميع الضوابط والحدود التي رسمها الدين للحفاظ على كيان الإنسان الفرد وكيان المجتمع المتكامل.

وكان من وراء ذلك سلطان اليهودية صاحبة امبراطورية الربا التي تملكت معظم هذه الثروات وعصرت الأمم والشعوب لتحصل منها على فوائد القروض والقضاء على هؤلاء المدنيين سواء أكانوا أفراداً أم حكومات.

ومن هنا تبدو الحضارة الغربية وقد جاوزت كل عوامل الرحمة والأخلاق وسلامة التصرف.

(٢)

حضارة الغرب

لا ريب أن حضارة الغرب هي الحضارة الوحيدة التي ظهرت بعد حضارة الإسلام حتى اليوم وإنها بمفهوم العلم وليدة حضارة الإسلام في أصولها وجذورها وإن اختارت لها طريقها الخاص. والتمست لنفسها إنتماءاً يونانياً رومانياً قديماً أرادت أن تتميز به وتمضي إليه على النحو الذي اتخذته لنفسها غير أن هذه الحضارة لم تلبث أن تنكرت لمأثرة الإسلام عليها بل ادعت أن حضارة الإسلام ليست إلا وجهاً من وجوه الحضارة الرومانية وأنها ليست حضارة لها ذاتيتها الخاضة.

ولا ريب أن حضارة الغرب ارتبطت منذ مطلعها بالاستعمار واتخذت من البلاد المستعمرة مصدراً للخامات وسوقاً للصادرات، ومن ثم التبست مفاهيم الاستعمار مع دعاوى تمدين الشعوب وهي دعوى مبطلة فقد كانت بلاد الإسلام تعيش عصر الضياء والتقدم قبل احتلالها وكانت أوروبا المحتلة أقل منها مدنية وثقافة.

ومن عجب أن الغرب الذي تتلمذ على يد الحضارة الإسلامية ينتقض على معلميه وسادته يتنكر لأثرهم وفضلهم، ثم يحول دون عودتهم إلى القوة، ويعمل على حجزهم في إطار التخلف والضعف. ثم تعلو دعوته إلى ما يسمونه

وحدة الحضارة الإنسانية يطمعون في أن يصهروا حضارة الإسلام في داخل حضارة الغرب وقد أتيحت لهم السيطرة الاقتصادية والسياسية وتملكوا وسائل الإنتاج وأسباب المادة والفكر وكان لسلطانهم في مجال التعليم والفكر والثقافة أثره البالغ في تغريب المسلمين وغزوهم ثقافياً لإخراجهم من قيمهم ومفاهيمهم.

وهكذا أخذت الحضارة الغربية طابع التسلط والعدوانية على الأمم ذات الحضارة الأصيلة والسابقة في مجال المدنية، حتى ليقول (ولفرد كانتول سميث) لا نظن أن الغرب يستطيع أن يتخلص بسهولة من الروح العدائية التي يحسها نحو الإسلام والتي عاش فيها ثلاثة عشر قرناً متوالية. إن هذا العداء ما يزال ماثلا حتى اليوم في تصرفات الغرب نحو العالم الإسلامي وفي عدوانه عليه بالسلاح تارة وبالضغط تارة وبالحرب الفكرية والروحية تارات، وإن خلق إسرائيل في قلب العالم الإسلامي كان جزءاً من خطة الغرب في محاولة القضاء على الإسلام وجزءاً من بقايا الروح العدائية الكامنة في نفوس الغربيين».

ولا ريب أن فكرة استعلاء الجنس الأبيض التي صاحبت نمو الحضارة الغربية كانت بعيدة المدى في تلك النظرة التي نظرها الغرب إلى عالم الإسلام، وفي محاولته للانتقاص من حضارته ووجوده وقيمه.

ولقد اعترف أهل الحضارة الغربية بأنها عجزت عن أداء رسالتها التي أدعت أنها تحمل لواءها فقالت مدام سانت بوانت: لقد قصرت المدنية الغربية في المهمة التي تزعم أنها القيت على عاتقها في الأجيال الأخيرة، أعني المهمة التي ترمي إلى نشر تعاليم الإنسانية وتعميمها على وجه الأرض ويمكن أن يعبر الإنسان عن هذه المهمة العظيمة بوسيلتين لا غير: الأولى هي وسيلة حب الذات والثانية وهي وسيلة حب الغير وقد وقع اختيار الغرب على الوسيلة الأولى: وسيلة الأنانية وحب الذات وكان اختبار الغرب لها جريمة، وكان ذلك سبب ضياعه واضمحلال نفوذه لأن الوسيلة التي لجأ إليها سيئة، إن الأنانية تقضي على الخير وتلتهم كل بر.

لقد أراد الغرب أن يوحد العالم ولكن تحت سلطانه ولمصلحته والعالم لا يساس إلا بالعدل والحب والإخاء ورد الحقوق إلى أهلها ولكن الغرب لجأ إلى

القوة الغاشمة، لقد اعتمد الغرب على القوة وحدها وعبث بالشرائع، لقد اختار الغرب الرذيلة على الفضيلة ».

والحق أن الحضارة الغربية التي اتخذت من المنهج التجريبي الإسلامي طريقها إلى أبناء العلم والصناعة والتكنولوجيا قد التمست إلى ذلك وسائل المطامع والأهواء والتعصب والاستعلاء فكانبتها أو التحديات التي واجهتها هي انفصال الضمير عن العلم وتجريد العلم من الضمير وسقوط القاعدة الأخلاقية التي هي دعامة سير الحضارات وبذلك وقعت في الأزمة: أزمة الحضارة وأزمة الإنسان الحديث ولا ريب أن السبب في أزمة الحضارة والإنسان سبب أخلاقي لأن الحضارة تنهار إذا أعوزها العامل الأخلاقي حينما تكون العناصر الأخرى من الحضارة مزدهرة نامية، ولا ريب أن أخطر ما وقعت فيه الحضارة الغربية هي أن سددت ضربتها القاضية للمعتقدات الدينية التي كانت مقياساً للسلوك وسياجاً لحماية النمو السليم.

يقول طاغور: أن حضارة الغرب حضارة وثنية نراها في كل مكان تسيطر عليه مقيمة أصناماً هائلة للإله الوحيد الذي تدين له بالعبودية « إله الترف » وهي مدنية علمية ولكنها متجردة من الإنسانية، لا تعدو أن تكون حضارة آكلي لحوم البشر فهي تقوم على أساس اضطهاد الضعفاء وتنشر الكراهية بين الأجناس والأمم.

ويقول الدكتور الكسيس كاريل: ان الحضارة العصرية تجد نفسها في موقف صعب لأنها لا تلائمنا فقد أنشئت دون معرفة بطبيعتنا الحقيقية إذ أنها تولدت من خيالات الاكتشافات العلمية وشهوات الناس وأوهامهم ونظرياتهم ورغباتهم وبالرغم من أنها أنشئت بجهوداتنا إلا أنها غير صالحة بالنسبة لحجمنا وشكلنا وخلاصة الرأي في حضارة الغرب أنها سرعان ما دخلت في أزمة العصر تتلخص في الاغراق الذي الذي وصل إليه الفكر العربي في المادية او الإلحاد أو الإباحية وعند كثير من الباحثين أن هذه هي نهاية الحضارة قشبنجلريري أنها مأساة هائلة سوف تنتهي إليها الحضارة العالمية أو الحضارة العالمية بصورة عامة.

يحاول هكسلي أن يوجد لها حلا وعنده أن طريق الخلاص هو العودة إلى عالم الروحانيات وأن على الغرب أن يتعلم الكثير من عزوف حكماء الشرق عن الدنيا وتزهدهم في المادة وفهمهم العميق لتلك التجربة الروحية التي تتيح للانسان أن يجد الله في قلبه ويرى توينى أن الدين هو عماد المجتمعات وبه تقوم الحضارات وأنه العامل الوحيد لانقاذ الحضارة الغربية من السقوط.

ويرى الباحثون أن الحضارة الغربية الحديثة لا تخرج عن نسق الحضارات السابقة للإسلام من حيث ماديتها فاليونانية كانت تتميز بعبادة العقل وعبادة الجسم. والرومانية التي عرفت بحلبات المبارزة الوحشية والهندية التي عرفت بالنظام المنبوذين وتخصيص بغايا لخدمة المعابد ببذل أعراضهن والمصرية القديمة بعبادة فرعون.

وبالرغم من أن حضارة الغرب وليدة من حضارة الإسلام فإنها انحرفت هي الأخرى عن الطريق الأصيل وما زالت منذ بدأت تصيبها كل يوم قارعة نتيجة اتساع مسافة الخلف فيها بين العقل والروح التي هي سبب الاضطراب ومصدر القلق بعد أن سخر الله للإنسان الأرض والماء والهواء فظن أنه هو الذي استطاع أن يكشف سر الكون أو سنن الوجود.

وفي هذا يصدق ما قاله فون بابن السياسي الألماني في مذكراته: نحن الآن على حافة الهاوية ذلك لأننا تقدمنا في العلم حتى صرنا عبيد العلم وتقدمنا في الاختراع وتمادينا في استخدام الآلة إلى أن حكمتنا الآلة ولم يبق إلا بارقة أمل ضعيفة لا أظن سنهتدي إليها، هذا الأمل الوحيد في النجاة هو أن نؤمن بأن هذا الكون له خالق، وأن هذا الخالق قد وضع له قوانين وما على الإنسان إلا أن يسير طبقاً لهذه القوانين فإن فعلنا ذلك تحررنا من العبودية واستطعنا نحن أن نحكم العلم والإختراع.

وأشار الباحثون إلى أن الحضارة الحديثة قد دخلت مرحلة التحلل والزوال لما اشتملت عليه من ألوان التناقض وضروب التعارض مع القوانين الإنسانية ولأن ثقافتها لم تعد ثقافة حضارة بل استحالت بتأثير الاستعمار والعنصرية إلى ثقافة إمبراطورية.

ويرجع آخرون أزمة الحضارة إلى نمو الجوانب المادية وبطء جوانبه الروحية فقد نما جسمه. وتباطأ نمو عقله حتى التوازن بين قواه الفاعلة وقواه العاقلة وهو ما يعبر عنه باحتلال التوازن بين العقل والقلب.

ويتحدث الدكتور هاري ألمير بارتس: عن مواطن النقص في الحضارة الحديثة فيقول:

لم يحدث في عصر سابق مثل هذا التوتر الذي نشهده اليوم بين الفن الصناعي والنظم الإجتماعية، لدينا علوم جديدة، حضارتنا المادية متشعبة متعددة النواحي وذات كفاية ترتفع كثيراً عن مستوى مثيلاتها في العصور السابقة.

وعلى عكس هذا أنظمتنا وأوضاعنا العقلية وتفكيرنا الإجتماعي- وهي التي تحاول جميعاً أن تسيطر على الحضارة المادية والانتفاع بها، إنما هي عبارة عن مركب عتيق مما ظفرت به الإنسانية منذ العصر الحجري، حتى مطلع القرن الثامن عشر ويتمثل أهم سبب لإنهيار حضارتنا في النمو العظيم ما كان يحيط بالخيال للعلوم والفنون في العصر الحجري حتى مطلع القرن الثامن عشر، ويتمثل أهم سبب لانهيار حضارتنا في النمو العظيم الذي ما كان يخطر بالخيال العلوم والفنون في العصر الحاضر من ناحية وفي قصور نظمت حياتنا، وتفكيرنا الإجتماعي من الناحية الأخرى.

والحرب اليوم أشد خطر يهدد الحضارة وهي منافية تماماً لقواعد الأخلاق ويشير عدد من الباحثين إلى انهيار معنى الأسرة وانحلال الرابطة الإجتماعية القديمة بين الأسر، وانتشار الطلاق والفساد الخلقي وقد خلت الأندية والملاهي العامة محل المنازل.

ولقد ذهب عدد من المؤرخين وعلماء الاجتماع يبحثون أسباب انهيار الحضارات القديمة، وركز البعض على عدة عوامل منها:

١- إنصراف الناس عن المعنويات إلى الماديات.
٢- ضعف الروح الدينية في الأفراد والجماعات.
٣- ضعف نظام الأسرة وتداعي صرحها.

٤ - ضعف الأخلاق وتدهورها.

ويركز صاحب كتاب تاريخ المدنية الحديثة على أن الانحطاط الخلقي من أبناء الأمم هو الذي يسبب سقوطها ولا ينقذها إزدهارها العسكري أو الإجتاعي وحين يكون إنحلال خلقي يصبح النسيج الإجتاعي كله وقوداً يغذي لهب الخراب الذي يبتلع كل شيء وقال إن هذا ما عجل بسقوط الامبراطورية ولكنه قانون عام ينطبق على الحضارات جميعاً وأن من علامات ذلك أن نجد أمام البؤس الذي يتحكم في السكان ترف لم يسمع مثله في القصور[1].

ويرى أن الفساد الخلقي في الأمة هو الذي يسبب انهيارها، وأنه عامل رئيسي وهو السبب لكل العوامل التي تعتبر تابعة له، ويصدق في ذلك قول الله تعالى:

(وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً).

(٣)

الحضارة الغربية وموقفها من الدين

إن محاولة الحضارة الغربية في السيطرة الفكرية على العالم لا تجد تجاوبا واضحاً أو تعليلا صحيحاً خاصة في عالم الإسلام وإن كانت قد استطاعت أن تسيطر على مقدرات العالم بالقوة المادية والاستعمار المباشر، فإنها تعجز تماماً في مجال السيطرة الأيدلوجية وبالرغم من الدور الآثم الذي قامت به الحضارة الغربية في إعلاء شأن الإباحية والفساد وتجريد المجتمعات من الأخلاقيات فإن الأيدلوجيات الحديثة التي يطلق عليها الأديان البديلة كالرأسمالية والشيوعية والقومية وغيرها عجزت أن تقدم المجتمعات الغربية النموذج الذي يحقق الطمأنينة النفسية والسلامة والأمن، فقد نقلت البشرية إلى عبادة القوة وعبادة الفرد وعبادة الدولة. فإن الشيوعية ضحت بالحرية ولم تحقق العدالة التي ادعت أنها تقوم من أجلها والرأسمالية ضحت بالعدالة.

(١) لم يتوقف أمر الحضارة الغربية في فسادها الذاتي، بل على محاولتها تدمير حضارة الاسلام ومجتمعه.

ولم تحقق المفهوم الفردي الصحيح وكلاهما كما يقول أرنولد توينبي يؤيد جانباً على حساب الجانب الآخر وكلتا النظريتين مادية للعدالة والحرية تفسيران خاطئان ولن يستطيع أحدهما التغلب نهائياً على الآخر والاثنان في صراع مع الوطنية والقومية.

ويقرر توينـبي أن منافسة الأيدلوجيات للأديان على إكتساب ولاء الجماهير يعني العودة إلى عبادة الإنسان بعد أن حررته الأديان من عبودية المجتمع وعبودية الفرد ليتجه إلى الله وحده فإن الحضارة الغربية تعيد الإنسان مرة أخرى إلى سجن المجتمع. لقد استطاعت الأديان أن تفهم الإنسان أنه ليس حشرة إجتماعية ولكنه إنسان ذو كرامة وإدراك واعتبار.

لم يتوقف أمر الحضارة الغربية على فسادها الذاتي، بل على محاولتها تدمير حضارة الإسلام ومجتمعه.

وقد وجدت الأديان أساساً لتحرير الانسان من أسار المجتمع ووضعه مباشرة امام مسئولياته في علاقة مباشرة مع الحقيقة السرمدية الخالدة واستطاعت ان تمنح معتنقيها هدية لا تستطيع ان تجاريها فيها الأيدلوجيات، لقد منحته الاطمئنـان والمساعـدة والتوجيه والمثل الأعلى الخليق بالطموح والراحة الروحية وحررته من سجن المجتمع ومن ثم فلا غنى للانسان عن الأديان ولن تستطيع الأيدلوجيات أن تحل محل الدين لأنها تمنحنا التعصب والتباغض بدلا من الجد والتعاون، أنها قد تمنحنا لقمة الخبز ولكنها تسلبنا الطمأنينة النفسية والتحرر الروحي.

الفصل الثاني

مواطن النقض في الحضارة

حين التمست الحضارة الغربية منهج التجريب الإسلامي استطاعت ان تحرز معطيات واسعة وعميقة في مجال التقدم المادي ولكنها قصرت عن الارتباط بالقيم والحركة في إطار السنن الإلهية: هذا الإطار الذي يقوم على وضع الماديات كلها في سبيل الإخاء والخير والرحمة وقيام حركة العمل في إطار الأخلاق.

لقد مضى العلم في الحضارة الغربية مع الانحلال في خطٍ متواز، وذلك لغياب الأخلاق، ولما كانت العوامل التي يتوقف عليها بقاء الحضارة أو زوالها هي العوامل المعنوية وفي مقدمتها الأخلاق فإن غياب الأخلاق قد أدى إلى الضعف العقلي والجسمي معاً. والشهوات إذا ذهبت بأمة ضعف أهلها جسمياً وعقلياً وأصبحوا لا قوة لهم على مواجهة الأمراض ولا التحديات.

ومن ثم فلم تستطع الحضارة لهذا الانحراف ان تحقق السعادة الذاتية او الاستقرار النفسي والهدوء الاجتماعي وغيرها مما تصبـو إليه وعلى العكس تماماً فإن الحضارة الحديثة عندما أعطت الحلول المادية للمجتمع اخفقت في تنظيمه تنظيما اجتماعيا يلائم تقدمه العلمي ولذلك ظهرت نظريات عدة تحاول تنظيم المجتمع علمانياً متجاهلة الجوانب الروحية والمعنوية بل وساحقة لها.

يقول شارل رنسية: في كتابه ما هي الحضارة: بعد أن يصف الحضارة الحديثة بأنها حضارة مادية: «أي فائدة من الحضارة المادية إذا كان الفرد لا يعرف حق المعرفة ما هو واجبه الاجتماعي وواجبه السياسي وواجبه العائلي وما هي مسئولياته حيال حكومته ووطنه وأسرته والإنسانية جمعاء، أي فائدة من الحضارة المادية بالغة ما بلغت من الرقي إن هي لم تقترن بعادات حميدة

وأخلاق سامية وأمثلة روحية عليا؟ويقول ان الحضارة الغربية الحديثة تقدم لنا عدة ظواهر خطيرة:

ازدياد نسبة الإجرام، استفحال شر الدعارة، انحطاط الأخلاق السياسية، فشو روح الوصولية، القضاء على عناصر الاستقامة والنزاهة والتضحية.

ويرى شارل رنسيه: ان مستلزمات الحضارة الصحيحة ان يقترن التقدم المادي بالتقدم الخلقي ويسايره جنبا إلى جنب وانه لا معنى للحضارة مع الاستبداد ولا تتحقق الحضارة المثلى في أمة من الأمم إلا إذا رافقت القوانين عواطف التضامن والتسامح والمحبة والرأفة.

ولا حضارة بالمعنى الصحيح إلا إذا اقترنت بالأخلاق ومثل الحضارة الأعلى هو ضبط النسبة بين الرقي المادي والرقي الروحي كما يحيا الشعب بالعقل والقلب لا بالجسم فقط ».

ويرد الباحثون هذا الإغراق إلى التطورات الفلسفية: التي ظهرت على أيدي التلموديين اليهود فكان أن خربت المفهوم الديني المسيحي في الغرب: يقول القاضي سيرباسيل هنزيك: أن سبب كل هذا التدهور في الأخلاق وكثرة الإجرام بين الأحداث يعود إلى نظريات فجة في علم النفس والتربية وإلى أن الوالدين أعطوا الصغار حرية كاملة فلم يعرفوا كيف يستعملونها.

إن فلسفة الأحداث اليوم هي انني أرى وأريد وآخذ مضافا إليها دعني استمتع ما استطعت وكل ما كان ذلك في مقدوري.

ويقول الدكتور فوزون صاحب كتاب محك الأخلاق.

لقد أعطى هذا الجيل حرية لم ينل مثلها جيل في التاريخ، أعطيت له وهو صغير فاساء إستعمالها، تعاطى الشباب والشابات الخمر بزهو وافتخار فأخذت حياتهم تتراقص مع الرياح، لقد تركت البنية الطرية دون ركائز فنمت عوجاء وما الركائز في نظري سوى مراقبة دقيقة وتوجيه لطيف.

ومن أخطار الإنحراف إنشغال الأم وتركها النشء في حضن الخدم ورعاية الجدات ولقد إنهزمت الأمم عندما تركت في القصور الأطفال مع الخدم فنشأ

نشء ذليل كذل السبايا مستهتر باستهتار الجواري فطان الاستهتار على قاعدة دعني أتمتع ما استطعت ».

ويتحدث آخرون عن الخمر في المجتمع الأوربي بوصفه معول تقويض الحضارات وما أكده الأطباء من ان تعاطي الخمر ولو بكمية قليلة يؤثر تأثيراً سيئاً على قدرة الإنسان في الحكم على الأشياء فالخمر مهما قلت فإن لها تأثيراً خطيراً على من بأيديهم قيادات مراكب السير، ووسائل العمل، والآلات وغيرها، وإن إدمان الخمور قد أدى إلى أضرار لا حد لها بالاقتصاد القومي نتيجة إنخفاض الكفاية الإنتاجية.

وقال كتاب كثيرون: ان أوروبا ستقضي على حضارتها التي هي بمثابة عملاق يترنح بفعل الخمر والمرض والفاقة، وقال لانكي ان الحضارة قد سددت ضربتها القاضية للمعتقدات الدينية التي كانت مقياساً دائماً للسلوك.

وقال جود أستاذ الفلسفة الانجليزي في كتابه سخافات المدنية الحديثة « أن الحضارة ليس فيها توازن بين القوة والأخلاق فالأخلاق متأخرة جداً عن العلم ومنذ النهضة ظل العلم في إرتقاء والاخلاق في إنحطاط حتى بعدت المسافة بينهما، وبينما يتراءى الجيل الجديد للناظر فتعجبه خوارقه الصناعية وتسخيره المادي والقوى الطبيعية المذللة لمصالحة وأغراضه فاذا هو لا يمتاز في أخلاقه وفي شرهه وطمعه وفي طيشه ونزقه وفي قسوته وظلمه وأعلن توينبي أن الحضارة العصرية المتدهورة لا يمكن إنقاذها إلا بالدين ذلك لأنها مصابة بالخواء الروحي.

(٢)

برر الكثيرون إنحراف الحضارة وفسادها إلى تلك الدعوات الفلسفية التي حملت رياح المادية السوداء إلى النفس الغربية على أيدي دعاة التلمودية الصهيونية الذي كانوا ولا يزالون قادة المذاهب الهدامة وفي مقدمتها الماركسية والفرويدية والوجودية وأن هذه الدعوات التي حاوت أن تبرر للاجيال الإنحراف والفساد والتحلل من الدين والاخلاق هي التي قلبت موازين القوى الحقيقية للحضارة وأسلمتها إلى تلك الازمة العنيفة التي تمر بها.

ولقد دخلت القصة والفنون في هذا الانحدار فقدمت للامم فساداً وسموما وزيفا كثيراً حتى قال مازرايك للوزير الفرنسي لويس بارتو: ان أبطال قصصكم عامة تحركهم الشهوات الوضيعة والحب والجنس الشره، وعليكم أن تتأكدوا أننا قد مللنا هذا الضرب المألوف من الروايات العاطفية السقيمة التي لا تطالعنا إلا امرأة سليطة يحبها إثنان او ثلاثة عدا زوجها الصنديد الذي تخدعه بشتى الحيل فاذا لم تقضوا على هذا الداء الوبيل دفعتم غالياً ».

وقال بول فاليري: إن السلوك الشاذ والصراع مع الحياة القاسية وسكنى السجون والمستشفيات والعربدة المضلة ومخالطة الأدنياء والإجرام كل ذلك مما عجل بانهيار الحضارة وقال رومان رولان: إن الضعف الأخلاقي الذي تفشى في الأوضاع الاجتماعية والأدبية كان قاضيا على عزة النفس.

وحين يعرض كارل ياسبرز لمستقبل الحضارة يقول ان بدعتان طاغيتان من بدع العصر هي الماركسية والفرويدية وينسى دعوته المسمومة (الوجودية) يقول كارل ياسبرز: في عالم محروم من الله ظهر كارل ماركس نبيا واتخذ القوالب التي يستطيع هذا العالم أن يقتنع بها وأن يهلل لها.

وكان طبيعاً أن تسيطر على النفوس أساليب فرويد ومدرسته في منهج مهزوز مكدود. في عالمنا المقلوب هذا، قد أحس الناس بحاجة شديدة إلى التحرر، وجاء التحليل النفسي فزودهم بذلك الوهم، اننا بصدد عملية جبارة من عمليات الاستهواء الذاتي الذي هو نتاج صادق لهذا العصر المفتون والذي يسير جنباً إلى جنب مع أساليب السحر والتعاويذ التي استولت على عقول الناس ».

وإن من الموجودات ما لا تبلغه المعرفة العملية ثم أن العلم لا يفسر لنا القيم وإذا فرضنا أن العلم يستطيع أن يفسر الكون كله فهناك أشياء لا يمكن أن تفسر، هي الشخص العالم بنفسه ».

وأشار كارل ياسبرز إلى أثر الحروب والتخريب والتدمير في نفوس الفلاسفة، ومعاناة بطش النازية وخطر القنبلة الذرية وخوف البشرية من مواجهة حرب ماحقه، وتلك هي أزمة العصر.

ولقد حرص فرويد على أن يفسر التاريخ والحضارة عن طريق الجنس والغريزة وحرص ماركس على أن يفسر التاريخ والحضارة عن طريق الطعام وهما عاملان من عوامل متعددة تفسر التاريخ في مقدمتها العوامل المعنوية والقيم والأديان والنضال في سبيل الحق وفي سبيل نصرة دين الله والجهاد في سبيله وتلك كلها عوامل كانت لها أثارها القوية والاشد اثرا من الغريزة والطعام على النحو الذي جعلهما لا يشكلان خطراً في المجتمعات المؤمنة والحضارة الإسلامية إستطاعت أن توجههما الوجهة التي أعطت البشرية البشرية سكينة النفس وسلامة الصدر اما الوجودية فهي تدعو إلى إطلاق الوحش الكامن في إهاب الإنسان.

ويقول له أفعل ما شئت ولا تبال أي نتيجة حققت.

ولكن الصهيونية التلمودية التي تستهدف تدمير البشرية استطاعت ان تجعل من دارون وفرويد وسارتر وماركس قوى هدامة ضخمة وأصبح الأدب والشعر والتاريخ والفن يتمزق بين تفسيرات المادة وتفسيرات الجنس.

ولقد توسعت مدارس الانحلال والهزيمة المادية وأصبحت لها فلسفة طويلة عريضة، خدع بها الكثيرون وسيطرت على مناهج الجامعات والمدارس والصحافة والثقافة.

وقد أسلمت هذه الفلسفات المادية القائمة على الهزيمة والتحلل، الحضارة الغربية إلى حافة خطر اعترف به علماء الغرب ومفكريه: فيقول تشارلز فرنكل (رئيس دائرة الفلسفة في جامعة كولومبيا) إن الإنسان الحديث يمر بأزمة عنيفة وأن المجتمع الغربي حافل في هذه الأيام بالمشكلات الاجتماعية والأخلاقية على الرغم من بحبوحة العيش التي يتمتع بها ويتساءل: هل ترجع المعضلة الحضارية إلى طبيعة الحضارة ذاتها أم إلى فساد القيم والمثل التي ترافقها، ويجيب: أن الحضارة الحديثة تمتاز بتقدم مادي فاتن سريع، بلغت فيه المعرفة العلمية أوج الازدهار وبات التصنيع طابع كل وجود إنساني واثرت الآلة في كل جانب من جوانب الوجود البشري وخلفت أصداء عميقة في نظرة الناس إلى الوجود وفي سبيل ممارستهم للحياة ولكن الآلة التي اخترعها الإنسان

ليسير بها أصبحت هي القوة الساحقة التي تهدده ويقول: إن الأزمة هي إنقطاع الاتزان بين ما يخلق الإنسان وبين الأهداف المثلى التي يترتب على البشر التزامها فيما وراء الاختراعات العظمى والكشوف الجبارة المذهلة: هذه الأزمة أزمة خوف وحيرة وقلق وهلع، أزمة انخلاع القلب والعقل، الخوف من الموت بالذرة، لقد تمزق وجود الإنسان في المجتمع الحديث وهذا أكبر التحديات. لقد نجح الإنسان في التغلب على الطبيعة وتسخيرها لمآربه عن طريق العلم والصناعة، فأخذته عزة الخلق وكبرياء الإبداع ونمت قدرته على حساب إيمانه وأصيبت القيم الدينية والأخلاقية بالخمول والتخاذل، ولما مات «نيتشه» في مطلع القرن العشرين ولد بموته عصر جديد، هو عصر التمدد الهائم، عصر الأخلاق اللاأخلاقية، عصر أدب الفضيحة والتمزق، وأدب الابتكار الوجودي الفارغ المحروم.

وقد عبر نيتشه عما يخامر ضمير الإنسان الغربي نتيجة إزدهار المعرفة العلمية وتفوق الإنسان، حاول هذا الفيلسوف الهجوم على مفهوم الألوهية الأقدس وطلب أن يستهدف البشر خلق الإنسان الأعلى على الأرض، واذ ذاك بلغت الأزمة أوج تجليها الثقافي وبات الناس في العالم الحديث حيارى ضالين.

واتجه الناس إلى العلم ليخلصوا من الأسر، بحثوا أكبر ما بحثوا عن (إنسانية العلم) يدفعهم إلى ذلك إيمانهم المطلق بسلطان العلم ونبالته وجدارته، تقدمت الفيزياء تقدما رائعاً في شكل ثورة عارمة تتناول الأسس والمبادىء والأصول. لقد أصبحت المادة قوة والقوة طاقة وكهرباء واضطرب المنطق التقليدي القديم وولد منطق جدلي جديد، منطق التناقض، منطق الاحصاء، منطق الفيزياء، الذي فك عقال الطاقة الذرية، وكان تفجير الذرة مثال فزع واغترار معا، وولد بولادة العصر الذري عالم جديد يمتاز بسلطان فخم حازه الإنسان فرضخت المادة لمشيئته.

ولكنه تبين من بعد أن المدنية ستحصل في يوم قريب على وسيلة تمكنها من الانتحار في أي وقت تشاء، إن التغاضي عن الكوارث الذرية الجائرة خداع

عظيم. إن العلم قد قفز بها إلى رتبة الألوهية ونحن لما نستحق أن نبلغ منزلة الانسان.

وهكذا إضطهدت الآلة ربها الإنسان وغدت ازمة الحضارة هي أزمة الآلة التي ابدعها الانسان لتحل محله وإذا به عينه يغدو آلة أو يكاد.

وقد أرغم إنتشار الآلة طائفة كبرى من الفتيات والنساء على هجر العمل المنزلي والتعرض لحياة مكشوفة فيها الإغراء الجنسي والإحتكاك. عمدت التجربة الغربية إلى توسيع مفاهيمها الأخلاقية وانكرت سلطان التاريخ وأفادت من قيامها في عالم جديد مثقل بالتقاليد.

ومن ناحية زاوية الاخلاق فان علماء الكيمياء العضوية كانوا يهدفون باكتشافهم الآلة إلى النفع الذي سيجنيه الناس في حقل الطعام والغذاء والدواء عير ان المعامل الكيميائية ذاتها هي التي انتجت الغازات السامة الفتاكة وهي التي تهددنا بحرب الجراثيم وأصبح كل علم ذو حدين: التفجير بالديناميت والتفجير بالذرة وكلاهما يصلح للخير والشر.

وقد عبر عن ذلك (برجسون) حين قال: أن البشرية قد استكملت أدواتها ولكن روحها (الفردية والجماعية) لما تكتسب ضميمة من القوة تمكنها من حكم الجسد. هذا الجسد الذي زاد سعة وحجما بصورة مباغتة.

ويرى عادل العوا: أن أزمة الحضارة الحديثة تتركز في تجافي القيم الاخلاقية المثلى، هذه القيم لا تضيق بالتقدم العلمي ولا تنافي الابداع والإبتكار بل أنه لا سبيل إلى علاج مثالب الحضارة الراهنة إلا بفلسفة روحية قيمية (من القيم) وهي الفلسفة التي لا ترى الحضارة هدفا (حضارة الآلة والعلم)بل تجعل المدنية (أي تجعل الاخلاق هي الغرض والهدف) وتعمل على تحويل الرقي المادي إلى رقي خلقي.

وتطوير الواقع ليمسى واثقاً بالروح، لقد أصاب الانسان نصراً على المادة لا يضارعه نصر، ولكنه يحتاج إلى نصر أسمى،نصر على نفسه وطبيعته وذلك هو الجهاد الاكبر وهو الجهاد المستديم، ولا ريب ان هدف وجودنا في التاريخ الحديث هو العمل على تحويل الحضارة إلى مدنية والحرص على إخضاع

الوسيلة إلى هدف وارغام الآلة على احترام الحرية وتسخير الطبيعة لخدمة الاخلاق والمثل والقيم السامية العليا.

(٢)

ويرد ألدوس هكسلي الخيبة والخسران في الحضارة الحديثة إلى تمرد الناس على حياة الروح واندفاعهم وراء المادة وقصر جهودهم على الربح والشهوات واعراضهم عن المثل العليا، وهو يرى ان فساد العالم يعود إلى تلك النغمة التي تتردد ولا تتوقف والتي تحث الانسان على الاستمتاع وتحقيق الاهواء والشهوات وقد شاع في أقوال المؤلفين والشعراء والخطباء والممثلين التمادي في سبيل الدعاية للحياة المستهترة والاباحية وقد بالغوا في مدح الحرية والتوسع فيها حتى أصبحت مرذولة مبغوضة كالسم الذي ينقلب داء بعد ان كان دواء، وأن المثل العليا حقيقة راهنة لا شك فيها لأنها ضرورية للعالم وهي الوسيلة للقضاء على الفلسفة المادية التي أعجب بها هواة الملذات والباحثون عن مسرات الحياة بأنواعها وأن النفوس البشرية لتضيع في سبيل هذه الملذات وتفقد الثقة بالفضائل.

وقد اجمعت أرقى العقول في سائر الازمنة والامكنة على ان غاية الإنسانية هي السلام والمحبة والعدل ومن المحبة الاخوية نشأت فكرة الوطنية وهي فكرة إذا لم تفهم على حقيقتها جلبت الشقاء على جميع الاوطان بايقاظ الصراع والحروب».

ويؤكد لاسكي تلك المحاذير التي تضع الحضارة الغربية اليوم في مأزق شديد: يقول:

من قرن مضى كان في مقدور الدين أن يتيح للكثيرين الأمل في تعويض ما نالهم من الحياة وذلك في الحياة الاخرى، أما الآن فقد أطفأ العلم أنوار السماء ولا طريق للخلاص إلا في ظل الحاضر العاجل. ومنذ قرن مضى رأى الناس بارقة امل في الطاقة الصناعية الجديدة والآن وبالرغم من مزاياها الهائلة يتضح ان الطاقة المادية التي تستطيع أن تشكل الطبيعة لخدمة أغراضنا دون أن يساندها مبدأ ما لن يصبح لها أي معنى إلا إذا كان لهذه الطاقة هدفا

معروفا، والتمست في بعض المذاهب الشاملة الكاملة، شيئا يكون دينا أو كالدين ولم تستطع القومية او الديمقراطية أو الفاشية أو الماركسية ان تسد في قرن او قرنين مسد الدين الذي أشبع العقول والقلوب من قرون وقرون.

وعالجت الحضارة الغربية بعض أزماتها في ميدان علم النفس تحاول ان تسد الثغرة الروحية في بناء الحضارة المادية بعلم يسير على مناهج العلوم التجريبية المادية ونجح علم النفس حين تواضع وأخفق حين جمح ينشد فلسفة نفسية كاملة أو دينا وأشار في نجاحه وإخفاقه إلى الضمير الغائب: إلى الدين.

وفي غياب الدين والأخلاق عن أفق المجتمعات الحديثة نستطيع أن نفسر وقائع الحضارة الغربية: نرى ذلك مثلا فيما ارتكبته الثورة الفرنسية من شرب الدماء وتمزيق أجسام الأحياء وأكل اللحوم البشرية وسلخ لجلودها والتلذذ بإراقة الدماء والفخر بما كانوا يسمونه الاسلوب والغنائم من أحشاء نتنة ورؤس كانوا يضعونها على الرماح وما وقع في الحربين العالميتين الأولى والثانية.

الفصل الثالث
دعامة الحضارة الغربية

[الاستعمار والعنصرية]

إن من أبرز معاقل الحضارة الغربية الاستعمار والعنصرية. فقد قامت على أساس التوسع والتنافس للإستيلاء على أكبر عدد ممكن من المستعمرات ومحاولة تصوير أهل أوروبا بأنهم من طبقة أخرى: من ناحية العرق وان اللون الأبيض هو سيد البشرية وانه مكلف بأمانة الحضارة وتمدين البشرية.

ومن استعلاء الحضارة الغربية وأهلها القول بأن الحضارات قد اندثرت ولم يبق منها على قيد الحياة إلا الحضارة الأوروبية وانها وحدها القيمة على المثل الإنسانية، وانها رمز التقدم والتطور وإن عبقرية الغرب هي من صنعه وحده، وهي وحدها ملاذ البشرية وإغفال كل معطيات الحضارة الإسلامية او الدور الذي قامت به الحضارات من قبل.

وقد جددت الحضارة الغربية نظرية تصنيف الشعوب التي قامت عليها الحضارات الوثينة السابقة للإسلام ودافعت عن نظريات أرسطو وأفلاطون في إستعباد الإنسان للإنسان والفصل بين أصحاب الألوان السوداء والصفراء وبين أصحاب اللون الأبيض وهي نفس نظرية الرومان التي قسمت الإمبراطورية إلى فريق الأشراف الذين لهم كل الحرية والكرامة والعدالة وفريق البرابرة الذين لا حقوق لهم على الإطلاق.

وقد عمد الاستعمار الذي هو واجهة الحضارة الغربية على تجميد الطاقة البشرية عند الشعوب المختلفة والقضاء على أصحاب الكفايات وخلق التمايز العنصري والمذهبي بين الأمم.

وفي تاريخ العلوم والرياضيات كما يقول «رمضان لاوند» يقفز المؤرخ من

ديكارت وكبلر وكوبارنيكوس عبر مئات السنين ليرفع الستار عن أقليدس اليوناني دون ان يلتفت إلى ابن الهيثم والخوارزمي ومئات من اعلام الحضارة الإسلامية كما أن محاولة الاستعلاء بالعنصر والدم والجنس، تستهدف الوقوف امام الاعتراف بحضارة الإسلام أو بعثها عن طريق سموم الاستشراق والتبشير وهي محاولة ضخمة تشترك فيها الصهيونية والماركسية والاستعمار الغربي وذلك بهدف تمزيق الأمة الإسلامية والحيلولة دون وحدتها وإمتلاك إرادتها ونموها بغرس جسم غريب في قلبها تأكيدا لما تؤمن به الحضارة الغربية وما يصوره لورانس براون: في قوله:

(إن الخطر الحقيقي كامن في نظام الإسلام وفي قوته على التوسع والإخضاع وفي حيويته فهو الجدار الوحيد في وجه الاستعمار الأوروبي) ولقد استعيدت محاولة السيطرة على قلب العالم الإسلامي بالسيطرة على فلسطين، المرة الأولى باسم استعادة بيت المقدس وفي الثانية باسم أرض الميعاد، ويسجل البروتوكول الرابع والعشرين من بروتوكولات صهيون التآمر على شعوب هذا العالم والسيطرة على الأميين (الجويم) باسم ملك داود المزعوم ومن التمويه استغلال اسم التحضر والتمدين كوسيلة لستر جريمة الاستعمار ومن ذلك أن سمى ليوبولد ملك البلجيك استعمار الكونغو باسم الاتحاد الدولي لنشر الحضارة وكذلك تبرير الاستعمار باسم الاستغلال التجاري والاستثمار الصناعي بل إن النظام المصرفي الذي جاء به الاستعمار إلى عالم الإسلام يدل على الاستغلال والرغبة في السيطرة عن طريق اغراء المسلمين ودفعهم إلى أسباب الفساد وتجريدهم من ثرواتهم.

ولم ينقل الغربيون من حضارتهم إلى البلاد الإسلامية إلا جوانب الفساد والاستهلاك والمسارح والمراقص والأهواء التي أرادوا بها تدمير الشخصية الإسلامية واستلاب أموالها، بينما حجبوا عن المسلمين كل القوى العلمية والصناعية فقد صاحبت مفاهيم التمدن الغربي جماعات المرابين واللصوص والسماسرة وأصحاب الفنون المحرمة المفسدة.

ومن أبرز معالم الالتباس الذي أحدثته الحضارة الغربية ان الشعب

الأوروبي الذي كان يذهب متحمساً إلى افريقيا لكى يسلب سكانها أبسط حقوق الإنسان وكانوا يقولون في أوروبا ان الناس ولدوا أحراراً ولكنهم في أرض آسيا كانوا يقولون إن الناس عبيد وإن الرجل الأبيض وحده هو الذي له الحق في حمل أمانة حكم هذه البلاد.

ولقد كان من أخطر صيحات الحضارة الغربية صيحة الأمة التي إنبعثت منها الحركة النازية. وهذه صيحة نفخ فيها اليهود التلموديون ليتخذوها وسيلة إلى إعلان دعوة شعب الله المختار، ولقد سقطت النازية بوصفها مذهباً يقوم على التفرقة العنصرية وعلى سيادة جنس من الأجناس بدعوى تقوية سائر أجناس البشر وستلقى الصهيونية نفس المصير، ولا ريب ان هناك محاولة دائبة لتغذية دعوى التفرقة العنصرية في امريكا وفي جنوب افريقيا، تغذيها الأفلام السينمائية فما من فليم من هذه الأفلام إلا ركزت فيه عناصر الخير والتقدم والإنسانية في الرجل الأبيض وركزت عناصر الشر والتأخر والوحشية في الافريقي الأسود: ساكن الأحراش وهي تحاول ان تصور الرجل الأسود بصورة الرجل الهمجي المتأخر المؤمن بالسحر والشعوذة، وآكل لحوم البشر وحامل السهام المسمومة وتصور الرجل الأبيض بالمنقذ الإنساني النزعة.

ولا ريب أن هذا الاتجاه من أخطر عوامل الإنحراف في الحضارة الغربية وهو ما توقاه الاسلام ونهى عنه.

ولعل أسوأ الصور وأشدها قتامة في مفهوم الحضارة الغربية في مجال التفرقة العنصرية ما كتبه الفيلسوف مونتسكيو في كتابه روح القوانين كمحاولة تبرير استعباد الجنس الأبيض: «إن شعوب اوروبا بعد ما أبادت سكان أمريكا الأصليين وهم الهنود الحمر لم تر بداً من استعباد شعوب أفريقيا لكى تستخدمها في استغلال هذه الأقطار الشاسعة فان هذه الشعوب سود البشرة من اقدامهم إلى رؤسهم ولا يمكن ان يتصور أحد أن الله- وهو ذو الحكمة البالغة- قد خلق روحا وعلى الأخص روحا طيباً في أجسام حالكة السواد.

ويقول ليونارد ولف في كتابه الاستعمار والحضارة:

إن الطريقة التي اتبعت في الإستيلاء على الأراضي الافريقية كانت في معظم الحالات وحشية موغلة في الوحشية وإن تلك الطرق المبتذلة قد تركت من غير شك أثرها السيء في العلاقة الراهنة بين سكان افريقيا وأوروبا فان تلك السبل الدنيئة إن دلت على شيء فهي تدل على أن الحضارة الأوروبية تعامل الرجل الإفريقي مثل معاملتها لأي حيوان أبكم. ذلك لأن الرجل الأوروبي يعتقد انه له الحق في الإستيلاء على أرض الافريقي بالقوة أو بالخداع.

وهكذا نجد ان الاستعمار الغربي والعنصرية كانت تسهتدف القضاء على الإسلام كقوة للوحدة والمقاومة وأن خطة الحضارة الغربية في مواجهة العالم الإسلامي إنما تهدف إلى الحيلولة دون نهوض هذه القوة وإن قوى الاستشراق والتغريب كانت تهدف إلى البحث عن جوانب القوة والقضاء عليها فهم يدعون إلى وحدة الحضارة تحت لواء الحضارة الغربية المادية الاباحية ويظنون انهم قادرون عن طريق الضغوط السياسية والوسائل المادية والفكرية وغيرها أن يدخلوا الاسلام وعالمه وحضارته دائرة الاحتواء وقد جرى استغلال دعوات الوطنية والقومية والاقلية وغيرها في هذا السبيل فلما سقطت جميعاً جاءت دعوات الماركسية والوجودية والفرويدية وغيرها لاحتواء الحضارة الاسلامية في بوتقة الحضارة الغربية الغازية ثم دفعت بدعوات البهائية والاحمدية والقاديانية في محاولة لكي تحول دون قيام وحدة فكر بين بين المسلمين.

وبعد فإن استعلاء الحضارة الغربية بالعنصر واللون وصيحتها المدوية بالجنس الأبيض وتميزه عن الأجناس هي من أشد دعاوى الحضارة بطلاناً وفساداً، وهي لا تصمد امام ضوء العلم الصحيح وليس هناك ثمة إرتباط حقيقي بين أي حضارة وبين التكوين الجنسي لسلالة من السلالات وقد عملت إلى إيجاد جماعات مولدة أو جماعات وسطى تحمل صفات سلالة أو أكثر واتضح ان عدم المساواة فيما للأجناس المختلفة من حقوق لا يمكن ان يرجع إلى لون البشرة وأن الحاجز الذي بين الرجل الأبيض وغير الأبيض لا يستند إلى أسس علمية (يسرى عبدالرازق).

ويأتي تبعاً لذلك خطأ نسبة نشوء المدنيات وإنحطاطها إلى الأجناس والعناصر وحدها، ذلك ان عوامل نجاح الامم يتكون من عدة عناصر: منها الفكر والعقائد، والجغرافيا والبيئة ومنها الوراثة وإن الحضارات القديمة التي ازدهرت في حوض البحر المتوسط في الالف الثالثة قبل الميلاد نمت في بلاد تميز سكانها بالاختلاط لا بنقاء الجنس.

وإن الحضارة الاسلامية لم تعترف بهذه التفرقة العنصرية وقد قامت على اساس أنها عصارة ما قدمه العقل الاسلامي سواء أكان أهله عربا أم فرساً أم تركا، لقد صهرتهم جميعاً جذوة الاسلام في بوتقة التوحيد الخالص ومنها استمدوا ذلك العطاء الذي قدموه للبشرية.

إن الاسلام يقرر وحدة الجنس البشري أساساً ويشجب نظرية الاجناس والفرق والعنصرية ويرى أن الاديان انتشرت في العالم واختلطت بالاجناس وناهضت فكرة العنصرية وقضت عليها وان نظرية العنصرية كانت تتحرك بأيدي أصحاب الأهواء ثم لا تلبث أن تخمد لأنها تضاد حركة التاريخ وسير الحضارة الإنسانية، وقد قرر العلماء في العصر الحديث ان هناك حقيقة لا ريب فيها هي اختلاط الأجناس البشرية على مر العصور، وإنه منذ ما قبل التاريخ حدثت هجرات عظيمة للشعوب وشهد العصر التاريخي الامتزاج الواسع للعناصر البشرية التي تتمثل في الغزو والحروب وفي العلاقات السليمة بين الشعوب كما تبين بما لا شك فيه من الناحية العلمية أن أثر الخصائص النفسية والأخلاقية يقضي تماما على ِالعنصر البيولوجي بوصفه عاملا أساسياً للتطور الاجتماعي، وإن الذين يؤمنون بمثل عليا واحدة تقوم بينهم قرابة تتمثل في وحدة الهدف والتفكير وتسمو على فكرة العنصر والجنس وأن هذه الروابط هي التي دفعت المجتمعات الإنسانية إلى الأمام على مدى العصور وان دين الله الحق المنزل على أنبيائه كان دعوة حارة إلى وحدة الجنس البشري الذي يتأكد بأن الناس لآدم وآدم من تراب وإنه لا فضل لعربي على عجمي ولا لأبيض على أسود وأن التفاضل بين الأمم والشعوب والناس إنما يكون بالتقوى والعمل الصالح.

لقد كان من أسوأ تيارات الحضارة الغربية: (الاستعمار والعنصرية) فقد عملت إلى إمتصاص ثروات الشعوب وعملت على تقسيم العالم على أساس الأجناس وإيقاد نار الصراع بين العروق بينما كانت رسالة الدين داعية إلى الوحدة والإخاء.

بل إن إنقسام الناس على أساس ديني كما يقول جوان كوماس كان أكثر إنسانية لأنه في الإمكان عبور الهوة التي تفصل وتفرق بين الأديان أما الهوة البيولوجية التي تفصل بين الأجناس فلا يمكن عبورها. إن أصل هذه النظرية سياسي وليس علمياً وانه سلاح يستعمله الفريق المسيطر لتبرير ظلمه للفريق المسيطر عليه ولكن الحقيقة كما قررها الإسلام والأديان من قبل: أن أجناس البشر على اختلاف ألوانها متساوية.

الفصل الرابع
المسيحيّة والحضارة

اختلف التفهم الغربي عن التفهم الشرقي لها: ذلك ان الغرب أسرف في التفسيرات التي وضعها حول مفهوم الدين وحول حقيقة الرسول وحول صلة المسيحية باليهودية ومدى ما أصاب التفسيرات الغربية من انحراف عن مفهوم الرسالة المنزلة وتأثره بالمندائية التي كانت شائعة في الغرب إذ ذاك.

وجل الآثار التي ترتبت على ذلك أن التفسيرات أصبحت شيئاً خطيراً معارضاً لما وصل إليه العلم من تجارب. وما كان لدين الله أن يخالف العلم وهو فـرع من فروعه، وكذلك عجزت التفسيرات عن أن تعطي الغرب في مرحلة الاستعلاء العلمي ما يرضى النفس، أو ما يتجاوب مع مفهوم التقدم، بل أن الذي حدث هو الصدام، على النحو الذي حمل رجال العلم على تجاوز الدين ومعارضته ثم إلى إنكار المعنويات والغيبيات والروحانيات جملة.

لقد حمل الدين لواء الأخلاق ولكنه لم يجعلها أسلوباً للحياة العملية بل جعلها وسيلة للعزلة الرهبانية، ومن ثم لم تستطع أوروبا أن تجد من عطاء الدين ما يجعل منطلقها العلمي أو الحضاري او الاستعماري قائماً على الخير أو السماحة فانقسمت بالشيوعية.

ثم جاءت الحضارة الغربية بعد ظهور الإسلام بعشرة قرون وكان قد مضى على ظهور المسيحية خمسة عشر قرناً ومن هنا فإن الكثيرين يؤكدون بأنه لا صلة بين الترقي الأوروبي ودين المسيحية وأن بذور الإسلام هي وحدها التي أنبتت حقول العلوم والصناعات.

ويرى كثير من الباحثين: أن العامل الديني فقد أثره في تكوين الدولة الحديثة خاصة وأن العديد من دول العالم فصلت الكنيسة من الدولة. كما

قامت الدولة الشيوعية الحديثة على أسس لا دينية وعزلت الكنيسة هناك عن مباشرة أي نشاط اجتماعي جدى حيث لم يعد الدين اليوم عنوان كفاح الشعوب وقوتها في تكوين المجتمعات:

ويقول محمد أسد: إن الرجل العادي في أوروبا الآن: ديمقراطياً فاشياً رأسمالياً، اشتراكياً، مفكراً، عاملا، إنما يعرف ديناً واحداً هو عبادة الرقي المادي والاعتقاد بأنه لا غاية في الحياة غير أن يجعلها الإنسان أسهل وكنائس هذا الدين: المصانع الضخمة ودور السينما ودور الرقص. وكهنتها هم رؤساء المصارف والمهندسون والممثلات وكواكب السينما وأقطاب التجارة والصناعة، ألفهم للقوة، والشره للذة، ودائماً طوائف منافسة مدججة بالسلاح مستعدة لإبادة بعضها بعضاً. أن الحضارة الغربية لا تجحد الله في شدة وصراحة ولكن ليس في نظامها الفكري موضع لله في الحقيقة ولا تعرف له فائدة ولا تشعر له بحاجة، لقد ارتقى العقل حتى اغتـــر بنفسه وتمرد حتى خيل إليه أن الوجود الذي اكتشفه من صنعه بدلا من أن يتواضع حين يرى عظمة الكون وسعة آفاق المجهول بالنسبة للمعلوم، تكبر وطغى، وقطع صلته بخالقه وخالق الكون فتأله الإنسان واعتقد في ذاته الكمال. إن حضارة أوروبا سائرة نحو نوع جديد من الوثنية فهي مادية في أهدافها وغاياتها الفردية والجماعية، غاية الفرد اللذة والمنفعة وغاية الجماعة كثرة الإنتاج وزيادة المال واختلاف المذاهب في هذه الحضارة من نوع هذه اللذة وفي اقتسام الإنتاج. لقد كان أكبر ما منيت به أوروبا وحضارتها انحسار المسيحية وتقهقرها امام هذه الوثنية الجديدة كانت تعاليم المسيحية الروحية والخلقية تخفف كثيراً مما عند الأوروبيين من ضراوة وشراسة وقد تركت أثراً واضحاً في الأفكار الإنسانية والخلقية ولكنها تراجعت امام هذه الديانة الوثنية الجديدة».

ومعنى هذا كله ان محاولة القائلين بأن المسيحية تستطيع ان تنفذ الحضارة لا تؤدي إلى شيء واضح فقد عمقت الوثنية وانقسمت أوروبا مرتين، وكانت الآمال معلقة على البروتستانتية ولكنها لم تستطع ان تعمل شيئاً واعتنقت نفس التفسيرات المسيحية فلا فرق جوهري بينهما فكلاهما يعتقد بالتثليث والصلب والفداء، ولم يكن الخلاف بينهما في الأمور الجوهرية.

ولقد صدق درابر حين قال: أن الوثنية دخلت في النصرانية بتأثير من كانوا يتقلدون وظائف خطيرة ومناصب عالية في الدولة الرومية وحين بلغت الجماعة النصرانية من القوة بحيث ولت قسطنطين الملك فإنها لم تتكن من قطع دابر الوثنية، كانوا يعتقدون ان الديانة الجديدة ستزدهر إذا طعمت ونقحت بالعقائد الوثنية القديمة، وكانت نتيجتها أن اختلطت مبادئها ونشأ من ذلك دين جديد تتجلى فيه النصرانية والوثنية سواء بسواء. وهكذا يختلف الإسلام عن النصرانية إذ قضى على منافسة (الوثنية) قضاءاً تاماً ونشر عقائدهم خالصة ».

ومن هنا نرى كيف عجزت المسيحية وتعجز عن إنقاذ الحضارة، وكيف سقطت الحضارة في أتون اللاأخلاقية دون ان تتمكن المسيحية من إنقاذها ووجدت المسيحية من خصومة الفلاسفة ما حال بينها وبين أداء دورها فكانت فلسفة نيتشة بمثابة رد فعل عنيف ضد ما أسماه الأخلاق المسيحية والعودة إلى الوثنية الأرستقراطية ونظام العبودية الروماني.

ولقد اختار أن يوجه حملته على لسان زرادشت (الذي كان علماً على المجوسية في الشرق) وكان ذلك بمثابة تقديم ديانة جديدة معارضة للمسيحية مناهضة للأخلاق، هاجم نيتشة القول بالرحمة والتعاون والإخاء البشري وحماية الضعيف وقال ان هذه الأخلاق تعارض بقاء الأقوياء (الصقور) وتصدهم عن حقهم الذي تنطق به الطبيعة وهو أن الصقر يجب أن يأكل الصقور ودعا إلى إعفاء الإنسان من التقيد بالأخلاق المسيحية لأنها اخلاق الأذلاء. وحارب (رينان) ما أسماه المسيحية التاريخية وقال أن الكتاب المقدس ليس إلا أثراً من تكامل الخرافات والأساطير كما هاجمها هكسلى ورفضها رفضاً ورأى انها لا تصلح مطلقاً لأن تكون عاملا مدنياً ورد جميع النظريات المسيحية، وهاجمها شيفتزر في كتابه عن المسيح، وحارب أوجست كونت الكنيسة الكاثوليكية من خلال دعوته إلى الفلسفة الوضعية أما كارل ماركس فقد وصف المسيحية بأنها ديانة الكلاب الضالة الضائعة.

ولا ريب أن هذه العبارات تدل على كراهية عنيفة وتعصب شديد ضد

الدين ودعوة إلى تجاوزه وذلك مفهوم غلب على الحضارة الغربية وكان من أسباب ضعفها وأزمتها وكان حقاً عليها أن تتحرك في إطار الدين وأن تتحرى مفهوم الدين الحق الذي هو المنطلق الحقيقي للحضارة والحامي لها من الانهيار.

الفصل الخامس
حضارتان لا حضارة واحدة

تجيء الحضارة ثمرة للثقافة التي تقوم عليها والعقائد التي تؤمن بها الأمة صاحبة الحضارة ولذلك فإن الأساس الفكري (الروحي والمعنوي) هو العنصر الأساسي الذي ينبني عليه التقدم والإنشاءات المادية والفنية ولذلك فإن الحضارة لا تستطيع إلا أن تكون ثمرة فكرها قائمة على قاعدة أساسية تحمل عناصر الثبات وتسمح بالحركة الدائمة المتصلة بالبيئة والعصر دون ان تخرجها هذه الحركة عن قاعدتها وأصولها، وهي بذلك تكون قادرة على التجدد مع الزمن «والتطور مع العصر» ملتمسة كل أدوات القوة المتاحة شريطة ألا تستوعبها حضارة أخرى أتيحت لها فرصة السيطرة في عصر ما أو بيئة ما.

ولا ريب أن عقيدة الحضارة ذات النظرة الصائبة إلى مصدر الحياة وصانعها الأول والأكبر والقدرة على تفهم رسالة الإنسان في بناء المجتمع الرباني وقيام حركة الحضارة على أساس الأخلاق والتقوى كل ذلك من شأنه أن ييسر استمرار نمو الحضارة دون أن تصدمها أزمة من الأزمات التي تجيء نتيجة تجاهل سنن الحضارات وقوانين الكون.

ولقد عرفت الحضارة الاسلامية هذه الحقائق فلما غفلت عن بعضها أصابتها سنة الله وأزمة التخلف وغلب عليها أهل الحضارة الغربية بالسطوة والسلطان، غير أن سلامة أصول الحضارة الإسلامية حمتها من الانهيار والسقوط وأدخلتها في دائرة المحاق ثمة حتى تستعيد فهم النظرة الصحيحة والإتجاه الحق.

ولكن الحضارة الغربية عجزت عن أن تتحرك في إطار العقيدة الربانية فهي سرعان ما خرجت عن سنن الحياة وقوانينها فاصطدمت بعدة عوامل، حرقت مفهومها بحيث تنكرت تماماً للأصل الأصيل مصدر الحياة والوجود

والحضارة بل وعمدت إلى أشد من ذلك انحرافا حين حاولت اخراج الحياة من تقدير الله تبارك وتصريفه، وأطلقت أسماء الطبيعة والانتصارات على الطبيعة وخرافة الميتافيزيقا (أي الغيب) وسعت سعيها الباطل إلى التخلص من الموت والذهاب وراء الرفاهية والإنحلال إلى أبعد الغايات مع محاولة الإدعاء بما أسمته إرادة الإنسان وسلطان العقل وجبروت العلم ودون أن تلتفت إلى إرادة الله القائمة والمسيطرة على كل ذلك ومن وراء ذلك كله ومن فوق ذلك كله حيث انه لا إرادة ولا سلطان ولا جبروت إلا لله تبارك وتعالى وأن إرادة الإنسان التي يترحك بها في مجال العلم إنما هي من عطاء الله.

ولذلك فإن مفهوم الحضارة في نظر أهل الغرب مادي بحت، يستبعد الدين والمعنويات والأخلاق ويقصر المسائل على تصور مقدرة الإنسان على التقدم في مجال الصناعة والماكينة وبذلك بنت الحضارة الغربية المدن والأجسام ولم تستطع أن تبني النفوس والأرواح وقصرت الرقي على المجال المادي كالتطور في العلوم التجريبية والإختراع الآلي وأساليب العمران العملية والزراعية والصناعية دون أن تلتفت إلى الجوهر الذي يحرك هذه القوى جميعاً ويوجهها إلى خير البشرية ومن ثم فقد توجهت إلى اللذات والشهوات والمطامع وإلى السيطرة على الأمم الضعيفة.

وقد أطلق بعض علماء الحضارة على هذا النوع إسم المدنية لأنه قاصر على النواحي المادية وحدها أما الحضارة فهي تشمل الرقي في المجالين معاً، ومثالها الحضارة الإسلامية الجامعة.

والقاعدة ان حضارة أمة لدى أمة أخرى هي أشبه بالمواد الخام فمن حقها أن تشكل هذه المواد على النحو الذي يتفق مع عقيدة حضارتها وقيمها. والبذور تستورد من البلاد البعيدة، ثم تزرع ومنها ما ينمو ومنها ما يتوقف عن النمو لاختلاف التربة. وإذا كان لكل تربة عوامل تحوطها من ماء وجو ومكونات جيولوجية فإن للامم كذلك تربة فكرية لها مقوماتها التي تصلح لنماء بذور معينة لبذور ولتحجب بذوراً اخرى.

وهذا يؤكد ما يذهب إليه بعض الباحثين من أن الحضارة منهج فكري

ونفسي اخلاقي معين لتكوين أسلوب للعيش تحملها مجموعة من الناس وليست الوسائل التكنيكية المادية لرفع مستوى العيش او تنظيم الحياة الإجتاعية إلا ادوات تستخدم على الوجه الذي يحقق الغاية التي تتجه إليها هذه الحضارة.

وكذلك فإن مفهوم التقدم لا يكون ماديا صرفا على النحو الذي تعرفه الحضارة الغربية وإنما التقدم معنوي ومادي، ولا بد أن تصطبغ المعطيات المادية بطوابع الخير والرحمة والعدل فلا يكون عاملا لهدم الشخصية الإنسانية ولا لتدمير المجتمع أو الأمم الضعيفة كذلك فإن الحضارة ليست تقدما ماديا خالصاً ولا قدرة علمية على التحكم في الطبيعة او تذليلها فحسب، وإنما هي وجهة إنسانية لإقامة المجتمع الرباني الذي يستهدف إقامة منهج الرحمة والإخاء.

ولذلك فإن من الخطأ القول بأن الحضارة تنقسم إلى حضارة أخلاقية وحضارة مادية فالحضارة لا تنقسم أبداً ولكنها تتكامل ولا بد من قيام الحركة داخل إطار الثبات فالمعتقدات هي موجهة الحضارة ودافعها الأصيل، فاذا تخلت الحضارة عن العقيدة الربانية الخلقية، فإنها تتحرك في غير إطار ثابت ومن ثم يغلب عليها الترف والانحلال والتراخي.

ولا ريب أن المعطيات المادية التي تحققها الحضارة عن طريق العلم والتكنولوجيا هي ملك لكل الحضارات ومن حق كل أمة أن تحصل عليها، لتحركها داخل الإطار الذي أقامته من واقع عقيدتها وأخلاقها، ومن ثم فإن القيم العقائدية التي تحرك الحضارة لا تنقل ولا تستعار ولا تقتبس فاذا احتوت حضارة مادية مثلا حضارة جامعة كالحضارة الإسلامية فان ذلك يكون من أشد المحاذير التي تتعرض لها وهذه هي اخطر عوامل سقوط الحضارات وفسادها.

ومن هنا يتقرر أن العقيدة هو العنصر الأول في بناء الحضارة وأن العناصر الأخرى كالعلم والاقتصاد وغيرها إنما هي خاضعة لهذا العنصر الرئيسي فاذا فقدت سلطانها على هذه العناصر اندفعت تلك القوى إلى غير غاية واضحة، وتغلبت عليها إذ ذاك الأهواء والمطامع التي توجهها ضد صالح

البشرية. والتي تفسدها بالترف والإنحلال.

وأن أخطر ما حاول أهل الحضارة الغربية أن يدعوه هو أن العلم قادر على أن يحل كل شيء ولكن العلم بشهادة علماته عجز عن حل المشاكل وقال بوترو في كتابه العلم والدين: أن العلم مهما تقدم فهو محدود.

ولذلك لا بد من الرجوع إلى ما يسد الفراغ عن طريق الدين بروحانيته، واعتماده على القلب والعاطفة: أن العلم والدين هما أساس الحياة الإنسانية، إن كل منهما مستمد من الآخر ومكمل له ولن يستطيع أحدهما القضاء على الآخر.

وبينما يقول العلم ذلك يحاول دعاة التغريب أن يزيفوا المفاهيم لخداع أهل الحضارة الإسلامية حتى يسيطروا عليهم ويفرضوا عليهم أسلوب العيش الغربي.

الواقع أن مسألة التغريب هي قضية مفروضة الآن على جميع الشعوب، وهي من الأمور اليسيرة بالنسبة للامم شرقيها وغربيها، والهند والصين واليابان وغيرها ولكنها غير يسيرة بالنسبة للامة الإسلامية التي لها منطلقها الخاص، ومفهومها المتميز، وروحها الجامعة التي تتقلص تقلصاً شديداً لو أنها قبلت الدخول في بوتقة الحضارة الغربية التي هي بطبيعتها وبروح فكرها انشطارية مادية، ليس لها رحابة الحضارة الإسلامية ذات الجناحين الممتدين روحا ومادة والمترابطين على تكامل الإنسان ووحدة البشرية مما يؤدي إلى التوازن والمواءمة بين القوى المختلفة.

إن دعوة الحضارة الغربية إلى تبني طريقة العيش الأوروبية تجد رفضا كاملا في أفق الإسلام الذي له طريقة عيشة الخاصة، المفتوحة على الحضارات بالقبول والرفض، والأخذ والعطاء، دون فقدان الهوية او سقوط الذاتية أو الإنصهار، خاصة وأن الصبغة التي قدمها الغرب للحضارة هي صبغة مادية أو علمانية تركت الدين جانباً، بعد أن انفصلت العلوم عن إطارها الروحي والأخلاقي والمعنوي منذ نهاية القرن السابع عشر.

ولا ريب أن الحضارة الغربية بإصرارها على هذه الصيغة الجزئية الناقصة العاجزة عن استلهام حقيقة الإنسان الجامع بين الروح والمادة إنما تضع نفسها في

طريق الخطر الذي لن تسلم منه، وسوف تجد البشرية بعد أن يتسع علمها وعقلها حاجتها إلى روح وإلى معنويات وإلى إيمان ثم لا تجد في الفكر الغربي ما يعطيها ولا في الحضارة الغربية ما يكفل لها مطمعها المعنوي، بتحقيق أشواق الروح والتكامل بين شطري الانسان المادي والمعنوي.

* * *

إن محاولة إيجاد قنطرة للالتقاء بين الحضارتين الاسلامية والغربية لا يتم بارادة حرة من طرف المسلمين، وإنما يفرض عليهم من قوة تغلبهم ولذلك فانه لا يحقق شيئاً، خاصة إذا كانت كلا من الحضارتين تنزع منزعا مختلفاً ولكل وجهة هو موليها، وفي إبان الظروف الحرة فإن الحضارة الاسلامية التي تمر الآن بمرحلة يقظة بعد سبات قد تأخذ ما تراه صالحا لها وتترك ما لا يتفق مع هدفها وجوهرها، ولكن المحاولة التي تجري منذ أكثر من قرن، والتي تمت تحت مدافع العدو المنصوبة فوق رؤس المسلمين، وقد حالت دون الاختيار الحر وعمدت إلى فرض الحصار والاحتواء رغبة في صهر الأمة نفسها في بوتقة الحضارة الغربية وإزالة ذلك الطابع الأصيل الذي عرف للحضارة الاسلامية دون حضارات الوثنية قديماً وحديثاً والذي هو علامتها الأصيلة التي ضحت بالأرواح والنفوس في سبيل الحفاظ عليه في أشد أوقات الضعف والتخلف والذي تحرص الحضارة العربية على سحقه سحقا وهي محاولة مستحيلة لأنه بطابعه الرباني أقوى من أن يدمر ولأن جذوره العميقة الممتدة في الأرض تحول دون سقوطه.

ولأن الحضارة الغربية قد غزت عالم الاسلام غزواً قائماً على الاستعلاء والظلم ومحاولة انتقاض الأصالة الاسلامية وهدمها فانها عجزت ان توجد سبيلا للتعارف السمح والتلاقي البصير وتركت في أعماق نفس المسلم جراحا شديدة الخطر عميقة الغور ولقد سجل هذا المعنى أوائل الذين شهدوا الغزو الحضاري الغربي من أمثال جمال الدين الأفغاني حين قال:

إن الغرب مناهض للشرق والروح الصليبية لم تبرح كامنة في الصدور كما كانت في قلب بطرس الناسك ولم يزل التعصب كامنا في عناصرها وهي تحاول

بكل الوسائل القضاء على كل حركة يحاولها المسلمون للاصلاح والنهضة من أجل هذا يجب على العالم الاسلامي ان يتحد لدفع الهجوم عليه ليستطيع الذود عن كيانه.

الباب الرابع
أزمة الحضارة الغربية
في تقدير مفكري الغرب

سبنجلر، لاسكي، أندريه سجفريد، براتراند رسل،
برجسون، توينبي، جود اليكسي كارليل، سوركن،
ماكس نوردوا، ألبرت شفايتزر

الفصل الأول
أفول الغرب: شبنجلر

في نفس الفترة التي كان دعاة التغريب يتحدثون عن الحضارة الأوروبية حديث الإعجاب والتقدير ويدفعون أهل الإسلام إلى اعتناقها وتقبلها خيرها وشرها حلوها ومرها وما يحمد منها وما يعاب ويقنعونهم بأنه لا سبيل لنهضة الشرق إلا بهذه الحضارة، بل وكانوا يذهبون إلى أشد من ذلك وأعنف حين إدعوا دعواهم المسمومة إلى أنه يجب أن يأخذ العرب المسلمون هذه الحضارة بفكرها وعقائدها ومفاهيمها وليس لهم أن يأخذوا جوانبها المادية أو العلمية أو التكنولوجية وحدها. أقول في نفس هذا الوقت الذي كان دعاة التغريب يلحون على دعوى اعتناق الحضارة الغربية كبديل لحضارة الإسلام، كان كتاب الغرب يكشفون زيف حضارتهم وما وصلت إليه من تفكك وانحلال.

ولقد كانت أعلى هذه الصيحات دوياً وأعظمها خطراً: هي صيحة اسوالد شبنجلر في كتابه تدهور الغرب Der Untergang des Abendlandes الذي صدر عام ١٩١٨ وترجم في الثلاثينات وتوفي ١٩٣٦[١].

فقد درس شبنجلر قوانين النمو والانحلال في التاريخ والحضارات. وخلاصة رأيه هو أولا: أن الحضارة الأوروبية مقبلة على عهد انحطاط وتهافت وأنها أصبحت تعاني أمراض الشيخوخة وانحلال الفناء وأن الحضارة الغربية قد دخلت في دورة الحضارة منذ ١٨٠٠ وحوالي ٢٢٠٠ سيكون قد أدركها البلى، خاصة بعد أن علت صيحة (كل واشرب فإنك ميت في الغد) وإن هذه المدنية لا بد ان تنهار إذا مسها عدو خارجي أو غلبت عليها عوامل الفساد

(١) ترجم على حسن الهاكع لشبنجلر كتابه تحت عنوان أفول الغرب كما ترجم كتابه الأعوام الحاسمة.

الداخلي الكائنة فيها وهكذا نجد ان هذه الحضارة التي كان يدعو إلى اعتناقها والسير وراءها في الثلاثينات طه حسين وسلامة موسى وحسين فوزي وغيرهم قد هوجمت هجوماً عنيفاً من فلاسفة الغرب ومفكريه الذين نعوا عليها ماديتها الخالصة.

ويقول: إن مقارنة الحضارات بعضها ببعض يدلنا على أن حضارتنا بلغت سن الشيخوخة وأن ساعة القضاء حمت ودنت، ذلك القضاء المبرم الذي من الجهل أن يصي.

ثانياً: إن لكل حضارة رمزها: الذي يصل ما بين الروح والحس، رمزها المتحكم في عقيدتها وأسسها وفي موسيقاها وصورها، لكل حضارة عقيدتها وفلسفتها وأسس علومها وأنظمتها السياسية ولها قوانينها وسائر ألوان فنونها وليس هناك فلسفة ولا فن ولا علم ولا نظام قانوني مطلق في التاريخ. وأن الحضارة تأخذ في التطور والتشكل حتى تبلغ مرحلة الكهولة وإذ ذاك تتحول إلى مدنية (Civilisation) وبعد ذلك تأخذ روحها في الاجداب وكلما اخذت إمكانياتها في النفاذ لجأ العقل إلى تحويل تلك الإمكانيات إلى مظاهرها المائلة ولكل حضارة: مرحلة الشباب وهي: مرحلة الحضارة الأصيلة التي تغمرها الروحانية وهي التي يطلقها شبنجلر على المرحلة الكاملة اي حضارة ولها كهولتها وشيخوختها التي يطلق عليها اسم المدنية وتجيء مرحلة المدنية عندما تطغى المادة على الروح، ويكون التقدم المادي قد أجدب روحياً.

وما مرحلة الحضارة الغربية الحالية إلا غرة المدنية المضللة ببهرجها الذي تسير فقرها الروحي وقد نفذ من أمد، فهي سائرة الآن بخطى واسعة إلى الفناء المحتوم الذي أصاب الحضارات السابقة.

كذلك لم تسقط غزوات الجرمان روما وإنما أسقطتها شيخوختها وكل ما في الأمر أن الغزو والشيخوخة ظهرا معاً على مسرح التاريخ.

ثالثاً: لأن أخطر ما يدفع الحضارة الغربية إلى مرحلة الانهيار هو الخطر الذي يواجه السلام العالمي والعنصرية، وعنده أن حالة البقاء تنتقل من يد الشعوب إلى عصابات وبطانات المغامرين وأشباه القياصرة وملوك البرابرة

وإن انخفاض نسبة المواليد: هذه الظاهرة هي بمثابة تحول ميتافيزيقي نحو الموت ذلك ان الإنسان كجنس لم يعد يرغب في الحياة.

رابعاً: ظاهرة اختفاء الابتكار: وإذا اختفت الروح الخلاقة فقد بلغت الحضارة شكلها النهائي على الزغم من أن العلم يزدهر ويكثر الحديث وإنفاق الوقت والنقود على الفن، إلا أن اختفاء الدافع الابتكاري يجعل الصراع يدور حول السلطة والقيادة بدلا من الأفكار إن ما يمارسه الناس اليوم على أنه فن ليس إلا عجزاً وزيفاً فأينا تلفت فهل تستطيع أن تجد الشخصيات العظيمة التي تبرز الزعم بأنه ما زال هناك فن يعتبر ضرورة محتومة.

خامساً: إن بداية عهد الاضمحلال يكون خفياً لا يتنبه له الناس، فيختفي عهد الإلهام الجياش القوي في الأدب والفن ويدخل الناس في عهد استرخاء ليظل هائماً خاضعاً مطيعاً، الفلسفة الوحيدة هي فلسفة كل واشرب فإنك ميت في الغد وهي الفلسفة التي يؤمن بها كثير من الشباب اليوم.

سادساً: نقص المواليد من نذر وسقوط الحضارات، وهي حالة تطرأُ على الحضارات في مراحل تقدمها الأخير، فالمدنية تجلب معها نوعاً من الأنانية والحرص الشديد يؤثر في رغبة التناسل فتضن كثير من سيدات الطبقة الراقية براحتها وتحرص على مظهرها من أن تخضعه الغريزة لأغراضها ويولع كثير من الموسرون بالأرقام كلما نضجت ثرواتهم فتراهم يؤثرون أن تنتقل هذه الثروات وتتراكم بعد موتهم لولد واحد عن أن تتوزع على عديد من الأولاد وتجد لدى كثير من الوالدين المتوسطي الحال بنتا واحدة فإذا كان مقدراً للأسرة في الأحوال العادية ستة أولاد فالاكتفاء بواحدة يفقد الأمة خمسة وهذه ظاهرة ضبط النسل في الطبقة الراقية فإذا سارت الأمور على هذا المنوال لم يلبث أن يختل التوازن وتنقلب الطبقات المنحطة بصفاتها الرديئة التي يتكاثر النسل فيها ولما كانت الحضارات تقوم على أكتاف الخبرة، فإذا نقص مواليد هذه الخبرة قلل توارث صفاتها الطيبة وتلاشت هذه الصفات على مر الزمن ونقص المواليد هو الخطر الأعظم على الأمم وعلى الحضارات، مع غلبة الأمم المستعبدة وزيادتها. إن اندثار الموهوبين هو اختفاء للعتاد الواقي الذي لا تقوم الحضارات بدونه.

سابعاً: الاضطهاد السياسي بوصفه مصدراً لخطر من أعظم الأخطار على الحضارة الغربية. إنه يجتاح أوروبا بأسرها وأنه إذا استمر تخلف في البلاد المنكوبة حطام من أصحاب الشهوات والأنفس الذليلة.

ثامناً: الترف وما يتبعه من مرض وأوجاع.

تاسعاً: تحديد النسل: وعندما تبلغ المدنية الذروة تفقد الشعور العميق بالدم والجيل والذرية فيعملون على تحديد النسل ويتخلون عن النوع شيئاً فشيئاً بدل أن يحرصوا عليه ويعملوا على حفظه وإذا غلبت على الأفراد الاعتبارات المادية والمنفعة الذاتية وهانت عليهم امور الدم والجيل والذرية دل ذلك على مرض شعبي متأصل.

عاشراً: إن حالة أوروبا في أوائل القرن العشرين تشبه من وجوه عدة حالة الدولة الرومانية في القرن الثالث المسيحي فأوروبا فقدت مبدأ السلطة وقد انتهى الصراع الهائل الذي بدأ ١٧٨٩ بين النظام الملكي القائم على فكرة حق الملوك المقدس والنظام الديموقراطي المستند إلى إرادة الشعب بإضعاف النظامين ومبدأ الحكومة الملكية بموجب الحق المقدس قد اندثر وضرب عليه العفاء، والعروش الباقية في أوروبا أشبه بالصخور المتسامية فوق غوارب الطوفان.

ولم يعد في مكنة المبدأ الديمقراطي القائل بأن الشعب هو مصدر السلطات ان يملأ مكاناً وقد بدأت الشكوك تحاصر الأمم في صلاحيته وأنه يفسح الطريق للديكتاتورية المستبدة.

الفصل الثاني
إنحطاط الحضارة : ماكس نوردو

أصدر ماكس نوردو كتاب الانحطاط عام ١٨٩٣ وله كتاب أكاذيب المدنية الحاضرة وقد بحث ما أسماه الإنحطاط السائد على العالم اليوم وبخاصة اوروبا عن مظاهره ونتائجه. فقال: أصيبت أوروبا في العصور الأخيرة بالمرض النفسي والعقلي الذي اصطلح العلماء على تسميته بالانحطاط وهو مرض في الجهاز العصبي له تأثير شنيع على الحياة الذهنية والأخلاقية للفرد وبالتالي للجماعة وأول من فطن إلى حقيقة كنه هذا الداء ، ووضع له تعريفاً فنيا أصوليا هو الباحث موريل إذ قال: أن أوضح فكرة يمكننا تكوينها عن مرض الانحطاط هو أنه انحراف فاسد عن صورة أصلية يترك المصاب به عاجزاً عن تأدية وظائفه الإجتماعية في الحياة وهذا الداء ينتقل إلى الذرية بطريق الوراثة ويزداد ويتجسم مع التسلسل وأهم أعراض هذا الداء النفسية هي عدم الشعور بفروض الآداب وواجبات الوطنية ، فالمصابون به لا يعرفون ما يسميه الناس قانون الحشمة واللياقة فتراهم لأقل باعث من شهوة او هوى يقترفون الإثم والجريمة ولا يتحتم أن يكون المنحط المصاب بداء الانحطاط خلوا من النبوغ والعبقرية. أن منشأ هذا الداء (الإنحطاط) هو ضعف الأعصاب وانتهاك القوى وهما نتيجة لسببين رئيسيين: أولهما الإنهاك في الشهوات والملاذ وثانيهما ما كابدته أوروبا في القرن السالف وما تكابده الآن من الثورات والحروب ولا ريب أن الحرب هي منشأ لداء الانحطاط بين الجماعات وان معظم الجنود العائدين من المعارك يحملون إلى أوطانهم اعصابا مريضة وهذه النظرية قد تكون أقل انطباقا على الفريق الغالب منها على الفريق المغلوب لأن الشعور بالفوز من الذ احساسات النفس البشرية.

إن تفشي الغلظة والوحشة في الشعوب غب الحروب قد أصبح من البديهيات التي لا تحتاج إلى دليل وقد عرف الناس ان الشعوب المتحاربة تخرج من الحرب أسوأ أخلاقاً وأخشن طباعا مما كانت عليه:

ولما كان هذا الداء: «الإنحطاط» شاملا لم يحفل منه فريق من المفكرين والكتاب والشعراء والمصورين والموسيقيين فقد خرج جانب عظيم من مؤلفات الأجيال الحاضرة متلبساً بعاهات هذا الداء ومشوهاته ومقاذره وهو على ذلك أروج من الكتب السليمة القيمة النقية.

وقامت الجماهير المصابة العليلة فأجلست على أريكة دولة الآداب والفنون رجال أدهشوا القراء ببدائع الخيال وروائعه ولكنهم أصفار من الآراء الناضجة والأفكار المنتجة الخصبة مجردون من المبادىء القويمة والمذاهب السليمة منحرفون عن سنن الحق والمنطق والطهر والفضيلة، يشحنون مؤلفاتهم بأصناف الباطل والخرافات والخزعبلات ويصمونها فوق ذلك بأفانين الفسق والفجور والاثم والرذيلة والجماهير الحمقى السخيفة تسميهم قادة الدنيا وأعلام الهدى ومصابيح المستقبل وما هم إلا فئة من المرضى المصابين لولا مزية الخيال القوى والأسلوب الرائع لسكان المستشفى أولى بهم من غرفة الكاتب والمؤلف، فأوروبا الآن قائمة في حومة داء ذهني قتال أوفي حومة موت اسود من الانحطاط فلا جرم إذا تساءلنا ماذا يكون بعد ذلك. وإذا كان هذا الداء المذكور لم يبلغ بعد اقصاه وأنه سيزداد شدة وعمقا واتساعا فلا بد أن يأتي زمن تصبح فيه الظواهر المقصورة اليوم على سكان مستشفيات المجاذيب فقط، قد شاعت في المجتمع الأوروبي وصارت من أحواله وصفاته العادية وإذ ذاك نرى الحياة وقد اخذت الصورة الآتية أو نحوها.

بدلا من الحانات تنشأ أماكن لتعاطي الأثير والكورال والنفط والأفيون ويزداد عدد المصابين بفساد حاستي الذوق والشم.

تؤسس اندية الإنتحار في كل مدينة وإلى جانبها تقام أندية التذابح أي قتل الأعضاء بعضهم بعضاً عن إتفاق وتراضي.

وتفسد العلاقة الجنسية (بين الذكور والإناث) فساداً يستدعي تغيير

النواميس المشروعة والعادات المألوفة ملاءمة للحالة المستمدة فترى المخنثين الذين يصبحون يومئذ السواد الأعظم من الناس، ويلبسون أزياء نسائية لوناً وتفصيلا، أما النساء فلا يستطعن إذ ذاك إرضاء الرجال إلا إذا لبسن أزياء رجالية، احذية طويلة غليظة بهاميز ونظارات على عيونهن وعصى وسياط في أيديهن وسيجار طويل في أفواههن وتشرع القوانين القاضية بتزويج الرجل بالرجل وإباحة مواطأة الأخوات والأمهات ومواطأة الحيوانات والموتى وكذلك يصبح العفاف والتقى من خرافات الماضي ويعد الشغف بسفك الدماء مرضاً بسيطاً ويشتد ضعف العقل.

وينسلخ الناس من الأديان المعروفة ويتكون عدد عظيم من الشيع الروحانية والسحرة. وتشتد مبالغة الشعراء والمصورين في تعمية اغراضهم وإخفاء مقاصدهم واستعمال الرموز الغامضة والكنايات المبهمة بدلا من الجمل الواضحة والعبارات الصريحة.

ونرى العالم المتدن قد استحال إلى باحة مكتظة بالمرضى يملأون الجو بعويلهم المؤلم ويتلوون متأثرين بجميع صنوف الأوجاع.

هذا المرض الأدبي قد أصبح واضحاً في جميع مظاهر العقل البشري اليوم فنجده في الآداب والفنون وفي الفلسفة والعلم وفي السياسة والاقتصاد وقد ظهرت بوادر هذا القلق الأدبي في الآداب في اخريات القرن الثامن عشر ونشرتها بين الناس بينما كانت الطبقة منغمسة في الملاذ ومعتبرة الحياة مجالا للشهوات وكانت الطبقة الثرية في حياتها.

ولقد وقفت طويلا حيال الأدب لأنه هو المظهر الأكبر تنوعاً والأكمل تصويراً لعقليات الأمم في كل عهد من العهود، وليس معنى هذا أن جميع مظاهر الفكر الإنساني في هذا العصر لما تتأثر بأعراض هذا المرض العضال فإننا نشهد دائماً وفي كل مكان آثار القلق والمرارة وعدم الارتياح ظاهرة عند بعض الناس بمظهر الألم والغضب اما في الفلسفة فقد ساد مذهب التشاؤم كما يسود شكل من أشكال الأزياء فبلغ مذهب شيخ المتشائمين شوبنهور وتلميذه هارتمان أوْج الرواج وقد ظهر هذا المرض في مجال الاقتصاد بمظهر آخر،

ولكن ليس بأقل تميزاً عن سواه، فمن العبث أن نبحث عند المثري عن عاطفة الارتياح والإطمئنان وعن الفقير عن خصلتي الصبر والإحتمال إن الإنسانية المتمدنة لترتكب في جملتها ما يرتكبه الفرد حين يحاول نسيان مؤلماته بالخمر فهو يريد ان يهرب من الواقع إلى الأوهام، هذا الفساد للفطرة الإنسانية، هذا الهرب الوقتي من وجه الواقع، نتيجتها الطبيعية الخروج منها بترك الحياة نهائياً فإن عدد المنتحرين يزداد يوماً بعد يوم على نسبة ما يستهلك من الخمر ومن المواد المخدرة الأخرى في كل مكان ويشكو الناس اليوم من ضياع الأخلاق فهل يسمح الإلحاد بها وقد أزال الإيمان من القلوب وأزال معه المبادىء الصالحة والإلحاد نفسه قد أصبح مرضاً شائعاً ليس في حقيقته إلا وجهاً من وجوه عدم الارتياح في كل ما هو موجود فالقول بأن كل شيء باطل وبأن ليس في الوجود شيء جدير بالطلب ولا بالمحاولة، هذا القول لا يكون له سلطان على النفس إلا إذا كان صاحبها يحتقر كل شيء ويعتبره ناقصاً. ولقد كانت الإنسانية في قديم الزمان تشكو مما هي فيه من القلق وعدم الارتياح ولكن الذي منعها أن تثور ثورتها أنها كانت تشهد من إيمانها تعزية وسلاماً يجعلانها تحتمل جميع المصائب وهي مطمئنة مستبشرة فإن الذي ينتظر سعادة أخروية يسهل عليه أن يصبر على شر وقتي بل ويخف وقعه عليه، فمن أي العوامل نشأت للإنسانية هذه الحالة النفسية التي لا تحتمل، إنها نشأت من السبب الذي كان يوحي إلى الرومانيين المتعلمين كراهية الاستمرار على حياة ليس لها معنى وكانت هذه الحياة تصفهم بأنهم لا يستطيعون التخلص منها إلا بقتل أنفسهم. ذلك ان التناقض من اعمالنا الاجتماعية وعقائدنا العلمية يحدث في نفوسنا أسوأ الآثار وأشأمها فمثلنا فيها كمثل الممثل الهزلي يضحك الناس بما يعمل وهو في كمد ومرارة.

ويقول الأستاذ علي أدهم أن ماكس نوردو يرى أن المخطئين ليسوا هم المجرمين والعاهرات والفوضويين والمجانين المسلم بجنونهم وإنما هم في الغالب المؤلفون والفنانون، المسألة إذن مسألة انحطاط عام ينذر بالاضمحلال والسقوط، وإن أوضح مظاهر هذا الانحطاط واضحة ملموسة في الأدب والفن وسائر الآثار الفكرية وقد حمل الكتاب حملات شعواء على ممثلي الثقافة

الأوروبية في مثل تولستوى وابسن ونيتشه ومترلنك وزولا وغيرهم.

قـد رد عليه مستر جود الكاتب الانجليزي، الذي رأى ان عنصر الانحطاط هو الإفراط في الذاتية وهو النظر إلى المعلوم من ناحية الذات ويسميه جود إسماً مبتكراً غريباً هو: إسقاط الشيء أو إسقاط الموضوع، اي إهمال عالم القيم كما يجب ان يسميه جود: عالم القيم الذي يشمل فيه الحق والخير والجمال وأن الإسراف في الذاتية مدعاة إلى الشك في عالم القيم بل مدرجة إلى إنكاره إنكاراً تاماً ومتى أنكرنا عالم القيم اختلت موازيننا واصبحنا في ليل من الشك وأن أزمة الغرور والاستعلاء هي عنصر الإنحطاط الكامن الموجود بالفعل وان سمعة الإنحطاط إذن هي خطأ الإنسان في فهم حقيقة مكانته في الكون وإقامة مستقبله على دعائم هذا الخطأ ومصدر هذا الخطأ هو إنكار الانسان عالم القيم وتأبيه عليه وإسقاطه ثم ينشأ الاعتقاد بأن القوانين الأدبية والاخلاقية ليس لها وجود موضوعي ولا قيمة ذاتية وان المثل الأعلى والواجب والحق وما إلى ذلك إنما هي خرافات لفقها الإنسان ووشاها، وأن الأوقات التي يطغي فيها الشك على القيم هي أوقات الرخاء المادي العظيم والتقدم النفسي والصناعي وهي تعد أوقات التقدم والرقي وتقترن عادة بالحضارة التي تزدهر في المدن الكبرى الكثيرة السكان.

ومن سمات هذا النجاح الدنيوي أنه يغري الإنسان بأن يظن أنه لا يمتنع عليه شيء ويشعره بأنه سيد نفسه والمتصرف في مصيره ويوهم أن المستقبل له ففي وسعه أن يصنع كل شيء ويحقق كل غاية ومن ثم يتقلص الاعتقاد بنظام آخر اسمى من النظام الطبيعي ويبطل الاعتقاد بأن حياة الإنسان خاضعة لهذا النظام المتسامي على النظام الطبيعي، في ظل هذا التطور الحضاري تصبح النفس محور الاهتمام ومقياس النعيم ويصبح تلبية مطالبها والاستجابة لندائها غاية الغايات.

وأن انتصار العلم يزين له انكار وجود أي عالم آخر لا تسري فيه احكامه ولا يخضع لقوانينه ومن ثم ينشأ الاعتقاد بأن القوانين الأدبية والقواعد الأخلاقية ليس لها وجود موضوعي ولا قيمة ذاتية وان المثل الأعلى والواجب والحق وما إلى ذلك: انما هي خرافات لفقها لتصفو له الحياة.

ويرى جود ان مثل هذه الإتجاهات مخالفة للحقيقة، وأنها قائمة على فهم خاطىء بطبائع الأشياء وقد تلبث حينا من الزمان ويطول عهدها لكنها لا تدوم لأن مركز الإنسان في الوجود على خلاف ما تصوره هذه النظريات ويتبعها عصر الإنحطاط فتزول الثقة ويسود الشك وتعمّ الفوضى وتختل المعايير وتضطرب الموازين ويواجه الإنسان الحقيقة الزائفة أياً كان الإسم الذي يخلعه عليها سواء قال إنها الله أو القدر أو المصير أو القانون الأدبي ويدرك انها هي القوة التي كان على الدوام خاضعاً لها منجذباً نحوها. ولما كان تمادي الإنسان في الغرور وإمعانه في الاستعلاء وتجاوزه حده وتعديه طوره هو الذي أفضى إلى هذا الموقف، لذلك تبدو له هذه الحقيقة كالحة عابسة ناقمة عليه وكان اليونانيون يقولون في مثل هذه المواقف: إن الآلهة غضبى ويستأنف الصراع بين الآلهة والجبابرة وتنتصر الآلهة في النهاية ويبوء الإنسان المتطاول بالخسران، وكانت هذه الفكرة مسيطرة على كتاب الدراما اليونانية وعندهم أن كبرياء الإنسان وغروره وتعاليه وتوهمه انه سيد الكون ينتهي دائماً بكارثة والكبرياء هو بدء السقوط ونذير الشر.

ويرى جود ان صفة الانحطاط هو السمة التي تميز أمثال تلك العصور في تاريخ الإنسانية، فالإنسان في تلك العصور ينفخ في أنفه الغرور فيختال في الأرض مرحاً ويتجاوز قدره صاعداً ويطغى ويستغني ويسيء إلى الآلهة فتغضب الآلهة وتبيت له الشر فتسقط بعد الارتفاع والتحليق.

وقال جود: إن لا شيء يسد الثغرة التي تفصل قدرتنا عن حكمتنا غير إحياء القيم العليا وذلك بإحياء العقيدة الدينية في النفوس، وإن الحاجة إلى العقيدة الدينية ضرورية لصرف هذا الميل القوي المكبوت الذي ينصرف الآن إلى عبادة الدولة او عبادة الزعيم وإن هذه العبادة ليست إلا مصرفاً للعقيدة الدينية الكامنة في اللاشعور وإنه لا بد من تقدير جديد للقيم الروحية العليا.

الفصل الثالث
سوركن: عصر يغرب

عرض الأستاذ تيرم سوركن (رئيس دائرة علم الاجتماع بجامعة هارفارد) لأزمة الحضارة الغربية في كتاب أسماه (أزمة عصرنا) ويرى سوركن ان كل مظهر من مظاهر الثقافة الغربية تعاني أزمة حادة غير مألوفة. وأن الثقافة الغربية مريضة معتلة سيقمة الجسم والروح وذلك لأنها في فترة انتقال من حال إلى حال، فقد غربت شمس الثقافة الجسمية، فعالم الثقافة الغربية الآن يضرب في الظلام حتى يصدع فجر الثقافة الروحية وتملأ أضواءه الآفاق وفي الظلام المخيم تلم بالإنسان الأحلام المزعجة وتتراءى له الأشباح الرهيبة، ولكن متى طوى الظلام زالت المخاوف وأطمأنت النفوس، ويقول سوركن فيما ترجمه الدكتور أحمد العلي: أن الكثير من المفكرين في مطالع القرن العشرين غيرتهم أحواله، وخدعهم الآمال فاعتقدوا أن عهد الحروب والثورات والانقلابات قد آذن بالزوال وأن التقدم سيضطرد ويتوالي تحسن الأحوال، وبعد الحرب علق الكثيرون الآمال على عصبة الأمم وكانوا ينتظرون زيادة الرخاء واختفاء الحروب وإراقة الدماء والتقدم الاقتصادي والثقافي.

وبمراجعة أحوال العالم عام ١٩٤٠ (والبحث مكتوب بعد الحرب العالمية الثانية) يذهب بعض الخبراء إلى أن الأزمة الراهنة تشبه سائر الأزمات التي استهدفت لها الحضارة الغربية في كل قرن، والكثيرون يرونها نوعاً من الأزمات الاقتصادية أو السياسية الحادة ويحسبون ان جوهر الأزمة هو:

الصراع بين الديمقراطية والشيوعية، أو القومية والأممية أو الصراع بين الحرب والطغيان. أو وجود أشرار مثل هتلر وموسوليني وستالين أو تشرشل ورزوفلت وترومان.

والذين يذهبون هذا المذهب يرون أن علاج الأزمة هو تحسين الأحوال السياسية الدولية والقومية، أو إزالة الأشرار أمثال هتلر وموسوليني وستالين.

وهناك تفسير آخر يسرف في التشاؤم هذا التفسير يذهب إلى أن الثقافة الأوروبية قد شاخت وحان موتها وهي تعاني سكرات الموت وآلام الاحتضار ويقود هذا الرأى (شبنجلر) وعنده ان الثقافة الغربية قد بلغت دور النضج وما بعد النضج سوى الانحطاط والانحلال وانهيار الثقافة والمجتمع. والثقافة الغربية عند هؤلاء المتشائمين هي آخر مراحل التدهور والأزمنة الراهنة هي بداية النهاية.

ولا يقر سوركن هذا الرأى، وعنده أن الرأى المقابل سحابة صيف خاطىء وإن القول بأن هناك أزمة شاملة مستحكمة خاطىء أيضاً، لأن الأزمة ليست أزمة وضع، أو نظام سياسي واقتصادي فاسد، وإنما هي تشمل حياة الغرب من جميع افكارها، فهي أزمة في الفن والعلم والأدب والفلسفة والدين والقانون والاقتصاد والسياسة والاجتماع، وهي أزمة تغلغلت في كل ناحية ومست جميع نواحي الحياة، وهي اليوم تنقض كل ما أبرمته الثقافة التي عاشت وازدهرت خلال أربعة قرون وكل ثقافة من هذه الثقافات.

ويرى سوركن ان كل ثقافة هي جماع تام موحد له طابعه وشخصيته وسماته وملامحه ولها قيمتها الخاصة ومعاييره، ولها ديانتها وفلسفتها وعلمها وفنها وقوانينها وآدابها، فإذا طرأ عليها تغيير شمل هذه النواحي جميعاً.

فالثقافة الغربية في العصور الوسطى كانت فكرة (الاعتقاد بالله) هي الغالبة عليها المستأثرة بها، ففنها المعماري ونحتها وتصويرها كان يعبر عن فكرتها الدينية، وكانت فلسفتها متمشية مع الفكرة الدينية ملائمة لها، وكان علمها خاضعاً لفكرة الله مؤيد لها، دائراً حولها، وكانت اخلاقياتها وقوانينها وآدابها متأثرة بالوصايا المسيحية الأخلاقية وكان نظام الأسرة خاضعاً للنظم الدينية، فالزواج رباط مقدس لا تنفصم عروته وحتى تنظيمها الاقتصادي كان متأثراً بوجهة النظر الدينية، وكانت أساليب الحياة على اختلاف أنواعها ترمي إلى تأكيد الصلة بين (الله) والإنسان وتجعلها اسمى الأهداف وغاية

الغايات ومعقد آمال الانسانية في الخلاص والنجاة.

كانت ثقافة العصور الوسطى ثقافة موحدة ولم تكن خليطاً من الثقافات المختلفة، وكانت تسيطر على الفكرة الدينية وكان (الله) في رأي هذه الثقافة هو الحقيقة الصادقة وما خلافها باطل زائل.

هذه هي الثقافة الروحية (ideutional) أدت هذه الثقافة مهمتها وبلغت رسالتها واستنفذت قوتها فدب إليها الضعف وبدأت تنتابها بوادر الضعف في القرن الثاني عشر الميلادي (السادس الهجري) وبدأت بذور ثقافة جديدة في النمو والاستطالة كانت تختلف عن الثقافة القديمة اختلافاً شديداً. فالحقيقة الكبرى في نظر هذه الحضارة هي (الحس) والعالم المنظور، فما نراه وما نسمعه وما نشمه وما نلمسه وما نتذوقه هو الحقيقي والواقع ولا حقيقة وراء ذلك، وكل ما تجاوز الحس لا قيمة له، فإذا فرض ان وراء الحس شيء فلا قيمة له ولا سبيل إلى إدراكه فكأنه بالقياس إلينا غير موجود، ويمكن إهماله وعدم التعويل عليه. وكان هذا هو المبدأ المنافر المبدأ السابق. وقد تجاوز المبدأ الأول والمبدأ الثاني خلال القرن ١٣، ١٤، فكانت تسود الفكرة القائلة بين الحقيقة النهائية تسمو ناحية منها على الواقع، وناحية اخرى تظل في مستواه، هذا الطراز يسميه سوركن (الثقافة الروحية الحسية) أو الثقافة المختلطة، وهي تمثل الثقافة اليونانية في القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد، ولكن الحركة لم تقف، واستمر الجانب الثقافي الروحي في الانهيار، وألح عليه الضعف في حين ان الجانب الحسي اخذ يقوى ويستحصد حتى تم له الغلبة وخلا الجو. وساد في القرون التالية وبدأ سلطانه العام في القرن السادس عشر وبلغ الذروة في القرن ١٨، ١٩، وقد سمى سوركن هذه الثقافة بالثقافة الحسية الخالصة لأنها تقوم على الاعتقاد بالحس وحده، ولا تؤمن بغير الواقع المحسوس، فهي حسية تجريبية أرضية دنيوية، ويبدو الايمان بالواقع الملموس في كل ناحية من نواحيها: في الفلسفة- الدين، الأخلاق، القانون، الاقتصاد، السياسة.

كان المبدأ الأساسي لثقافة العصور الوسطى قد جعلها متجهة إلى العالم الآخر الذي يتجاوز الحس ويرتفع على الطبيعة، أما المبدأ الأساسي للثقافة

المختلطة قد جعلها تتجه مما وراء الحس وإلى ناحية اخرى: إلى الحس. أما الثقافة الحسية الخالصة فمبدؤها الإيمان بالحس وحده والاستمساك به فطابع الثقافة الغربية الراهنة هو النزعة الحسية المادية الارضية النفعية، هذه النماذج الثلاث للثقافات: الروحي- والروحي الحسي- والحسي الخالص لها نظائرها في ثقافة مصر وبابل والحضارة اليونانية والرومانية وحضارة الهند والصين.

فأزمة الثقافة الراهنة في رأى سوركن سببها انحلال الثقافة الغربية الحسية الخالصة، وقد سادت هذه الثقافة قروناً عدة وفرضت نفسها على كل ناحية من نواحي الحياة فهي حينما يدركها الخلل ويدب فيها التسمم يسري الداء إلى مختلف اجزائها وتشيع الفوضى بنواحيها المختلفة، فليست الأزمة الراهنة ازمة أوضاع وصور وأشكال وإنما هي أزمة انهيار عام وتحلل شامل، فهي ازمة مستحكمة عميقة أشد من سائر الأزمات وفي خلال الثلاثين قرناً الأخيرة لم يحدث في تاريخ الثقافة (اليونانية- الرومانية- الغربية) سوى أربع أزمات من هذا القبيل والأزمة التي يواجهها المجتمع العربي اليوم هي: أزمة انهيار الثقافة الحسية، وستخلفها ثقافة اخرى، ولكن هذا الدور هو دور الاضطراب الذي تنهار فيه الثقافة القديمة البالية وفيه تشتعل الحروب وتستعر الثورات وتشتد الأزمات وكل هذه الحروب والثورات إرهاصات بالثقافة والحياة الجديدة المستقبلة. وهي ليست صراعاً بين الحرية والطغيان، أو بين الشيوعية والرأسمالية، أو بين السلم والحرب، أو بين الأممية والقومية فكل هذه مسائل جانبية صغيرة، أمرها هين، إن هتلر وموسوليني وستالين لم يخلقوا الأزمة وقد يزالون من الطريق ولكن لا تنفرج الأزمة ولا تحل العقدة، بل إن الأزمة ستخلق تشرشل آخر وستالين وهتلر وموسليني وأشباههم.

ويرى سوركن: إن الانتقال من مرحلة ثقافية إلى مرحلة اخرى رغم ما فيه من الآلام والأحداث الجسام لا يستوجب البكاء على الحضارة والاعتقاد بأنه ستدركها الوفاة أو يطيح بها الموت فالثقافة لا تموت فلا لزوم للبكاء.

وإن الانتقال من مرحلة إلى مرحلة ليس معناه نهاية المجتمع ولا موته وإن تشبيهات شبنجلر واتباعه قائمة على مشابهة بيولوجية غير صحيحة ولا أساس

لها ولا دليل عليها وليس هناك ثقافة لا مفر لها من ان تمر بالأدوار الثلاثة، دور الطفولة ودور النضج ودور الشيخوخة التي يتلوها الوفاة.

إن الأزمة الراهنة تكشف لنا عن انحلال الصورة الحسية لثقافة المجتمع الغربي وإن هذا سيتلوه تكوين صورة جديدة للثقافة الغربية، ومثل هذا التغيير امر لا بد منه لتجدد حياة الثقافات.

وجوهر الأزمة الراهنة هو انحلال الثقافة الحسية التي بدأت في أواخر القرن ١٢ وأخذت رويداً رويداً تشكل مكانها ثقافة العصور الوسطى الروحية التي تمت لها السيادة كاملة في مدة اربعة قرون وقد مضى عهدها وذهب بهاؤها.

والأزمة الراهنة أزمة حلول ثقافة اخرى مكان الثقافة الحسية، وهذه انتقالات نادرة لم يقع نظير لها سوى اربع مرات ولكنها حينما تقع تتبعها ثورات عاصفة وأزمات حـازبه وأهل العصر لا يستطيعون دفع القضاء. ولكنهم يستطيعون دراسته ومشاهدته ومعرفة أسبابه وطبيعته ونتائجه وسجلاته.

الفصل الرابع
ألبرت شفايتزر: إنحطاط الحضارة وبعثها

يعرض ألبرت شفايتزر لأزمة الحضارة المعاصرة فيقول: إن الحضارة الأوربية المعاصرة تعاني أعراض التحلل والإنهيار، بدأ هذا التدهور في منتصف القرن التاسع عشر وإن إنحلال الحضارة الأوربية في هذا العصر أشد خطراً وأفدح عاقبة من الإنحلال الذي أصاب الحضارة السابقة لأن الأرض لم يعد لديها إحتياطي من الشعوب الموهوبة التي لم تستخدم بعد والتي يمكنها أن تنهض بنا وتأخذ مكاننا وتحل محلنا في مستقبل بعيد كقادة للحياة الروحية والسبب في أزمة الحضارة: سبب أخلاقي لأن الحضارة تنهار إذا أعوزها العامل الأخلاقي حينا تكون العناصر الخلاقة الأخرى من الحضارة مزدهرة ناشطة.

(ويخطىء شفايتزر في هذا الفهم ويتعصب لجنسه).

وإن إزدهار الحضارة تصحبه دائماً آداب توقير الحياة ونظرة شاملة إلى الكون تبرز هذا الإتجاه الأخلاقي وتعمل على الأخذ به في النظم الإجتماعية وسلوك الأفراد وتفكيرهم وفي الأزمنة التي سادت فيها هذه النقطة إلى الكون مصحوبة بهذا الإتجاه الأخلاقي إزدهرت الحضارة ونمت. كانت أوربا في القرن ١٨ مشبعة بتلك النظرة الكونية الأخلاقية التي تؤكد الحياة وحوالي منتصف القرن ١٩ توقف فجأة هذا الدافع الحيوي وكان السبب في ذلك الإعراض عن إطلاق تأكيد الحياة. وأصبحت وجهة النظر الأخلاقية للكون مسلوبة القوة ولذلك أخذ العالم يتخبط في الظلام الدامس. ومن العوامل التي آزرت الإنحلال وزادت من خطورته: موقف الإنسان الإقتصادي. فإنسان العصر الحاضر مرهق بالعمل وهذا الإرهاق يحول بينه وبين القدرة على التأمل

وحصر الذهن في التفكير ومن ثم بدأ التصور اللاأخلاقي للحضارة ورجحان الجانب المادي على الجانب الروحي وزيادة التقدم في المعرفة التي لا تقيم وزناً للنوازع الأخلاقية.

وتقوم دعوة شفايتزر إلى وضع أساس أخلاقي فلسفي للحضارة ويرى أن مشكلة الحضارة مشكلة أخلاقية وأن الإنسان لن تكون له قيمة حقيقية بوصفه شخصية إنسانية إلا من خلال كفاحه ليكون ذا خلق وخلال حسنة وأنه إذا أعوز الأساس الأخلاقي تداعت الحضارة.

ثانياً: إن شأن أوربا في التوسع والترف على حساب الشعوب الأخرى شأن كل إمرىء كفر بالتعاون الإنساني ونفى من حسابه قيمة الفرح والأنس وأكب على القوة وحدها، وإن أوربا فقدت كل شعور بالسعادة ودب إلى كيانها القلق الذي يدب إلى كيان المجرم أياً كانت القوة التي تحميه أو يحتمي بها. وعن هذا القلق تحدرت سائر المفاسد الأخلاقية والإجتماعية وتوزعت الحضارة الأوربية شتى العثارات التي أوصلتها إلى الإنحطاط فأين الدواء. والدواء كما يراه شفاتيرز في الأخلاق التي تفرضها على الفرد والجماعة، سعادة الأفراد والشعوب من غير تمييز أو محاباه أو تفرقة.

ثالثاً: إن تقدمها المادي أكبر بكثير جداً من تقدمها الروحي، لقد إختل توازنها فالإكتشافات التي جعلت قوى الطبيعة تحت تصرفنا على نحو لم يسبق له مثيل قد أحدثت ثورة في العلاقات بين الأفراد بعضهم وبعض وبين الجماعات والدول وأثرت معارفنا وإزدادت قواتنا إلى حد لم يكن في وسع أحد أن يتخيله، نحن نعاني في تقدير إنجازاتها المادية، ولا نقدر أهمية العنصر الروحي في الحياة حق قدره، إن الحضارة التي لا تنمو فيها إلا النواحي المادية دون أن يواكب ذلك نمو متكافىء في ميدان الروح هي أشبه ما يكون بسفينة إختلت قيادتها ومضت بسرعة متزايدة نحو الكارثة التي ستقضي عليها، ذلك أن الطابع الجوهري للحضارة لا يتحدد بإنجازاتها المادية بل بإحتفاظ الإفراد بالمثل العليا لكمال الإنسان وتحسين الأحوال المادية والسياسية للشعوب وللإنسانية في مجموعها، وليس العنصر الحاسم في تقويم

الحضارة ما أنجزته من أعمال مادية بل يتوقف مصيرها على كون الفكر يسيطر على الأحداث أو لا يسيطر. والأمر في هذا شبيه بما يحدث في السفر، فإن نتيجة الرحلة لا تتوقف على كون السفينة كانت أسرع أو أبطأ قليلاً بل على كونها تسير في الإتجاه الصحيح وإن قيادتها في يد أمينة.

رابعاً: الحضارة هي التقدم الروحي والمادي للأفراد والمجموع على حد سواء وهي ثنائية في طبيعتها إذ أنها تحقق ذاتها أولاً في سيادة العقل على قوى الطبيعة، وثانياً في سيادته على نوازع الإنسان فالقوي الطبيعية التي تسخرها لخدمتنا ممثلة في الآلة يمكن أن تكون شراً على الإنسانية حين تغدو في يد الأفراد والشعوب قوة مدمرة ما لم يسد العقل.

خامساً: التقدم الأخلاقي هو جوهر الحضارة حيث تتجه الإرادة الإنسانية نحو الخير المادي والروحي للأفراد والمجاميع التي تضم هؤلاء الأفراد أو الخير للجزء والكل بمعنى أن تكون أعمالهم أخلاقية، أما التقدم المادي فلا يعد الجوهر الخالص إذ يحتمل الشر والخير على السواء.

سادساً: تقوم الحضارة على مثل عليا أربعة:

(١) المثل الأعلى للفرد (٢) المثل الأعلى لتنظيم الأساس الإجتماعي (٣) المثل الأعلى للتنظيم الروحي والديني للمجتمع. (٤) المثل الأعلى للإنسانية: بوصفها كلا واحدة ومع هذه المثل العليا يتسق الفكر مع التقدم.

وإن تقدم المعرفة حين يتيح لنا السيطرة على الطبيعة وتسخيرها لخدمتنا فإننا في نفس الوقت لا يصح لنا أن نسلك في الحياة سلوكاً غير طبيعي مليء بالرزايا والأخطار وما إنهيار الحضارة إلا أننا نجفو ونتجاهل المثل الأخلاقية والروحية التي تستند إلى العقل.

سابعاً: سيطرت الآله على حياة الكثير منا وغدونا عبيداً لها تتحكم فينا وأصبحت حياتنا ضيقة مرهقة، ولم تعد لنا فسحة من الوقت للتأمل والإستقراء الذهني وأصبحنا جميعاً بصورة متفاوتة في خطر من أن تستحيل إلى صورة إنسانية بدلاً من كائنات لها شخصيتها الذاتية وبهذا أصاب الأذى المادي والروحي وجودنا الإنساني وشغلتنا معركة العيش عن التفكير في المثل

العليا للحضارة ونشأ تصور ضال للحضارة. والمعنى الحقيقي للحضارة أن تظل إنسانية وأن نحتفظ بذخيرة حياتنا الروحية مع ظروف مدنيتنا المادية الحديثة.

ثامناً: إن العناصر الجمالية والتاريخية وعمق المعرفة وإتساعها لا يكون جوهر الحضارة فإن هذه العناصر لا تسفر عن آثارها الحقيقية في نموها وإكتمالها ما لم يستند في بقائها ونموها إلى إستعداد نفسي أخلاقي، ذلك أن الإنسان ليس قيمة حقيقية بوصفه شخصية إنسانية إلا عن طريق كفاحه ليكون على خلق وخلال حميدة.

تاسعاً: إن تقدم الفيزياء والكيمياء والميكانيك وعلم النفس وعلم الحياة لم يقدم البشرية خطوة واحدة نحو الفضيلة ولم يعصم المجتمع من الرذائل والموبقات والآفات الخلقية بل فتح العلم سبيل الشر في مجال التدمير والحرب في مجال التحلل من موجبات الدين.

حادي عشر: إن الإنسان ليس مادياً إلى الدرجة التي يدعيها بعض الغافلين المتشائمين فقد وجدت بعد حياة زاخرة بالتجارب شهدت آلام البشرئة، أن الإنسان يتلهف لبلوغ المثل العليا بإرادته ولو أنه على الأغلب لا يظهر هذا اللهف الذي يضطرم في أعماقه ومثل هذه الرغبة عن الإنسان المعاصر في نظر شفاتيرز كمثل المياه الجارفة تحت سطح الأرض، وعنده أن البشرية تتطلع نحو من يستطيع إظهار الخفي في الأعماق والكشف عن التيارات المتضاربة في الزوايا المظلمة في النفس البشرية.

الفصل الخامس
توينبي: إنقاذ الحضارة

في كتابه: (الحضارة والغرب) و(الحضارة في محنة) يؤكد المؤرخ أرنولد توينبي: أن الحضارة الغربية الآن في طور من الإنحلال والتدهور الذي مرت به الإمبراطورية الرومانية من قبل ولذلك فإن فنون الصناعة والإقتصاد وغيرهما من المعارف علوماً غير كافية لتوفير الإستقرار وعنده أنه يظهر في المجتمع المتحلل نموذجان من البشر لهما نفسيتان مختلفتان تمثلان شخصيتي المتهتك والزاهد، وكلاهما تفشل في تدارك إنهيار الأمة فالمتهتك يكون سلوكه الشخصي شهوانياً حاقداً، أما سلوكه الإجتماعي فيتميز بالشرود والتشبث تجاه الخلافات المطروحة أمامه، كما يدفعه اليأس ويجعله يشعر بأنه في حل من واجبه فيتخلى عن قضايا أمته ليبحث عن خلاصة الشخصي، إن نفسية الشارد فتشعر بأن القضية التي يستخدمها هي النصيحة التي يستوجبها. أما الزهد فإنه يقوم بمحاولة إيمانية يستعيض بها عن ملكة الإبداع فيبتغي تنظيم شهواته والحد من غرائزه.

ثانياً: ما دامت الأمة متماسكة والحضارة نامية فارن عناصر الأمة تعمل بإنسجام، أما إذا فقدت الأقلية المبدعة موهبتها في القيادة والإقدام فإن الأمور تذهب إلى الإنهيار.

ثالثاً: إنهيار الحضارة يقع عن تفريط المجتمع في حق نفسه لصدوفه عن توجيه إرادته صوب عمل نافع وليس هناك ما يمنع حضارتنا الغربية من إتباع السوابق التاريخية إن شاءت لترتكب بذلك جريمة الإنتحار الإجتماعي غير أنه ليس مقدراً علينا أن نجعل التاريخ يعيد نفسه.

رابعاً: إن الحضارة الغربية تواجه ظاهرة إنكماش رقعتها، ففي روسيا

والصين يعيش الآن ما يقرب من ٨٠٠ مليون نسمة بعيدين عن قيم الحضارة الغربية بل يناصبونها العداء وفي بقية آسيا عدد مماثل إستطاع أن يصنع نهاية للحكم الغربي ويحصل على إستقلاله (٢٠٠ مليون خرجوا من نير الإستعمال الغربي) وترجع الأخطار التي تواجهها الحضارة الغربية إلى: خطر يجيء من ضعف داخلي مشابه للخطر الذي تعرضت له الحضارة الهلينية في القرن الخامس قبل الميلاد ونعني به تمزق وحدة أوربا والخطر الثاني يكمن في تحول الشعوب خارج أوربا ضد الحضارة الغربية والخطر الثالث: هو النظام الشيوعي داخل وخارج أوربا.

خامساً: إن الحضارة الروسية الحديثة هي جزء من الحضارة الغربية وإحتجاج عليها في ذات الوقت، إنها محاولة من ألمانيين هما ماركس وإنجلز أمضيا حياتهما في لندن وروشستر لكي يجدا للحضارة الغربية معنى ولولا كون الشيوعية نباتاً غريباً لما تبنتها روسيا التي كانت تحاول أن تلحق بالغرب بإستعمال نفس أسلحته منذ عهد بطرس الأكبر ولكن هل الشيوعية هي طريق الخلاص للحضارة الغربية، لا، إن الشيوعية مرحلة وليست خاتمة. والخلاص هو العودة إلى الدين.

سادساً: إن الحضارة تنهار بطريق الإنتحار لا بطريق القتل، وتتلخص طبيعة إنهيار الحضارات في ثلاث مسائل (١) إخفاق القوة في الأقلية التي تنزل من المجتمع منزلة الرأس من الجسد (٢) تسرب الشك إلى نفوس الأكثر الغالبة في قدرة الأقلية المتزعمة وإمساكها عن التشبه بها والضرب على قالبها (٣) وينشأ عن ذلك فقدان الوحدة الإجتماعية وهي السبب الثالث.

ويمر دور الإنحطاط في ثلاث مراحل (١) مرحلة التصدع التي تصيب الحضارة (٢) مرحلة تفكك روابط الحضارة (٣) مرحلة الإنحلال. وقد يطول الأمد، والحضارة الغربية في رأي توينبي قد ظهرت عليها علامات التصدع وأعراض التفكك ولكن ذلك لا يقطع بقرب زوالها ويفسح الأمل لحدوث المعجزة التي تجنبها هاوية السقوط وتجدد في حياتها وتمد في عمرها.

ويكون أهم ما يحدث للحضارة بديلاً من السقوط والزوال هو التحجر أو

الحياة في الموت ويمكن أن يستمر ذلك قروناً أو آلاف السنين.

سابعاً: في دور إنحلال الحضارة يدب الفساد في أرواح الناس ويطرأ على سلوكهم ومشاعرهم وحياتهم كلها تغيير جذري، ويحل محل الصفات الباهرة والقوي المبدعة التي كانت تذخر بها ذواتهم في دور النمو الحضاري ثنائية من النزعات والمواقف العقيمة المتناقضة. ثنائية في الشعور بالجبرية المحتومة وإيمان بالقدرية الناقصة في هذا الدور يتعرى الفساد الروحي أيضاً عن فوضوية تعم الأخلاق والعادات وإنحطاط يسود الآداب والفنون والثقافات ومحاولات عقيمة للتوفيق بين الديانات المختلفة والفلسفات المختلفة وللجمع بين الدين والفلسفة بصورة عامة وتسعى الأقلية المسيطرة في حالات معينة إلى أن تفرض بالقوة على رعاياها فلسفة خاصة أو دينا مختاراً ولكنها تخفق في محاولتها.

ثامناً: لقد حسب هيجل أزمة العالم سياسية فحاول حلها بالدعوة إلى تحقيق الدولة المثلى، وإعتقد ماركس أنها أزمة إقتصادية فحاول حلها بالدعوة إلى تحقيق النظام الإشتراكي أما توينبي فيرى أن الأزمة ليست سياسية ولا إقتصادية وأن هيجل وماركس يخلطان بين الأعراض والجواهر، وبين الوسائل والغايات والأزمة في نظر توينبي: أزمة روحية والإنسان بما هو فعل وحرية مسئولة وإيمان ومحبة وبما هو جوهر إنسانيته: تلك الطاقة الروحية القادرة أن تولد وأن تسخر بالتالي جميع ما ينبثق عنها من النشاطات العقلية والمادية في سبيل تحقيق الغاية المثلى من وجودها، هو المسئول وهو المستطيع أن ينتصر على الأزمة وأن يخرج منها أقوى وأكمل ولذلك يلح توينبي على الجانب الروحي ولكنه مع الأسف يفهم هذا الجانب في حدود عقيدته المسيحية المثلثة فلا يستطيع أن يصل إلى وجه الحق في معرفة طريق الله الحق.

تاسعاً: يرى توينبي أن المادية التاريخية التي دعا إليها ماركس هي بدعة المادية تقهقرت إليها المسيحية على يد ماركس نبي الشيوعية الفاشل، وهي حركة ثورية هدامة لا تصلح بمجموع قيمها لإقامة فلسفة حياة للإنسان الحر المتكامل في كيان المجتمعات الحرة المتكاملة. ويعتبر توينبي الفاشية والنازية اللتين قامتا على أساس فلسفة هيجل والشيوعية التي قامت على المبادىء الماركسية طائفة واحدة.

عاشراً: إن الحضارة الغربية المتدهورة لا يمكن إنقاذها إلا بالدين، ذلك أنها مصابة بالخواء الروحي الذي يحول الإنسان إلى قزم مشوه يفتقد عناصر وجودهالإنساني ويعيش الحد الأدنى من حياته، هو حد وجوده المادي فحسب، بما يصيبه بأمراض السأم والروتينية وفقدان الهدف في كل ما يأتي به ويحول حياته إلى جحيم مشوب بالقلق والحيرة الذهنية والتمزق النفسي، خواء روحي، يحول المجتمع إلى قطيع يركض بلا هدف كما تركض القطعان دونما تفحص لمعنى مسيرته الهوجاء كما يضطر المدركين أحياناً إلى إعلان إنشقاقهم عليه (لا إنتمائهم إليه) وبذل جهود حياة من أجل الوصول إلى النظام والهدف اللذين يخلصانهم من المأساة. إننا لا نستطيع أن نعود إلى دين الكنيسة الساذج كما كان في العصور الوسطى وبالرغم من أن العقيلة زادت من أهمية الإنسان إلا أنها خلقت مشاكل معينة باتت تهدد بتدمير حضارتنا ويؤكد توينبي أن المخلص هو الدين؛ ولكن أي دين؟

حادي عشر: لم تعن الحضارة مطلقاً بالإنسان وحضارته من حيث تكامل وجودية بشقيه الروحي والمادي، بل أكدت على روحانيته فحسب بما يجعلها تغفل كل العناصر المادية (التكنولوجية) التي صنعتها الحضارة الإنسانية والتي يؤدي إغفالها إلى التنازل عن إحدى إنتصارات الإنسان.

ثاني عشر: نحن البشر بكل تقدمنا العقلي وقدراتنا الفنية نبدو وكأننا قد ورثنا نفس العناصر الحيوانية والآلية التي كان يملكها أجدادنا البدائيون دون أن يطرأ عليها أي تغيير مذكور، فلم تستطع القوة الآلية للعلم بكل ما أتت به من أعاجيب أن تقضي على شهواتنا الحيوانية وتمكننا عن طريق الكهرباء والقوة الإشعاعية أن نخترق الأركان المظلمة للطبيعة المحيطة بنا ولكن الظلام ما زال يخيم على كياننا الداخلي فنحن نتحكم في قوى الطبيعة ولكن طبيعتنا الحيوانية تتحكم فينا.

ثالث عشر: إنهيار الحضارة يقع عن تفريط المجتمع في حق نفسه لصدوفه عن توجيه إرادته صوب عمل نافع، ويتمثل هذا التفريط في ترديه في التعلق بنوع من الوثنية أقام نفسه لنفسه ويطبق توينبي هذا الرأي على المجتمع الغربي

فيجده قد سلك مسلك الإنسان الضال العاكف على عبادة بضعة أوثان من بينها وثن سادت عبادته الأوثان الأخرى وهو (وثن الدولة الإقليمية) ويعتبر توينبي ظاهرة تقديس الدولة الإقليمية إلى حد العبادة بمثابة نذير رهيب للغرب (١) إن هذا التعلق الوثني بالدولة الاقليمية هو العقيدة الدينية الحقيقية للغالبية العظمى من سكان العالم المصطبغ بالصبغة الغربية (٢) إن هذه العقيدة الباطلة هي السبب في إنقضاء أجل ما لا يقل عن الأربع عشر حضارة من الحضارات ال ٢١ وما برحت الحرب التي يقتل فيها الأخ أخاه ويشتد فيها إستعمال العنف هي نتيجة التعلق بالدولة الإقليمية التي هي إلى أبعد حد أكثر عوامل الفناء شيوعاً ويرى توينبي أن أزمة المجتمع الغربي روحانية وليست مادية، إذ رغماً من بلوغ هذا المجتمع الذروة في تقدمه المادي إلا أنه يحس بجوع روحاني وإذا كانت النفوس الغربية قد إستبد بها قلق الفراغ الروحي فألزمها بفتح الباب لشياطين مثل النازية والفاشية وما إليها فإلى متى تحتمل العيش بدون عقيدة دينية.

لقد إستبدلوا الكنائس الطائفية بالدولة الإقليمية.

لقد أصبح إستخدام إصطلاح الديمقراطية مجرد شعار من الدخان لإخفاء الصراع الحقيقي بين مبدأي الحرية والمساواة، وما برح الإخاء بعيداً عن متناول البشر بسبب التعصب الديني والقومي.

وإن الإنسان المتأثر بالحضارة الغربية قد إستجلب على نفسه الكوارث بتكريسه جهوده لزيادة رخائه المادي وحده.

رابع عشر: هذه الحضارة الغربية تعاني اليوم أحدَّ الأزمات، فهي حضارة علمانية لاحقة بالمسيحية تعيش في بقايا مختلفة من المبادىء المسيحية المشوهة وهي فوق ذلك مأخوذة ببدعة تقديس الفرد منصهرة في أنظمة الدول الفاشية والنازية والشيوعية والقومية الإقليمية وغيرها من النظم السياسية المحكومة براسب مرضى من عددي النزعات القبلية الجماعية الفاسدة. وقد إستطاعت الحضارة الغربية أن تلغي الأبعاد وتخترع القنبلة الذرية أو الإنتهاء إلى مصير آخر هو إنتحار الجنس البشري بأسره.

الفصل السادس
هارولد لاسكي، هكسلي، ليوبولد فايس، كولن ولسون

عرض عدد كبير من الفلاسفة والمفكرين الغربيين للحضارة الغربية وكشف كل منهم جانباً من جوانب فسادها وقد أجمع هؤلاء الكتاب على إنهيارها ودخولها في مرحلة المحاق وإن إختلفوا في محاولة إنقاذها أو تبرير وجودها.

١ - يصور هارولد لاسكي وجهة نظره في أزمة الحضارة الغربية فيقول:

عالم اليوم يعاني الشعور العميق بخيبة الأمل، أن جيلنا فقد قيمه، لقد حل الشك السافر محل اليقين، واليأس محل الأمن، ويبدو أن الإتجاهات الحديثة في الفن والأدب والموسيقى لا تعترف بالتراث الذي قدمته، أن الحرب قد سددت ضربتها القاضية للمعتقدات الدينية التي كانت مقياساً دائماً للسلوك، أن منهج الغرب في الحياة قد وضع في بوتقة الإنصهار، في مقدور هذا العالم أن يتيح الرفاهيـة الماديـة ولكنـه يبـدو عاجزاً عن إكتشاف مبـادىء الرضا الروحي.ومنذ قرن مضى كان في مقدور الدين أن يتيح لكثيرين الأمل في تقويض ما نالهم من الحياة وذلك في الحياة الأخرى، أما الآن فقد أطفأ العلم أنوار السماء ولا طريق للخلاص إلا في ظل الحاضر العاجل «ومنذ قرن مضى رأى الناس بارقة أمل في الطاقة الصناعية الجديدة، والآن وبالرغم من مزاياها الهائلة يتضح أن الطاقة المادية التي تستطيع أن تشكل الطبيعة لخدمة أغراضنا لن يصبح لها أي معنى».

وقد إلتمست في بعض المذاهب الشاملة الكاملة شيئاً يكون ديناً أو كالدين ولم تستطع القومية أو الديمقراطية أو الفاشية أو الماركسية أن تسد في قرن أو قرنين مسد الدين الذي أشبع القلوب والعقول من قرون وقرون وعالجت الحضارة الغربية بعض أزماتها في ميدان علم النفس، تحاول أن تسد الثغرة

الروحية في بناء الحضارة المادية، بعلم يسير على مناهج العلوم التجريبية المادية، ونجح علم النفس حين تواضع، وأخفق حين حاول أن ينشد فلسفة نفسية كاملة أو ديناً جديداً وحسبت الحضارة الغربية أنها عثرت على الضالة المنشودة في إلهامات الفنون، وإنطلقت الأرواح الهائمة تعربد في الواقعية والسريالية وما إليها، ولكن هذا التجسد في هنا وهناك لم يطمس حكمة تولستوى الهادية حين يقول: الأديان تقدم أسمى ما يمكن أن يصل إليه الإنسان في فهم الحياة في أي عصر من العصور وفي أي مجتمع من المجتمعات ولذلك كانت الأديان على الدوام تقدير العواطف الإنسانية،لقد إتجه الفن إلى طلب المنفعة في أوربا لضعف العقيدة الدينية الذي غلب على الأوربيين. وبدأ منذ عهد إحياء العلوم، هذا الإتجاه، حرم الفن من الموضوعات الدينية العميقة، وجعله ينزع إلى العمل على إرضاء فئة قليلة من الناس هي الطبقة الأرستقراطية، وقد فقد الفن من جراء ذلك جمال الصور وغلب عليه الغموض والتكلف وكان لإغراضه عن تصوير العواطف المنبثقة من الإدراك الحسي الديني يتجه إلى طلب المتّعة، والإدراك الديني يتجدد كلما تجددت علاقتنا بالعالم من حولنا وهو لذلك يقدم للفن مشاعر طريفة ترجح المشاعر المنبثقة عن حب المتعة المحدودة القديمة ويقول لاسكي: لقد فقدت الحضارة ثقتها في نفسها وإيمانها العميق بحيوية القيم الثقافية السائدة، وعجزت عن تحقيق ذلك الوفاق المنشود بين عالم المثل الأعلى الممثل في كتابات الإنسانيين وبين حقائق هذا الواقع الحافل بأهوائه وأطماعه وخصوماته. كان ومصدر ذلك هو التعصب لنظرية تفوق الجنس الأوربي على غيره من الأجناس الأفريقية والآسيوية، وهذا بدوره أجج شعلة الوطنية في قلوب أبنائها، وكذلك إستفحال النظام الرأسمالي الذي سخر سلطات التشريع والسياسة لخدمة مصالحة دون إحتضان برامج الإصلاح الإجتماعي.

وقبل الحرب الأولى كان مذهب بسمارك: مذهب الدم والحديد هو ذات المذهب الميكافيلي القديم القائم على نظرية الغابة تبرر الواسطة وبعد الحرب كان نتيجة للتعصب الإمبريالي بسائر نظرياته وفلسفاته وظهور تعصب مذهبي جديد كان أقسى تطرف: وهي الشيوعية والفاشية والنازية مع التعصب

المذهبي المصطبغ بصبغة قومية مسرفة، وإنقسم العالم إلى معسكرين خصيمين: ديكتاتوري وديمقراطي وإن كانت أوربا قد تخلصت من وصمة التعصب المذهبي في نطاق الدين فإنها لا تزال تتخبط في حمأة التعصب المذهبي في نطاق الإقتصاد والسياسة.

واليوم تمر الحضارة بمحنةٍ من الشك والخوف والإلحاد وتميع المعايير الثقافية والقيم الأخلاقية بصورة تنذر بشر مستطير في حياة الفرد وحياة الجماعة- إن أول سمة من سمات هذا العصر هو الشك والقلق.

ثانياً: ألدوس هكسلي: يقرر أن العالم يسير نحو الهاوية وإن العالم الآن يشبه قبيلة تعبد الشيطان وتعيش في ظل قوانين جديدة قائمة على الشر والحقد والمادية البحتة التي تجرد الإنسان من كل مشاعر الإنسان بلا حب ولا تعاطف وأنها تتبادل الإتصال الجنسي على نحو ما تفعل السائمة، ويرى أن العالم يمارس الحياة بطريقة غريزية لا تقوم على منطق أو تفكير، وعنده أن المجتمع قد تحلل من قيود الزواج ولم يعترف بالأمومة وكل شيء عنده تصنعه الآلات وهو يستهلك مائة سنة في خمسين بالعقاقير والإجهاد العصبي والخروج على الطبيعة وخاصة حين يكبت إنفعالاته الحقيقية ويتظاهر بالكذب والنفاق.

ويقول: إذا لم يكن لدينا من أمل في تهذيب حالات أكبر مجموع من السلالة البشرية وإذا صح أن تقدم العلم والمعرفة وإزدياد سلطة البشر على الطبيعة الذي يستوجبه تزايد المعلومات وإستجماع الثروات التي يستغلها الإنسان في تسوده على قوى الكون لا يحدث فرقاً في مطالب الإنسان وحاجاته العظمى مع ما هو مقترن بذلك من الإضمحلال التكويني والسقوط الأدبي فإني أرحب بمذنب عظيم يكتسح من صفحة العالم ذلك الأمر كله.

إن أزمة الإنسان متعددة الجوانب فهي أزمة ناجمة عن المفاهيم الخاطئة والوعي الناقص فلا بد من السعي إلى تطهير فكر الإنسان مما فيه من مفاهيم خاطئة وهذه الأصنام الجديدة التي رفعتها الحضارة الحديثة حين جعلت من الوطنية أو القومية أو الشعب أو الجماهير أو العقل أو العلم أو الإنسان أي من أجزاء ناقصة من الوجود آلهة عبدتها من دون الله.

(٣) ويقول ليوبو لدفايس (محمد أسد).

أليست النصرانية، المفروض فيها أن تكون الهيكل الروحي للمدنية الغربية، عقيدة مبنية على الأخلاق المطلقة، كما هي الحال في الإسلام، لا شك أنها كذلك، ولكن حينئذ لا يمكن أن يخطأ خطأ أفدح من أن نعتقد أن المدنية الغربية نتاج للنصرانية، لقد بقي الروح الأوربي قروناً طوالاً يرزح تحت عبء نظام ديني يطوي في نفسه إحتقار الحياة وإحتقار الطبيعة ومن الجلي أن مثل هذا النظام لا يحث على نشاط الجهود المتعلقة بالمعارف الدنيوية ولا بتحسن أحوال الحياة على الأرض. وخلاصة القول أن المدنية الأوربية قائمة على أساس المدنية الرومانية الوثنية وهي لم تأخذ من النصرانية التي إعتنقتها- لأسباب سياسية قاهرة- سوى الطلاء الخارجي فحسب، ثم إن المدنية الأوربية لا تزال في واقعها وثنية مادية لا تؤمن بغير القوة. إن المدنية الغربية لم تستطع حتى الآن أن تقيم توازناً بين حاجات الإنسان الجسمانية والإجتماعية وبين أشواقه الروحية، لقد تخلت عن أدابها السابقة دون أن تتمكن من أن تخرج من نفسها أي نظام أخلاقي آخر مهما كان نظرياً يخضع نفسه للعقل وبالرغم مما حققته من تقدم ثقافي فإنها لم تستطع حتى الآن أن تتغلب على إستعداد الإنسان الأحمق للسقوط فريسة لأي هتاف عدائي أو نداء للحرب. لقد رفعت المدنية الغربية (منظمة) التقنية إلى فن سام، ومع ذلك فإن الأمم الغربية تدلل كل يوم على عجزها المطلق عن السيطرة على القوى التي أوجدها علماؤها الرياضيون فالأمم الغربية قد وصلت الآن إلى درجة أصبحت معها الإمكانات العلمية غير المحددة تصاحب الفوضى العلمية. وإذا كان الغربي يفتقر إلى كل توجيه ديني صادق، فإنه لا يستطيع أن يفيد أدبياً من ضياء المعرفة التي تسكبه علومه- وهي لا شك عظيمة- فعليه يمكن أن تنطبق كلمات القرآن: مثلهم كمثل الذي إستوقد ناراً (الآية).

ومع ذلك فالغربيون مع تعاظم علماهم مقتنعون بأن مدنيتهم هي التي ستجلب النور والسعادة للعالم. لقد أصبحوا لا يسمحون للدين بأن يؤثر في الحياة العلمية فقد بدأوا بدلاً من ذلك يبشرون بالرسالة المادية لطريقة الحياة

الغربية والإعتقاد بأن جميع المشاكل الإنسانية يمكن حلها في المصانع والمختبرات ومكاتب الإحصاء .

رابعاً: يقول كولن ولسون في كتابه (سقوط الحضارة).

إن حضارتنا متدهورة وإن أعراض تدهورها يتمثل في الفلسفة التجريدية التي تحول البشر إلى أقزام، وإن الحضارة الغربية في جوهرها حضارة لا إنتمائية (فاوستية) أما مادية اليوم فإنها علامة على تصلب شرايينها، ليس هناك مهرب إننا الآن في أُخر مراحل التدهور. ليس هناك إحتمال في ظهور دين جديد وفلسفة جديدة لأن تربة الغرب منهوكة ميتافيزيقياً والشك هو الطريق الوحيد الذي ينفتح أمامنا وهو علامة على أن البشر لا يملكون أي هدف أو فكرة أو خطة أكثر من تلك التي تمتلكها صنف من الفراشات أو زهور الأوركيد.

إن الرجل العادي في أوربا: ديمقراطياً، رأسمالياً، إشتراكياً، مفكراً عاملاً، إنما يعرف ديناً واحداً هو عبادة الرقي المادي والإعتقاد بأنه لا غاية في الحياة غير أن يجعلها الإنسان أسهل. وكنائس هذا الدين هي المصانع الضخمة ودور السينما ودور الرقص، وكهنتها هم رؤساء المصارف والمهندسون والممثلات وكواكب السينما وأقطاب التجارة والصناعة إن النهم للقوة، والشره للذة أدى إلى ظهور طوائف منافسة مدججة بالسلاح مستعدة لإبادة بعضها بعضاً. إن الحضارة الغربية لا تجحد الله في شدة وصراحة، ولكن ليس في نظامها الفكري موقع لله في الحقيقة، ولا تعرف له فائدة ولا تشعر له بحاجة، لقد إرتقى العقل حتى إغتر بنفسه وتمرد حتى خيل إليه أن الوجود الذي إكتشفه هو من صدفة بدلاً من أن يتواضع حين يرى عظمة الكون وسعة آفاق المجهول بالنسبة للمعلوم، تكبر وطغى وقطع صلته بخالقه وخالق الكون وإعتقد في ذاته الكمال.

وحضارة أوربا سائرة نحو نوع جديد من الوثنية فهي مادية في أهدافها وغاياتها الفردية والجماعية، غاية الفرد اللذة والمنفعة، وغاية الجماعة كثرة الإنتاج وزيادة المال».

تقول الكاتبة الفرنسية: مدام سانت برانت:

إني أتهم المدنية الغربية بأنها قصرت عن القيام بالمهمة التي تزعم أنها أُلقيت على عاتقها في الأجيال الأخيرة، أعني المهمة التي ترمي إلى نشر تعاليم الإنسانية وتعميمها على وجه الأرض وتؤدي إلى الإتحاد ويمكن للإنسان أن يعبر عن هذه المهمة العظيمة بوسيلتين لا غير، وهي وسيلة حب الذات ووسيلة حب الغير.

أما الغرب فإنه لم يقع إختياره إلا على الوسيلة الأولى، وسيلة الأنانية وحب الذات، وكان إختياره لها جريمة، وكان ذلك سبب ضياعه وإضمحلال نفوذه لأن الوسيلة التي لجأ إليها قذرة ملعونة.

إن الأنانية تقضي على الخير وتلتهم كل بر، ولقد أراد الغرب أن يوحد العالم ولكن تحت سلطانه ولمصلحته، والعالم لا يساس إلا بالعدل وبالحب وبالإخاء وبرد الحقوق إلى أهلها.

ولكن الغرب لجأ إلى القوة الغاشمة، إعتمد على القوة وحدها وتعدى حدود الله وعبث بالشرائع الدينية وخالف تعاليم المسيح عيسى الذي أمر بمحبة الناس أجمعين.

أضاء الشرق دياجير أوربا بنور تعاليمه، وما هذه العلوم التي يفخر بها الغرب إلا من علوم الشرق.

ليس الذي يحجب النور عن الأنظار هو تمدن الشرق القديم، بل الوحشية الغربية ودين القوة وحب الذات والأنانية التي يعمل بها الغرب. إن الغرب مجرم وقد إختار الرذيلة على الفضيلة وأنه بالتجائه إلى الوسائل التي لا تقرها الإنسانية قد أثبت أن مدنيته أفلست.

وتقول الكاتبة الغربية المسلمة فريم جيلة في كتابها: Islam Versus The West

إن الحضارة الغربية بعيوبها الإقتصادية والسياسية الفائقة إستطاعت أن تبسط نفوذها على العالم كله ولما إستطاعت الشعوب الآسيوية والإفريقية أخيراً أن تنتصر في صراعها للحرية السياسية وتحررت من النير الأجنبي، كانت حضارتها المحلية قد تحطمت تماماً. إن قادة الشعوب من غير إستثناء تلقوا

ثقافتهم في معاهد أوربا وأمريكا وكانت هذه المعاهد قدعلمتهم أن ينظروا إلى تراثهم الثقافي القومي بنظر الإحتقار والإزدراء وكانوا قد خضعوا عقلياً لفلسفات الحضارة المادية، وبات المثل الأعلى للمجتمع البشري هو تقدمه عن طريق الصناعات الثقيلة ورفع مستوى الحياة المادية وتوسيع القوة الإقتصادية والسياسية.

ولا عجب إذا كان الزعماء الآسيويون والأفريقيون معجبين كل الإعجاب بأساليب حكم الإستبداد الجماعي السائدة في أوربا وأمريكا، إنهم في إعجابهم الشديد بما وصلت إليه الصين الشيوعية من التقدم وقد شاهدنا أن مبدأ الحضارة الغربية الأساسي هو الثورة على جميع القيم الروحية والدينية، وظل هذا الإتجاه مسيطراً على العالم المعاصر، فهم لا يتورعون عن الكذب ويحرفون الحقائق لمصلحتهم القومية الخاصة من غير أن يجدوا وخزاً أو تأنيباً في الضمير.

وقد إنخدعت الأقطار الإسلامية بفلسفات الغرب المادية، إن الإحتفاظ بالشخصية الإسلامية ومركز هذه الأمة في العالم ومعرفة رسالتها والإيمان بقيمها والتأكيد على حتمية الآخرة وما بعد هذه الحياة من سعادة وشقاء وجنة ونار والتأكيد على الجانب الخلقي والروحي من الحياة هو الذي يشكل الحد الفاصل الرسمي بين الحضارتين: حضارة يوافق عليها الإسلام ويتحمل مسئوليتها ويباركها، وتتجلى فيها الشخصية والأصالة والإتباع وحضارة يتبرأ منها الإسلام ويخسر فيها المسلمون.

إن إكتساب الأخطاء والأساليب العلمية ليس في الحق تقليداً وبالتأكيد ليس في حالة قوم يأمرهم دينهم بطلب العلم حيثما يمكن أن يوجد، إن العلم لا غربي ولا شرقي، ذلك أن الإكتشافات العلمية ليست إلا حلقات في سلسلة لا نهاية لها من الجهد العقلي الذي يضم الجنس البشري بكامله، وإن كل عالم يبني على الأسس التي يقدمها له أسلافه سواء كانوا من أمته أو من أبناء أمة غيرها، وعجلة البناء والإصلاح والتحسين هذه تستمر من إنسان إلى إنسان.

تعليق :

حين نعرض للحضارة الغربية من وجهة نظر مفكريها فإننا لا نؤمن بكل ما جاء في هذه الآراء ولكننا نحاول أن نضع أمام الشباب المثقف المسلم حقيقة موقف الغرب من حضارته على مدى التاريخ المعاصر منذ الحرب العالمية الأولى وبين الحربين وما بعدهما وهي الفترة التي حملت لنا رياح السموم دعوات ومحاولات كاذبة ومضللة من كتاب التغريب العرب في الدعوة إلى إعتناق هذه الحضارة وفي الإعجاب بها وفي الدفاع عنها وفي محاولة تصوير الأمور على أنه لا سبيل للمسلمين والعرب لأن يخرجوا من التخلف إلا بقبول هذه الحضارة بل لقد بلغ الدكتور طه حسين مبلغ السفه حين دعا المسلمين والعرب والشرقيين إلى قبول هذه الحضارة حلوها ومرها وخيرها وشرها وما يحمد منها وما يعاب وقال إن من قال غير ذلك فهو ضال ومضلل ولقد جندت شرذمة من كتاب التغريب أقلامها في سبيل تصوير هذه الحضارة بصورة الفردوس التي ترقبه البشرية ، كان ذلك يجري بإلحاح على أقلام حسين فوزي ومحمود عزمي ولويس عوض وزكي نجيب محمود ، في دعوة غاشة لهذه الأمة ، كان يجري هذا في بلادنا ، بينما كان هؤلاء الكتاب المرموقين ينقذون حضارتهم على هذا النحو ويكشفون زيفها وإنحرافها وفسادها ، والمحاذير التي واجهتهم من جراء الإذعان لها وفي كتب شينجلر ونوردو وسوركن وشفايرز . وتوينبي ولاسكي وبراتراند رسل وبرجسون وغيرهم وغيرهم نجد إجماعاً بين فلاسفة الحضارة الغربية على أنها إنحرفت عن طريقها الصحيح إلى الفساد مقدمة للإنهيار وأنها دخلت دائرة المحاق ، هذا إجماع ، وإن كان هناك إختلاف بينهم حول محاولة إنقاذها أو تبرير وجودها أو تصوير جوانب قوتها . ولقد كان أكبر تركيز من الباحثين الغربيين في فساد حضارتهم على هزيمة أخلاقيات الحضارة وغلبة روح العنف والشره ، والمغالاة في الإيمان بالعلم وعجزه على حل المشكلات أو إنكار دور العنصر المعنوي والروحي في الحياة وليس كل ما قاله هؤلاء الفلاسفة نحن نقبل به ونقره ولكنا حاولنا عرضه كوجهة نظر قوم لحضارتهم وليس صحيحاً ما يقوله أحدهم من أن البشرية قد عقمت ولم تعد هناك قوى أو شعوب موهوبة قادرة على العطاء .

الباب الخامس
لماذا دخلت الحضارة الغربية
مرحلة المحاق

أولاً : الانحراف
ثانيًا : الانحلال
ثالثًا : تسميم الآبار

الفصل الأول

الانحراف

يجمع الباحثون على أن الحضارة بدأت طريق الانحراف عندما انفصلت عن ضوابط الدين والأخلاق والتمست مفاهيم القيم الوثنية اليونانية القديمة التي تقوم على عبادة القوة وعبادة الجمال ويرجع ذلك إلى المفهوم الديني الذي اعتنقته الحضارة الغربية لم يكن في الأصل سلياً تماماً وإنما كان قد حرف تحت تأثير تفسيرات رؤساء الدين إلى الرهبانية التي تخالف الفطرة الإنسانية ودب الخلاف بين العلماء ورجال الدين مما أدى إلى تحول الحضارة من النقيض إلى النقيض، من الدين إلى الإلحاد ومن الرهبانية إلى الإباحية ومن القيم الربانية إلى القيم المستحدثة المعارضة للفطرة وكان هذا منطلق الانحراف.

وجاء احياء الفلسفة اليونانية الإغريقية بمفاهيمها في عبادة الجمال واحياء الفلسفة الرومانية بمفاهيمها في عبودية الفرد للفرد وكان هناك إعلاء شأن الإنسان والارتفاع به فوق حقيقته وطبيعته، ثم جاء التحول من الدين إلى الفلسفات وإنشاء أخلاق جديدة منفصلة عن الدين، وقد جاء التحول حثيثاً من الدين إلى الفلسفة المثالية في المرحلة الأولى ثم جاء التحول الخطير إلى الفلسفة المادية التي غيرت مفاهيم الأخلاق والقيم: هذه المفاهيم التي احتقرت الإنسان ووصفته بالحيوانية، وادعت أنه يصدر عن الجنس أو عن المعدة، ثم جاءت حرب القيم الثوابت والدعوة إلى نسبة الأخلاق وإلى التطور المطلق.

وبذلك باعدت الحضارة بينها وبين قيم البناء والثبات ودعائم النهوض الحقيقية واندفعت نحو مطالب البدن وأهواء النفس.

ولقد كان لهذه الخيوط امتدادها الخطير فقد كان مفهوم العبودية الرومانية هو مصدر الاستعمار كله ومنطلقه، فقد فرضت الحضارة الغربية مفهوم

الأجناس الملونة والجنس الأبيض وأعطت لهذا الجنس الحق في السيطرة والاستعمار كما أخرجت مفاهيم الفكر التلمودي- الذي احتوى الفكر المسيحي الغربي- الحضارة الغربية من مفاهيم الرحمة والسلام إلى مفاهيـم الدم والقتل والإبادة. وقد كانت الحضارة الغربية قد تحللت من مفهوم الدين في المال فقبلت مفهوم الربا والتعامل الربوي وجعلته أساس الاقتصاد العالمي، وفي ظل هذا التحول الخطير قامت الحربين العالميتين لأول مرة في تاريخ البشرية والتي حصدت أكثر من مائتي مليون من البشر واستتبعت ظهور القنابل الذرية والهيدروجينية وقيام العالم على حافة حرب نووية مبيدة للبشرية كلها.

كذلك فإن الرأسمالية التي ارتبطت بالحضارة الأوربية لم تلبث إن انحرفت فتخلق من رحمها: الماركسية الشيوعية، وبدأ بينهما صراع عالمي عنيف وتقسم العالم فيما بينهما إلى معسكرين وعجزت الأنظمة الديمقراطية الراسمالية أن تحقق المجتمع الإنساني الكريم، وكذلك كشفت الأنظمة الاشتراكية الشيوعية بعد مرور أكثر من ستين عاماً عجزها عن تحقيق المجتمع الذي تتطلع إليه البشرية. ولقد غلب التفسير المادي على كلا الأنظمة الديمقراطية والماركسية على السواء وأصبح هو الجذر الحقيقي للفكر السياسي والاجتماعي العالمي الآن وفي إطار هذه المفاهيم المنحرفة للسلم والحرب والأخلاق والدين، والسياسة والاجتماع يقاسي العالم الآن ويلات الصراع وتتدافع الحضارة الغربية إلى أبعد غايات الانحراف والفساد ويواجه العالم الإسلامي أخطاراً جمة نتيجة اتصاله بهذه الحضارة التي فرضت عليه فرضاً من جوانبها المضطربة المنحرفة، بينما حجبت عنه الجوانب العلمية والتكنولوجية، جوانب القوة وامتلاك الأسلحة الذرية.

ولقد قطعت الحضارة الغربية رحلة طويلة حتى وصلت إلى هذا الموقف الذي يطلق عليه اليوم أزمة الحضارة فقد كانت انطلقت أول الأمر من رياح الإسلام التي هبت على الغرب بعد أن وصل المسلمون إلى الأندلس وقدموا المنهج العلمي التجريبي وكانت المسيحية قد أمضت خمسة عشر قرناً حين جاء عصر النهضة ولكنها حين أخذت المنهج التجريبي فصلته تماماً عن مفهوم العلم والحضارة في الإسلام وسرعان ما صهرته فيما أحيته من تراث يونان وروما فقامت الحضارة في أول معطيات العلم باسم الاستعمار والفتح والسيطرة على

الشعوب التي تملك المواد الخام والأسواق وألغت الحضارة الغربية مفهوم المسيحية في التسامح والرحمة وأحلت محله مفهوم التلمودية في الإبادة وسارت الربوية اليهودية في ركاب الاستعمار الغربي الذي وجد من العالم الإسلامي منطلقا لجولته.

لقد أخذ الغرب العلم بمفهوم عنصري فجعله علم الشعوب البيضاء، وكذلك صنع الحضارة في هذا الإطار ولذلك فإنه لم يجعلها إنسانية في الأساس ولكنها خاصة بالشعوب المستعمرة المتسلطة، أما الشعوب السوداء والملونة فقد تقرر أنها هي التي تقدم خاماتها وأيديها العاملة لمصانع الغرب ثم هي أسواق تجارية للمواد التي يصنعها من خامات هذه الأوطان ويعيدها إليها. وهذا هو نفس مفهوم الامبراطورية الرومانية التي تقول (روما سادة ومن حولها عبيد) وإن كان قد غلف بمظاهر خادعة وعبارات براقة. ومن هنا كان العلم منطلقاً إلى الإبادة وإلى انتصار فريق على فريق، أو مذهب على مذهب، وبات الناس في هول الصراع يعيشون حياة أشد ما تكون اضطراباً إذ يعيشون على حافة الخطر. «لقد استغل العلماء العلم بعيداً عن قوى الروح والقلب وقيم الإيمان والرحمة والإخاء البشرية فأعلوا من شأن العقل والعلم علواً كبيراً وحكموا العقل في القلب كما حكموا العلـم في الدين فنتج عن ذلك ما نراه من فوضى خلقية وحروب طاحنة رهيبة، فاستأسدت الغرائز وأسرفت المطامع فاذا إلٰه العلم يتجه نحو التدمير والتخريب والفتك والتقتيل حتى أصبحت القوة مقياس تقـدم الأمم وعظمتها.

قال رومان رولان: إن هذه الحرب نزاع دنس تتذوقه أوربا المجنونة وهي تسير إلى حتفها كهرقل الذي قضى على نفسه بيديه.

ويقول الباحثون في تاريخ حضارة الغرب ان القتال لم يتوقف يوماً واحداً منذ نشبت الحرب العالمية الأولى ١٩١٤، حتى الآن بما يمكن أن يسمى حرب الستين عاماً في القرن العشرين، ولا ريب أن الحرب لها اثرها الخطير في إصابة نسيج الحضارة بالتمزق وصرحها من الشروخ. ولقد استغلت هذه النزعة حتى أصابت النفس البشرية بأزمة التمزق الخطير من خوف الهلع وتوقع الحرب الذرية التي قد تقع في أية لحظة فلا تبقى ولا تذر.

ولا ريب أن ظاهرة الحرب من أخطر ظواهر الحضارة الغربية ولا ريب مصدرها هو تلك المطامع والأهواء التي تتحكم في المعسكرات المتصارعة والتي يقوم صراعها على أساس الخلاف العنصري والخلاف الإيدلوجي والمطامع ومن وراء ذلك القوى الصهيونية التلمودية الطامعة في السيطرة على العالم.

ولا ريب أنه كان من آثار الحربين العالميتين أن تزعزعت أصول الأخلاق القديمة ودبت الفوضى في علاقات الأفراد وشاع الاستخفاف بالعقائد والتقاليد والنظم واستولى على الجماهير ضرب من الشك في غاية الحياة.«لقد خرجت الشعوب الغربية من الحروب أحوج ما تكون إلى اللهو تنفس به عن صدورها وإلى الإسراف في المتعة طالباً للنسيان والتعزية فانتشرت الرقصات الزنجية وأولع القوم بموسيقى الجازبند وهجروا الفنون الرصينة والآداب العالية واقبلوا على صالات الرقص ودور السينما ومجدوا الألعاب الرياضية وتهالكوا عليها واقتنعوا بها ».

وبرزت نظرية التمتع بالحياة والتهالك عليها، وهي تقوم على الدعوة إلى المطالبة بأكبر نصيب من الحرية، هذه الحرية التي تجيء على حساب الأخلاق والدين والعلم ومن ثم تداعت سلطة رب الأسرة وازداد شعور الفرد باستقلاله وتمكن اللهو غير البريء بين قلوب الكثيرين وكرهوا العمل الشاق وأصبح البعض منهم يبحث عن أسباب العيش لا عن طريق الأعمال الذهنية أو الاجتماعية الكريمة بل عن طريق الرقص والعمل في السينما أو في الرياضة، وبدأ تمجيد الممثل والراقص والبطل الرياضي وهذه هي نقطة التحول الكبرى من الاخلاق المسيحية اليهودية ومن ثم غلبت نزعات الاستمتاع الجنوني بمختلف الشهوات الجنسية وجاءت الدعوة الى مذهب العري وأسست لها الجمعيات والاندية.

واليوم نصل الى حقيقة هامة وخطيرة، هي أن العالم المتقدم الذي وصل إلى ذروة التقدم التكنولوجي لا يشعر بالاستقرار لأنه أصبح يواجه منذ سنوات مشكلة التحدي التكنولوجي من جديد، ذلك أن الحضارة الراهنة لا تستطيع أن تستمر أكثر من خمسين عاماً مالم يحرز العالم تقدماً تكنولوجياً جديداً، وسبب هذه المشكلة أن المواد الخام التي تعتمد عليها الدول الراهنة

في طريقها الى الزوال والاستهلاك على مر السنين وبصفة خاصة البترول وهو المحرك الأساسي للحضارة الراهنة والذي يقدر له أن يتغير من العالم بعد أربعين سنة على وجه التقريب والحضارة لا يمكن أن تستمر بغير طاقة تحركها، والواقع أن الحضارة تستهلك المواد الأولية بشراهة غريبة وتقدمها كلها وقوداً للترف وللكماليات وبالرغم من أن القدرات التي يمتلكها جيلنا الحاضر هائلة الى أقصى حد فإنها تنهار بسرعة عجيبة، وتبحث الحضارة عن موارد جديدة للاستهلاك. ولا ريب أن الحضارة تواجه تحدياً تكنولوجياً يهددها بالانهيار.

إن مصادر انحراف الحضارة الغربية؛:العنصرية والمادية واللاأخلاقية في التعامل «فهي تمجد وترفع من قدرة القوة المادية بينما تنزل وتضع من قدر القيم الروحية والأخلاقية، حتى ليقال إن أوربا اليوم هي أكبر عائق في سبيل الرقى ذلك أن الفلسفة الخلقية التي أزدهرت في جو من الانحلال الديني وراجت في حياة الغرب فعلا هي فلسفة النفعية (Utilairism) وعلى هذه الفلسفة أساس بناء المدنية والحضارة في الغرب.

وليس ثمة ما هو أدل على انهيار القيم الأخلاقية لتلك الحضارة من أن نشير إلى تلك الحرب المعروفة باسم حرب الأفيون وهي تلك الحرب السفلى التي أعلنتها بريطانية العظمى على الصين ١٨٤٠ لإجبارها على العدول عن قرار منع دخول الأفيون في بلادها من الهند (البريطانية إذ ذاك) لأن تحريم الأفيون دخول الصين حرماناً لتجار الهند البريطانية من كسب الملايين.

ومن عجب أن هذه الحرب التي أحاطت الحضارة الغربية وبوجه خاص سمعة الدول البريطانية بإطار من العار قدذ أعلنتها هذه الدولة على الصين باسم الدفاع عن الشرف البريطاني.

كذلك فإن «النزعة إلى العنف وعدم التسامح» هي أثر من ذلك الطابع المادي البعيد عن العقيدة ودليل على اتسام النفسية الأوربية بروح المسيحية الحقة: روح المحبة والإخاء والتسامح، وقد كان ذلك من أثر ما كانت عليه الروح الهلينية والرومانية من طابع العنف وعدم التسامح وحب الدماء.

وليس اأدل على ذلك من أنه كانت في آسيا قاعدة من ملايين المسلمين في

جنوبي فرنسا وشمال إيطاليا وجنوبها قد استوطن مئات الألوف منهم تلك الأوطان قروناً طوالا ولكن الأوربيين أخذوا يستأصلونهم استئصالا حتى أنهم لم يدعو من الأحياء على ظهر الأرض واحداً وفي أسبانيا لم يدعو للأموات منهم في باطن الأرض قبراً في حين أن العرب المسلمين قد استوطنوا إسبانيا نحو ثمانمائة وعشرين من السنين، يقول جو ستاف لوبون والقس الأب منشوت أنه من المحزن للأمم المسيحية أن يكون التسامح الديني هو مما يجب أن يتعلمه المسيحيون من المسلمين.

وقد أشار كثيرون من الباحثين في تاريخ الحضارة أن « الانحلال الخلقي » كان وسيكون عاملا بعيد الأثر في اندثار المدنية الأوربية وتقويض أركانها إن قريباً وإن بعيداً وأن الحضارة الغربية حين اكتشفت بعض أسرار العلم تعالت بنفسها وظنت إنما أوتيته على علم ونسيت الصانع الأكبر والخالق الذي علم الانسان ما لم يعلم ثم عجزت أن تدير هذا الفضاء في إطار نواميس الكون والمجتمعات التي تفرض انهيار الحضارات التي تعدو طور الأخلاقيات كما انهزمت واندحرت حضارات اليونان والرومان والفرس والفراعنة من قديم.

ويرد جوستاف لوبون ذلك الانحراف في كتابه « اختلال توازن العالم » إلى نقص في جوهر الحضارة، التي أعلنت مفاهيم المادية وعجزت عن فهم معطيات الروح والنفس والمعنويات.

وبذلك سمت عقول البشر وضعفت عواطفهم وأخلاقهم، ولما كان الذي يقود البشر في الحقيقة هي عواطفهم وأهواءهم ومعتقداتهم وأهوؤهم فقد أنشأ الاختلاف بين العواطف والعقل في نفوس بعض الناس شيئاً من القلق والاضطراب.

قال جوستاف لوبون: ماذا يحدث إذا استمر العقل في النمو وظلت العواطف ثابتة لا تتغير؟ ماذا يحدث إذا كان العقل لا ينفك يهدي الناس المبشرين بمجد الحروب إلى استنباط أدوات التهديم والتخريب. لقد أهتم العلماء بالإشكال المصورة على أوراقهم واهتموا بحركات النجوم التي تدور في السماء والكهرباء وتركيب الكيمياء وفي الطبيعيات والرياضيات، وعلى الجملة

فقد درسوا كل شيء في العالم ما خلا الرجل فلم يدرسوه. لقد كشفوا لنا الغطاء عن أسرار السماء ولكنهم لم يكشفوا لنا الغطاء عن القلب. ليس في أقطارنا السياسية إلا عواطف وأهواء. لقد وهبنا العلم قوى لم يكن يحلم بها أجدادنا السالفون ولكنا نستخدمه بعقول الأطفال والمتوحشين ».

وهكذا تكشف الأبحاث الجادة نزعة السر في فساد الحضارة وما تحمل من إذلال الشعوب واستعبادها وتسخيرها لمنفعة قلة من أصحاب الملايين اليهود فضلا عن الاستخدام السيء لأدواتها، ومن هنا فقد اختصرت عمرها وأشرفت على الانهيار بعجزها عن السيطرة على القوى التي وضعها العلم تحت تصرفها.

وكذلك فقد أشار الدكتور هنري الميربارتس إلى مواطن النقص في الحضارة فقال:

« ان الفجوة الآخذة في الاتساع بين العلوم والفنون الديناميكية من ناحية وبين أنظمتنا وتفكيرنا الاجتماعي من ناحية أخرى هي المظهر الأهم الفاصل لما نسميه التأخر الحضاري.

ومهما تكن الأعراض التي حققتها الحرب في الزمن السالف فقد أصبحت اليوم على النقيض من ذلك. إنها اليوم أشد خطر يهدد الحضارة كما أن وسائلها قد أصبحت رهينة طائشة وهي كما قال الجنرال عمر برادلي، في وضوح تام منافية تماماً لقواعد الأخلاق إذا اعتمدنا عليها في تنظيم العلاقات الإنسانية » وبالرغم من عيوب التأخر الحضاري فقد استطاعت البشرية في معظمها أن تجتاز الأزمات التي مرت بها.

إلا أن التقدم في إنتاج الطاقة الذرية والجهود التي تبذل لزيادة كفاية الحرب الجوية وحرب الجراثيم والحرب الكيمائية وأمثالها قد توجد في هذا الوضع حالات جدية كل الجدة وأشد خطراً وذعراً، لقد أصبح العمل على الحد من التأخر الحضاري والتخلص منه أمراً لا معدي عنه لاستمرار الحياة البشرية الهادئة، وإذا لم نصلح من النظم المباشرة المتصلة بمشكلة الحرب والسلام الإصلاح الضروري التي ننشده اليوم فانه لن يقضي وقت طويل حتى يبيد غالبية الجنس البشري على حين تقع البقية الباقية في براثن الهمجية.

الفصل الثاني
الانحلال

إن انحلال مجتمع الحضارة الغربية قد أصبح اليوم حقيقة واقعة، وتلك نتيجة طبيعية لحضارة تحررت منذ اليوم الأول من القيم الدينية والأخلاقية، بل إنها حاربتها وصارعتها وخلقت فلسفة تسخر منها وتحتقرها وتعتبرها من عوامل الضعف والجمود، ولا شك نتيجة أزمة العقيدة عندما جرت الدعوة الى التحرر من الدين أساساً ثم من الأخلاق الدينية على أساس إعلاء شأن العقل وتقديس الغريزة وعبادة الجمال، والدخول في متاهات الأهواء النفسية، وقد أشار الباحثون أمثال برتراندرسل وغيره إلى أن الحضارة الحديثة قد اهتمت بالغريزة والعقل وأهملت الروح، وأن عنصر الروح وحده هو الذي يمكنها من أن نشعر شعوراً إنسانياً عاطفياً فالغريزة والعقل لا يحلان المشكلة ولا بد من انسجام العناصر الثلاثة (الغريزة والعقل والروح) وبناءها على أساس الإنسجام حتى تسير الحضارة في طريقها السوي، ويقول الدوس هكسلي أن أكثر شعوب الأرض بدلا من أن تقترب نحو المثل الأعلى تتباعد عنه بسرعة، إن التقدم الحقيقي هو التقدم في الخير والإحسان وأن ما يقابل به الرأي العام في القرن العشرين أخبار الوحشية والتقتيل والصور والأفلام الممثلة لذلك هي أكثر شاهد على أن الحضارة لم تكتمل. إن الفضيلة والخير لا يمكن أن تنمو وتعم إذا لم تكن النظرة العامة السائدة قائمة على التوحيد أو الأخلاق. إن السنين الخمسين الأخيرة تمثل تقهقراً كبيراً للتوحيد واتجاهاً نحو الوثنية، لقد انصرف الناس عن عبادة إله واحد لعبادة آلهة موضعية كالطبقة الاجتماعية أو الفرد أو الأمة.

إن عصرنا إذا قسناه بمقياس الرقي الوحيد وجدناه في تأخر واضح فإن

تقدم الآلة سريع ولكن دون تقدم الخير. غير مفيد بل أقبح من ذلك أن نقدم أدوات ووسائل ناجحة ولكن للتأخر.

ويقول هكسلي إن فلاسفة أوروبا يبعدون جداً عن الحكماء المعروفين بسيرتهم الفاضلة فقد كان نيتشه الذي كتب عن الإنسان المتفوق (سوبرمان) عاجزاً عن ضبط شهواته التي تتناول المربيات والمعجبات وكلما وصله من بيته شيء منها فهو معتكف في الجبال، وكان لكنت مثل هذا الفهم إزاء المعجبات وذعر من المرض حتى كان لا يجسر على زيادة أصدقائه إذا مرضوا أو إلى الحديث عنهم إذا ماتوا وكان عند هيجل مثل الغرور بالنفس وعند كثير من أقرانه.

ويرى باحثون آخرون: أنه كان من أكبر ما منيت به أروبا وحضارتها انحسار المسيحية وتقهقرها أمام هذه الوثنية الجديدة. فقد كانت تعاليم المسيحية الروحية والخلقية- كما يقولون- تخفف كثيراً مما عند الأوروبيين من ضراوة وشراسة وقد تركت أثراً واضحاً في الأفكار الإنسانية والخلقية عندما قضت على الوثنية اليونانية والعبودية الرومانية، ولكن المسيحية تراجعت في العصر الحديث تراجعاً خطيراً وافسحت لعودة الوثنية اليونانية والعبودية الرومانية تحت أعلام المخططات اليهودية الصهيونية الطامعة في السيطرة على الحضارة واحتوائها.

وهكذا تصل الأبحاث إلى حقيقة واضحة هي وجود ظاهرة الانحلال: فقد أولت اللذائذ الحسية والمنافع المادية المرتبة الأولى وجعلت العقل خادماً لها ووسيلة لزيادتها. وأنها رقت الوسائل ولم ترق الغايات فلا يزال التنافس والصراع في مجالات السلم والحرب قانون هذه الحضارة، لقد قوي الإنسان وتسلح وأصبح يملك قوة عظيمة ولكن نفسيته لم تتغير ولم ترقى ولم تستطع الحضارة الحديثة أن ترتفع بالإنسان وتنمي عواطفه الإنسانية ووعيه وشعوره الإنساني العام، ولا التخفيف من أثرته وأنانيته وإذا كانت قد توصلت أحياناً- إلى أنظمة اجتماعية فانها لم تستطع أن تخلق الجو النفسي والخلقي الذي يعين على تطبيقها بدافع من داخل الإنسان لا من خارجه فحسب.

ان العلوم الغربيـة الحديثـة التي تتصل بالنفس والاجتماع والأخلاق الأنثربولوجيـا ومقارنات الأديان كلها تحمل طابع التلمودية الذي احتواها متجها بها إلى الانهيار والانحلال.

وإن أزمة الغرب هي أزمة النفس وليس أي أزمة أخرى، بعد أن خرج من مفهوم المسيحية إلى مفهوم اليهودية، وذلك بعد سيطرة العلوم الاجتماعية والفلسفة التلمودية.

وعندنا أن العلوم التي طرحها الفكر التملودي لهدم الأخلاق المسيحية والدين المسيحي إنما هي أساس التبرير الذي يقدم للإنسان الفردي الآن لمزيد من الغرق في أمواج الانحلال والتدمير ولقد عرف الفكر الغربي الحديث بغطرسته واستعلائه حين يرى أنه الفكر العالمي وحده، وأن تاريخ الغرب هو تاريخ العالم وإنه صاحب الدم الأبيض الذي لا يهزم وإن العصور المظلمة هي العصر الذي كان فيه الغرب مظلماً بينما كان العالم كله غارقاً في أضواء الحضارة الإسلامية ألف سنة كاملة، كذلك فإن طغيان المفهوم (المادي- الاقتصادي- الجنسي) على تفسير الحياة والتاريخ والحضارة هو عامل من أخطر عوامل الاستبداد والانحلال فضلاً عن فساد النظرة الغربية أساساً لأنها قائمة على التجزئة الانشطارية وأنها تنكر الدين والروح والمعنويات والقيم الخلقية، كذلك فقد كان من أخطر أعمال الحضارة العمل على احتواء الأمم واحتواء الثقافات على أساس أن وجهة النظر الغربية مفروضة على العالم.

وتهدف إلى أن تنصهر الثقافات العالمية كلها في ثقافة الغرب، ولقد كان من ابرز فساد المفهوم الغربي عجزه عن الفصل بين الثابت والمتغير، والإلهي والبشري، وبين الفكر والمادة، وبين الفرد والمجتمع، فضلا عن صراعه العميق بين العلم والدين وبين العلم والفلسفة وبين العلوم التجريبية والعلوم الإنسانية وكان لعجز العلم عن حل كل المشاكل وخطأ مقاييسه في مجال العلوم الإنسانية كل هذا إنما يمثل الحلقة الفكرية المنهارة وراء فساد اتجاه الحضارة الغربية وفساد استعلائها بالباطل على دين الله وعلى الألوهية وتصورها أنها بهذه

المعطيات العلمية والحضارية قد أصبحت راشدة وليست في حاجة إلى وصاية الدين ومنها قولها أن الدين إنما كان مرحلة من حياة الأمم؛ كل هذا إنما جاء نتيجة فساد التصور القائم على النظريات والفروض العلمية التي تتغير كل يوم وتتبدل ولا تثبت أمام التطور الاجتماعي والتحول البشري، وكان أخطرها أن قامت أيدلوجيات لبناء المجتمعات والحضارة على أساس هذه الفروض العلمية ثم انهارت بتغيرات الزمن والسنين كما تغيرت الرأسمالية والديمقراطية والماركسية والوجودية.

وكان أخطر مفاهيم هذه الحضارة وأشدها فساداً فكرة التقدم وفكرة التطور نسبية الأخلاق، وإعادة تجديد الخرافات والأساطير والسحر واتخاذها أساساً للنظريات النفسية والاجتماعية والأخلاقية وانفصال الفرد عن الجماعة وانفصال الحرية عن العدل وتصارعهما، وذلك نتيجة سيطرة الفكر التمودي الذي فرض نفسه في نظريات براقة، ولقد أصاب الفرد هذا الاضطراب ودخل فعلاً في مرحلة الأزمة ومن هنا جاء التساؤل هل يستطيع في هذا الوضع أن يكون مصدر إمداد للبشرية أو منطلق لها إلى الخير أو الحق أو السعادة، ذلك ما تقر كل الأبحاث الصحيحة بأنه لن يكون، وأن البشرية لا بد أن تبحث لها عن طريق آخر ومصدر آخر وليس هذا الطريق والمصدر في الحقيقة إلا الإسلام.

(٣)

في خلال الحرب العالمية الثانية سقطت فرنسا تحت سنابك النازية في أيام قليلة وأعلن رئيسها بيتان هذه الحقيقة التي صكت سمع الزمن وكانت علامة على طريق الحضارة: «لقد أتت الهزيمة من الانحلال فدمرت روح الملذات واللهو ما شيدته روح التضحية» وكان ذلك علامة على الأثر الخطير لفساد المجتمع الغربي الأوروبي، أما المجتمع الأمريكي فإنه لم يلبث أن واجه نفس المصير.

«خرجت امريكا من الحرب العالمية الثانية منتصرة وأكثر غنى ونفوذاً من ذي قبل فإن الفرد الأمريكي أصبح أكثر تعقيداً وبلغ التوتر الداخلي

حده، هذه الحالة جعلت الفرد الأمريكي حين كان ينعم بالطمأنينة وراحة النفس والإيمان العميق بقيم ثابتة لم تكن تخطر بباله وإنما ستكون في يوم من الايام مدار شك وتساؤل.

درس هذه الظاهرة (وريث ملز) في كتابه الصفوة الحاكمة ووصل إلى أن السبب أن أمريكا خرجت من الحرب العالمية منتصرة لتقع في قبضة حفنة من رجال المال وكبار العسكريين وقد تحالفت هاتان القوتان من أجل تكريس المجتمع الأمريكي لخدمة مصالحها الخاصة وما هذه الحرب التي تشنها الولايات المتحدة إلا نتيجة هذا التحالف.

وقال ان الجماعات من كتاب الجيل الطالع التقت عند عجزها عن أن تؤمن بشيء واقتناعها بأن مثل هذه الحالة النفسية من عدم الإيمان بشيء أمر لا يكاد يطاق نتج عنه الضياع الذي كان يحس به هؤلاء الكتاب الشباب مرارة نفسية دفعت بهم إلى الإفراط في كل عمل يقومون به. وكان أشد ما هنالك هو حاجة هذا الجيل إلى شيء يؤمن به، وهذا لا يعني الضياع فحسب، بل يعني أنه جيل ثائر على كل ما في مجتمعه برز بعد الحرب الثانية يحس بالهزيمة في أعماقه والمرارة في نفسه نتيجة انعدام القيم والفكر بكل شيء وباشتداد أزمتهم النفسية أخذوا يبحثون عن قيم جديدة يؤمنون بها وقد أطلقوا على أنفسهم «الجيل الضائع» واتسعت حركتهم في البيئات الجامعية والشوارع وشاشات والتلفيزيون والسينما وصفحات المجلات المعروفة وتسابقت دور النشر لإصدار مختار من كتاباتهم، هذه الحركة التي هبت كالاعصار لم تلبث بعد سنوات أن اتسع نطاقها.

وهذه الظاهرة لم تقتصر على الولايات المتحدة وحدها ولكنها وجدت واتسعت في أوروبا كلها وتمثلت في حركات الهيبز والجماعات التي هجرت المجتمعات وعارضت وجودها وأنظمتها وانفصلت محتجة وهذه الجماعات موجودة في المجتمعات الرأسمالية، وتوجد في المجتمعات الشيوعية جماعات الرفض شبيهة بذلك ويقول الباحثون في المجتمعات الغربية: إن عوامل الإنهيار في المجتمع الغربي تجيء من نواحي كثيرة منها الإغراق في الشهوتين المعروفتين:

الجنس والطعام ويتسع هذا للشراب كالخمور والمخدرات وما في حكمها التي أخذت تجتاح المجتمعات الغربية، حيث ظهرت هذه الجماعات من الجنسين الخارجة عن كل مألوف من الملبس والسلوك الشخصي، وقد عارضت هذه الجماعات فساد الحضارة وإنحرافها وخاصة في مجال التمييز العنصري وإقامة ترتيب الشعوب على أساس الألوان وكذلك كراهية شن الحروب من أجل ترويج صناعة الأسحلة.

ولا ريب أن إنحراف الأحوال الاقتصادية في المجتمعات الغربية قد وصل إلى درجة عالية من التضخم المالي ومن علاماته إتجاه المستويات العامة للأسعار نحو الإرتفاع والإنفاق الذي لا يسهم في الرفاهية كما في مرابيات الحرب وغزو الفضاء الذي أدى إلى تفشي البطالة وبث القلق في صفوف المجتمع.

كذلك فان التقدم التكنولوجي في الغرب الذي بدأ في الربع الثاني من القرن التاسع عشر وأهم مظاهره الاختراعات وإمتد على نحو مستمر نحو مائة وخمسين عاماً وبقوة الدفع لم يتوقف، كل هذا كان له أبعد الأثر في الإنحراف والتحلل، فقد استحدث بعض العناصر التي جعلت الغرب أحرص ما يكون على المزيد من التقدم بمفهومه المادي وأهم هذه العوامل: يقظة اليابان في أول القرن العشرين وتحديها لقوى الغرب وظهور الشيوعية بعد الحرب العالمية الأولى، هذه التحديات في رأي الباحثين جعلت الغرب يضطر إضطراراً إلى متابعة السير وتشجيع العلماء والفنيين ولم يكن هذا التقدم ناتجاً عن نزعة خبرة أو عن تفوق حقيقي بل عن خوف فقدان الحركة لإندفاعتها القوية، هذه الحركة التي تلهبها سياط التلمودية لدفع العالم إلى حافة الهاوية.

ولا ريب أن المفاهيم التي تظاهر هذه الإندفاعة الحضارية الخطيرة تحمل طابع عبادة العجل الذهبي اليهودي وتحمل الإيمان المضلل بأن الانسان وحده هو القادر على تسخير قوة الطبيعة والذي استطاع بعلمه أن يصل إلى القمر وفي هذا معنى تأليه الإنسان وتجاهل فضل الله وعطائه على الإنسان.

(٥)

وهكذا نرى أن كلا وجهي الحضارة قد فسد، فإن التقدم لم يأخذ مفهوماً جامعاً ولم يكن سبيل حق أو خير أو رحمة أو إخاء إنساني، وإنما هو مفهوم إستيلاء عنصري وعرقي، هذا بالإضافة إلى جانب التحلل الخلقي والإباحية الجنسية والعرى، وقد بلغت حرية العلاقات الجنسية درجة عالية حيث توجد عصابات لتجارة الرقيق الأبيض للفتيات في سن المراهقة (من ١٥ - ١٩ سنة) وهذه مشكلة إنحراف ستمائة ألف، وقد كان للمخدرات دورها الخطير في دفع المراهقات إلى هذا الطريق المخوف وأنهن يحترفن الدعارة للحصول على المال لشراء المخدرات ولكن غالبيتهن لهن مشاعر متضاربة من الإحساس بالذات والرغبة في إحراج آبائهن ومن خلال الدعارة تكتسب الكثيرات منهن ما يسميه علماء النفس بالشخصية السلبية.

وفي الغرب (أمريكا منذ ١٩٧١) إباحة الإجهاض وإعادة النظر في كل القوانين التي تحرمه وقد وافقت ست دول على إباحة الإجهاض لأسباب علاجية من أجل صحة الأم وسلامتهاوقال دكتور رونالد متيكلر: أن الإجهاض قد وجد مكانه في المجتمع ولم يعد الناس يفكرون في أنه جريمة، والإجهاض هو النهاية الحية للحب وقد بلغت عمليات الإجهاض (١٩٦٦) ٨ آلاف حالة في جميع أنحاء الولايات المتحدة وتقدر عام (١٩٧١) ٤٠٠ ألف حالة بالإضافة إلى مليون حالة أخرى بعيداً عن المستشفيات. ويقول خبير إجتماعي أن الإجهاض هو أسرع ثورة إجتماعية شهدتها الولايات المتحدة. ومن الإحصائيات ظهر أن عدد الأطفال المجهضين يوازي عدد الأطفال المولودين في الولاية، ثم إنخفض عدد الأطفال الشرعيين نتيجة للإباحة، ومن شأن إباحة الإجهاض أن يشجع كل فتاة على ممارسة العلاقات الجنسية غير المشروعة دون خوف أو تردد.

وقد سمحت برطانيا أخيراً لعمليات الإجهاض مما جعل أكثر نساء الغرب يسافرن إلى برطانيا، ونشرت مجلة نوفيل أوبسرڤاتور الفرنسية بكل جرأة إعترافات سيدات شهيرات مارسن الإجهاض. وتبلغ النسبة ٣٠ في المائة كل

سنة بما يعادل ربع المولودين.

(٦)

أما ظاهرة الانتحار فقد بلغت حداً خطيراً حتى جاء في إحصاء موثق أن أكثر من ألف شخص ينتحرون في اليوم تشير الإحصائيات الدولية أن عددها في السويد والنرويج بلغ ٢٠ ألف حالة من كل ١٠٠ ألف من السكان وفي أمريكا بلغ ١٩ وفي إنجلترا وفرنسا ١٨ أما في العالم العربي فلا يزيد عن ٢ لكل ١٠٠ ألف من السكان وقد إنتحر مليونير أمريكي وترك رسالة يقول فيها: إنه لم يجد أصدقاء مخلصين في الدنيا وقلما يدرك الإنسان ما هية العزلة ومدى أثارها لأن ذلك الجسد ليس هو الضحية والزحام لا يزيل الشعور بالوحشة.

وهناك ممثلات ناضجات وأصحاب ملايين ينتحرون يأساً من الحياة.

وقد تبين اليوم أن أكثر حوادث الإنتحار إنما تقع في البلاد ذات الوفرة والمستوى العالي من المعيشة والأكثر تقدماً. وكذلك حوادث الجنون الإجرامي والعنف حيث يعيش الإنسان في دوامة من القلق والتوتر والإجهاد العصبي الذي يؤدي إلى الإنهيار أو الإنحراف رغم إرتفاع مستوى الدخل ورغم ترف المعيشة ويرجع ذلك إلى التبرم من نعمة الحياة وإنكار الجميل والحمد من صاحب العطاء والطموح إلى صورة أخرى والإغراق في المطامع المادية وقد جاءت الوجودية الإلحادية والهيبية والعنف الطلابي والستريكرز والكرشنا وكلها دعوات منحرفة نتيجة لهذا الفهم الخطير الذي رافق الإنسان في هذا العصر، وكلها دعوات تدعو إلى أن يتحرر الإنسان من قيد كل دين وخلق وقيم وقد جاء نتيجة الوجودية تشكل جماعات الخنافس والهيبية التي ترفض التقيد بأنظمة المجتمع في ملبسه ومأكله وتقاليده وإظهار الرفض بإطلاق اللحى والأظافر والشعور ونتيجة لذلك تفشت روح الحقد والسخط والإنتحار.

وقد صرح ريتشارد سيدن أستاذ علم النفس بجامعة كاليفورنيا بأن حالة الإنتحاريين من الشباب الأمريكي متزايدة بصورة وبائية وأن السبب في ذلك يرجع إلى تعاطي المخدرات.

(٧)

وهناك ظاهرة العنف ممثلة في عشرات من الأحداث الخطيرة.

فقد دخلت الأم الأمريكية على أولادها الخمسة فقتلتهم بالمسدس ثم إنتظرت زوجها حتى عاد فقتلته أيضاً ثم ذهبت إلى البار لتشرب الخمر وتنتظر الشرطة، وهناك قصة الرجل الذي يهوى خنق السيدات والأرامل وقد قتل ستة عشر إمرأة، وقصة الشاب البريطاني الذي يعتدي على أطفال المدارس ثم يقطع رؤسهم.

(٨)

وهناك ظاهرة أصحاب الملايين الذين يموتون في مقتبل العمر في أسواق البورصة والعقود المالية وهم يراقبون إرتفاع الأسهم أو هبوطها، هذه أمراض التوتر العصبي التي خلفتها الحضارة، فقد ثبت أن التوتر العصبي لا يؤثر على النفس والعقل وحدهما ولكنه يحدث في الجسم الكثير من الأمراض العضوية، وإنه يجيء نتيجة الإنفعال وإضطراب النوم والملل من الحياة والعقد النفسية ويصل إلى حالة (إنفصام الشخصية) والهلوسة وإلى ألوان أخرى من الجنون الإجرامي الذي يدفع إلى الإنتحار أو قتل الزوجات أو الإعتداء على الأرواح.

والتوتر هو أهم سبب لإنتشار المخدرات وهو أهم أسباب الإنحرافات الجنسية وحب المادة.

(٩)

كذلك فقد تفشت ظاهرة إنتشار الأمراض الزهرية في العالم وخاصة في أوساط الشباب، يقول الدكتور دومالز فولد: إن العالم يشهد كل عام ثلاثة ملايين إصابة جديدة بالأمراض الزهرية وقد تم إستقبال الأمراض الزهرية غداة الحرب العالمية الثانية ثم اتبعت خطاً بيانياً متصاعداً منذ الخمسينات وفي الأعوام الخمس الأخيرة إرتفع معدل الإصابة بالأمراض الزهرية إلى أكثر من ٢٠٠ في المائة عند الرجال وخمسمائة في المائة عند النساء وتنتشر الأمراض

الزهرية خاصة عند الشباب من ١٨- ٢٤ سنة وأن نسبة إنتشار هذه الأمراض لا يعود إلى فقدان الوسائل الطبية والوقائية بقدر ما يكمن في التدهور الأخلاقي والإنحلال الذي تشتهيه المجتمعات الغربية.

ويتحدث الأطباء عن سرطان الصدر كخطر يهدد المرأة، وأن هناك ٢٥٠ ألف امرأة تموت سنوياً في أوربا وأمريكا بسبب سرطان الصدر وإن العدد يرتفع، فتموت امرأة بسبب سرطان الصدر بين كل ٢٥ امرأة تفارق الحياة بسبب أو آخر وطبقاً للبحوث الإحصائية في أمريكا حوالى ٤٠ ألف شخص دون سن ٤٥ يعانون من النوبات القلبية سنوياً يتوفى منهم ١٥ ألفاً.

(١٠)

وظاهرة تعاطي المخدرات والخمور واضحة الدلالة.وفي المجتمع الأمريكي نجد أن هناك ظاهرة سائدة هي انعدام ذلك الرباط الذي يربط الخلف بالسلف فلا صلة بين أفكار هؤلاء الشباب وأفكار آبائهم وأجدادهم وأن هناك ثورة عارمة على ماضيهم وحاضرهم معاً «وهي ثورة على كل قديم لخلق المجتمع المثالي الذي يحلمون به: مجتمع الفوضى والإباحية، والحب الشهواني العام، وأبرز مظاهر هذا المجتمع تفشي ذلك العقار الذي يؤدي إلى تعب العقل، وهناك ٨٥ في المائة من طلبة الجامعة الذين يتعاطون الماريجوانا، ذات الأثر الخطير في انحطاط المستوى الخلقي والفكري لدى الشباب.

وفي تقرير للأمم المتحدة عن إحصاء مدمني المخدرات وجد أن العدد يصل إلى الألف مليوت نسمة (ثلث سكان الأرض) بحثاً عن السعادة المزعومة وهناك إحصائيات مذهلة عن الأمراض العصبية والنفسية وقد تبين أن أشد المخدرات فتكاً هي التي ظهرت بفضل تقدم العلوم والتكنولوجيا وهي حبوب الهلوسة.

وقال الدكتور روبرت ريتشارد الذي قام بتشريح جثث أكثر من ٢٠٠ مدمن راحوا ضحية تعاطيهم جرعات كبيرة من المخدرات سواء عن طريق الحقن أو الفم ان الجثث كلها ضحايا مخدرات في سن المراهقة وان ٩٥ في المائة يعودون إلى تعاطي المخدرات من جديد وبجرعات أكبر وان انتشار ادمان

المخدرات بين الشباب في أمريكا قد أصبح يحدث بدرجة تزيد عن أي بلد من بلاد العالم وتتحدث التقارير عن المثلث القائم على حدود بورما وتايلاندولاوس هو الموقع الرئيسي لزراعة المخدرات في العالم وأنه يقدم ٥٠ في المائة من الافيون التي تستورده الولايات المتحدة وكذلك ١٥ في المائة من الهروين وتهرب أغلب هذه الكميات إلى أمريكا من منطقة على حدود بورما.

وهناك الدعوة إلى إكساب تعاطي المخدرات طابعاً قانونياً والتوقف عن مطاردة متعاطيها ووضع فقرة في القانون الجنائي ينص على معالجة- وليس معاقبة- مدمني المخدرات.

(١١)

وقد أفردت مجلة نيوزويك بحثاً عن تجارة الجنس وعن أربحها (كالأفلام السينمائية والخلاعة والكبت والمجلات المصورة وصالونات التمثيل والملاهي الليلية فضلا عن البغاء التقليدي) فتقول إن أرباح هذه التجارة تبلغ مليارى دولار في السنة، وان مدينة نيويورك أصبحت عاصمة هذه التجارة المربحة ففي خلال عامين انتقل عدد صالونات التمسيد من أربعة إلى ستةوأربعين، علماً أن هذه التسمية ليست سوى (تورية) للدعارة وتحايلا على القانون. إن ثمن عنانه ثلاث ممسدات تبلغ مائة دولار وبعض صالونات التمسيد يستقبل كل يوم مائة رجل ولا تعطل في نهاية الاسبوع.

ويقول مقرر معهد الأبحاث الجنسية جامعة أنديانا (١٩٥٨/٢/٢٥) إن واحدة من كل عشر سيدات في أمريكا تحمل قبل الزواج. وإن حالات الحمل هذه مالم تؤد إلى زواج سريع ينتهي إلى الإجهاض الصناعي بنسبة ٨٩٪ وإلى الولادة الشرعية ٦٪ وإلى والإجهاض الطبيعي بنسبة ٥٪ وإن من بين النساء الأمريكيات اللواتي على قيد الحياة وتقع أعمارهن في الفترة الصالحة للحمل قد تبين أن واحدة من كل سبع تعرضت أو ستتعرض لإجهاد صناعي قبل الزواج وان معظم السيدات غير المتزوجات اللائي تعرضن للإجهاد يباشرن العلاقات الجنسية بعد ذلك ولا يتوقف عن ممارستها سوى ٣٪ كما أضاف التقرير أن ٢٩٪ من السيدات اللاتي يحملن قبل الزواج يتزوجن أثناء الحمل ولكن نصف

هذه الزيجات تمنى بالفشل وأنه كلما كانت المرأة متدينة كلما كانت أقل تعرضاً للحمل قبل الزواج.

(١٢)

وفي دراسة أجرتها جامعة جونز هوبكنز في بلتيمور حول الجنس والزواج بالنسبة للفتيات الأمريكيات أقل من عشرين سنة ما بين ٥ - ١٩ سنة أجريت التجربة على ٤٦٠٠ فتاة ينطبق عليهن هذا الشرط وكانت النتيجة أن ٣٠ في المائة من الفتيات الأمريكيات دون العشرين قد مارسن الجنس دون زواج، وأن ثلث هذا العدد قد أدت ممارستهن للجنس إلى الحمل غير المشروع وأن بين جميع المواليد الذين جاءوا من أول حمل ٤٥ في المائة مواليد غير شرعيين والـ٥٥ الباقية فإن أكثر من نصفهم تمت ولادتهم قبل عقد الزواج رسمياً وتقول الدراسة ان الفتيات الأمريكيات أقل من عشرين سنة لا يحبذن استخدام وسائل منع الحمل.

الفصل الثالث

تسميم الآبار

أرجع الباحثون عوامل الابحاث والتحلل إلى معطيات السينما والكتاب والقصة وهي معطيات مسمومة فقد حرصت التلمودية المسيطرة على الفكر الغربي أن تغرقه في الفساد عن طريق مختلف وسائل القراءة والاستماع والمرئيات. وأن السينما كان لها دور خطيرفي هذا المجال وخاصة أفلام الخطيئة والخلاعة وهي تجارة خطيرة حققت نتائج مالية هامة، وليس في مجال المسرح والسينما وحده ولكن في مجال الصحافة ومن ذلك أن مجلة جديدة صدرت في أمريكا أسمتها (بلاي جيرل) وصاحبتها سيدة جميلة اسمها توني هولت. والمجلة مخصصة للنساء فقط فهي تنشر أسرار وخفايا الرجل وتنشر صور الشبان وهم عرايا تماماً وتكتب المقالات والدرامات حول تصرفات الرجل وميوله وإتجاهه وكيفية الإيقاع به والإحتفاظ به تحت قبضة المرأة، صدرت المجلة لترد على مجلة (بلاي بوي) الشهيرة بنشر صور أجمل نساء الدنيا صاحبة المجلة الجديدة تقوم بنفسها باختيار الرجال الذين تنشر صورهم عرايا ولهذا السبب فانها تقوم برحلات مستمرة حول العالم لاختيار من يعجبها من الشبان لتعرض عليه الوقوف تحت عدساتها.

ومن مثال ذلك:مسرح أوبرا كوبنهجن عاصمة الدنمرك، الذي يعرض باليه (إنتصار الموت) المأخوذ من قصة يوجين أونسكو وتدور حول أطماع الإنسان ونزعته الى الدمار حيث يقدم ٢٢ راقصاً وراقصة يغنون عرايا تماماً، لا تستر أجسادهم حتى ولا ورقة التوت (الاهرام ١٩٧٢/٢/٢٩).

وفي الغرب تتفنن شركات السينما في تقديم أفلام عن الشيطان: منها فلم طارد الشياطين الأمريكي الذي ظل يعرض عاماً كاملا وحظى بشاهدة ملايين

المشاهدين وقد أحدث حالات عجيبة من الرعب والإغماء، وأصيبت بعض النسوة بالإجهاض ومنهم من أصيب بالجرحة القلبية والفيلم كما يصوره المراقبون مخيف حقاً ومزعج جداً وهناك ظاهرة الإعجاب بعالم الشياطين والسحر والسحرة وهناك فيلم مرغب (ما ورائي) يتناول حدثاً فلسفياً خطيراً عن قوة إبليس وعن الطفلة المسكونة بالشياطين التي تعذب أشد أنواع العذاب وتتعرض لأبشع أنواع العروض الجسدية والنفسية.

هناك الكاهن الذي طرد الشياطين من جسد الفتاة يلقى حتفه في اليوم التالي بطريقة غامضة وموت الكاهن، كل هذه محاولات واضحة لفرض الفكر التلمودي الوثني المادي الخطير الذي يُحيي تراثاً قديماً من السحر عرف عن اليهود والترويج للشيطان الذي تعبده المحافل الماسونية وتعتبره إلهم وسيدهم، ويحاولون عن طريق السينما ترويج هذه المفاهيم وبثها في المجتمعات العالمية.

وهناك فيلم البرتقاله الآلية: المشهور الذي يصوّر سقوط الحضارة، نتيجة العنف والجنس. وتحكم الآلة في الإنسان، التي لم تعد تلتقي بالتحكم في العناصر الخارجية للحياة بل انتقلت إلىٰ مرحلة التعدي على بواطن تكوين النفس في أعمق هواجسنا وعواطفنا وغرائزنا الإنسانية أي أنها أخذت تحدث تعديلات مهمة في تركيب شحصيتنا.

ومن ناحية أخرى نجد محاولات إحتواء الأطفال وتثقيفهم منذ نعومة أظفارهم بهذه المفاهيم المسمومة ونشر الجنس والهيبية وعقارات الهلوسة وذلك بطرح دائرة معارف للأولاد في ثلاثة مليون كلمة تشرح هذه المفاهيم وتصدر في ٢٠ مجلداً وقد قام باصدارها ٧٥٠ مؤلف وخبيراً متخصصاً في مختلف الحالات التي تغطي كافة الأحداث وخاصة ما يتعلق بفنون البوب والهيبز والتعرف على ما يتصل بالجنس ومسرح العبث والمسرح ضد المسرح والموسيقى ضد الموسيقى والرواية ضد الرواية.

ولا يقف الأمر عند هذا بل أن هناك عمل آخر خطير في هذا المجال هو تقديم موسوعة ضخمة عن النكتة. فتورد ألفي نكته مستعينة بحوالي ٦٠ ألف مصدر تجمع كل النكت الفاضحة والجنسية والمكشوفة والبذيئة وتقديمها

للشباب والأطفال وهكذا نجد ان المحاولة تستهدف الأجيال الجديدة والأطفال ولا تكتفي بالشباب.

وانها قد سمَّمت جميع الآبار وخاصة الأدب والفن ونجد أسماء عجيبة من منحرفات وبائعات الهوى تتخذ حرفة الكتابة فتصدر قصص وروايات تبيع بالملايين ومن هؤلاء (اكسفيرا هولاندر) التي بدأت عملها في سن مبكرة فوق الأرصفة بائعة هوى ثم اصبحت تدير شبكة للدعارة بواسطة التليفون وأصبحت تتحكم في حياة عشرات من الفتيات الضائعات وكسبت كثيراً ولكنها لم تلبث أن احترفت الكتابة وأصدرت كتابها الأول الذي اعترفت فيه بأدق تفاصيل حياتها الحافلة ونجح الكتاب وتخاطفه الناس وترجم إلى عدة لغات عالمية بيع منه ما يقرب من ١٧ مليون نسخة، وكانت النسخة تباع بنحو ثلاثة جنيهات ونصف الجنية واسم الكتاب سيدتي وقالت الكاتبة أن الكتابة أكثر ربحاً ألف مرة من مهنة بائعة الهوى وهكذا تأتي هذه النماذج لتعطي للفتيات والأجيال الشديدة مفاهيم خطيرة عن تجارة الفساد والإباحية والتحريض على الإندفاع اليها وهكذا نجد أن الأمراض النفسية قد انتشرت بسبب إشاعة الفاحشة وأصبح مجتمع الغرب عبارة عن جماعات وأمم تتصارع وتقتتل باسم المصالح والأهواء وتحمل سلاح التدمير والسفك لتمارس القتال في سبيل السيطرة والإذلال للإنسان الآخر الذي لا يملك هذه الأدوات المدمرة. وصدق ذلك القائل «لقد كانوا قديماً يقيمون المذابح ليحرقوا عليها آحاد البشر إرضاء للآلهة ولكن الآن يقيمون بالملايين على مذابح آلهة الوثنية الحديثة: إله الربح الفاتكة وصنم الخمر الأعظم وكاهن الرذيلة البشع وشيطان السرعة المخيف.

ولم تعد الحروب القديمة شيئاً يقارن بالنسبة للحروب الجهنمية الحديثة. وليست السجون القديمة شيئاً يقارن بمعسكرات الإعتقال والإبادة التي عرفتها أرقى الشعوب وأين السموم القديمة التي كانت تدس في كأس أو طعام حلو المذاق إلى جانب الغازات السامة والنابالم تلقيها الطيارات على الآمنين والمحاربين على السواء، فضلا عن حملات الدعاية والإعلان وغسيل المخ

والتضليل، إن العلم يقدم إمكانيات هائلة للتقدم البشري ولكنها توجه إلى تدمير الجماعات.

ولقد كتب كثيرون يعلقون على هذه الظواهر الخطيرة ولكنها صيحة في واد.

يقول مؤلف كتاب (الشيطان خلق المدنية) أن هناك محاولة لتعهير الذات والتمتع الانتهازي وتحصيل المال بواسطة الجنس.

(٢)

ويطلق الأستاذ إيفان خررول عضو المجمع العلمي السوفيتي صيحة إنذار: إن الحياة العصرية تهيء للجنون حيث يقول: إن الانهيارات العصبية لم تزل تتزايد في العالم وأن الدماغ البشري سائر نحو التعطل العام. ذلك أن معظم العلماء ينسبون إلى الحياة العصرية أسباب الإضطرابات النفسية فان كانت هذه الحياة مع صخبها ودخانها وتلويثها لا تسبب الجنون فانما تهيء الإنسان العصري للجنون.

وقال الدكتور الفرنسي لاروش: أن الشر الأكبر في مجتمعنا الحالي ليس هو الضجة بحد ذاتها ولا التلويث الصناعي بل إنما إنكسار التوازن بين أفراد المجتمع فعندما يركب ساكن المدينة حافلة مزدحمة فليس السيارة ولا دخانها سبب الاضطرابات واختلال التوازن النفسي بل السبب هو أن هذا الرجل أصبح لا يسعه أن يمشي الهوينا في الشارع وهو يتحدث إلى جاره وعلى هذا فقد كسر المجتمع الحالي أشكال التوازن القديم وأصبح يتطلب من الناس مزيداً من المعارف ومجهوداً متواصلا للانسجام مع المقتضيات الجديدة، وكما أنه قطع الضرر عن أسرته وعن قريته الأصلية وحصره في بيت صغير المساحة فضلا عن أن هذا المجتمع صرف الإنسان عن تغذية عقله ونفسه ولم يحمه من المتناقضات المستعصية على ذهنه، ومن شأن هذه المظاهر خلق ظاهرة الجنون كمرض عصبي، وما تزال العوامل الاجتماعية المختلفة تزيد هذا المرض خطورة وتهيء الظورف المناسبة لظهور الاضطرابات العصبية واختلال التوازن.

ويشير الباحثون إلى أنه بالرغم من مظاهر الرفاهية الموجودة في العرض

إلا أن النواحي الإنسانية في علاقات الأبوة والبنوة قد بلغت حداً خطيراً فإن الآباء الذين بلغوا سن الستين لم يعد لهم مكان في منزل الأسرة وإنما هم ينفصلون بسرعة إلى منازل العجائز المعزولة عن المجتمع ليعيشوا بقية عمرهم مجردين من عطف الأسرة وتقام بيوت العجائز على مشارف المدن.

(٢)

وتركزت مئات الكتب التي صدرت في أوربا وأمريكا في السنوات الأخيرة على ظاهرة كتب السر والخفاء والسحر والقوى الهائلة التي تحرك الانسان دون أن يكون له سلطان عليها إلا إذا عرف سرها، وهذه الكتب وهذه الإهتمامات العالميـة ليس سوى مؤامرة موجهة ضد البشرية وهي محاولات لاغراق البشر في الأوهام ونقله عن ميدان الواقع وهي محاولة للهرب من الحياة ومن بين أشكال الهرب الإدمان والإسراف في الأكل والشرب والجنس والجريمة والعبادة يقول الكاتب: إن الإنسان في أوربا وأمريكا قد تعذب كثيراً ولا يزال رغم كل التقدم العلمي فانه عاجـز أو أنه يجد العلم عاجزاً عن تأمينه وعن إسعاده ورغم مئات الملايين وألوف الملايين في كل مكان. فان الإنسان يشعر أنه وحيد وأن وحدته تتأكد وإن هناك محاولات تسحق هذا الإنسان باثارة المخاوف في أعماقه وبأنه ليس مالكا لنفسه وأنه مسلوب الإرادة وأن قوة أخرى تتحكم فيه، ويقول هذه الدعايات أن الإنسان مثل الخرائب التي تسكنها القوى الشيطانية، وليست الموسيقى الحديثة إلا حفلات زار وأن أشهر فيلم في العالم هو فيلم طرد الشيطان.

وإذا أردت أن تقول أن العفريت هو الإنسان نفسه فأنت ضد العلم وأنت تمشي في الإتجاه المعاكس تماماً ضد الأديان القديمة وضد العلم الحديث، ومعنى هذا أن العلم الحديث جداً يعود إلى بعث الخرافات والأساطير.

أساطير بابل وآشور والإغريق:

ويرى كثير من الكتاب أن سر هذه المحنة الفكرية في الغرب أن الناس قد طرحوا العالم الآخر الذي تصوره الأديان ولم يعرفوا لهم غير عالم واحد هو: الأرض ولم يعرفوا لهم إلا أسلوباً واحداً هو المنطق العقلي والتجريب

العلمي فالغرب الآن قلق حائر في أزمته الراهنة ولا شيء في داخله يستطيع إنقاذه فإن التكالب على هذا العالم الواحد :عالم الواقع والدنيا قد أزاغ الابصار وأن وسائله المادية لا تمكنه إلا من فهم مظاهر الحياة السطحية.

(٤)

وهكذا ينكشف عمق فساد الحضارة الغربية، وإنهيار المجتمع الغربي الذي أصبح يعمل على نشر أخلاق المتعة والتحلل والهدف عنده هو إستفزاز شهوة الاستهلاك من أجل الازدهار الإقتصادي، أما العمل في حد ذاته فليس إلا حلقة فراغ بين سلسلة اللذات، وهو وقت تغيب عنه الحياة في مجتمع مدلل لا يعجبه شيء ولا شيء في نظره جميل.

ومعنى هذا أن التقدم الصناعي لا بد أن يدفع الثمن بالانحدار الإنساني وفقدان الأسس الأخلاقية حتى ليمكن القول أن علم التكنولوجيا الآن هو طريق إلى العالم البدائي وقد أصيب المجتمع الغربي بأمراض الشبع بكل أنواعه فى مختلف مبادئه: شبع في المأكل والملبس والعلاقات الجنسية والحروب والغربة والضياع، وهذا المجتمع المصاب بأمراض الحياة المكثفة المتخمة بينما تعاني المجتمعات الأخرى حياة الجوع بكل أنواعه.

* * *

وهكذا نجد الحضارة الغربية منذ إنحرافها الأول لم تزل تنحرف وتنحرف عن منابع الحضارات وأصولها حتى وقعت في الأزمة والمحظور، وأصبحت تواجه أظلم أيامها مع التقدم التكنولوجي الباذخ يقول الأستاذ زكي عبد القادر لقد أخذت تندفع شيئاً فشيئاً إلى المادة الطاغية وتهمل شيئاً فشيئاً القيم الروحية والخلقية حتى أصبحت على ما هي عليه الآن من تشتت وتفكك وهي مرحلة لابد منها .وهي ايذان بأن دورة الحضارة توشك أن تميل عنها الى أجزاء أخرى من الأرض ولعلها الشرق، وعندما تبلغ الحضارات الذروة الكشف والاختراع والعلم ومظاهر التقدم المادي كثيراً ما تصاب بتفكك في في الكشف والاختراع والعلم ومظاهر التقدم المادي كثيراً ما تصاب بتفكك في المجتمع وعلاقات أفراده وانصراف إلى لذة الجسد والإغراق في الماديات مما

يكون نذيراً بالانهيار، حدث هذا في الحضارة الأتروية وهي أرقى حضارة في بجر إيجه قبل الحضارة الأتروية وهي أرقى حضارة :المصرية والاغريقية وماتلاها من إستيلاء روما عليها وقيام الحضارة الرومانية ثم بعد ذلك الحضارة الغربية وقد وقع انهيار في أكثر الأحوال والحضارة في أوج ازدهارها المادي والقول بأن الحضارة الغربية لا تزال في أوجها قول ينقصه الدليل وينقصه التفكك المشاهد في مجتمعاتها والانسياق وراء النزف وإهدار القيم الإنسانية وينقصه ما هو معروف عن دور الحضارات وانتقالها من جانب الأرض الى الجانب الآخر.

الباب السادس

أولاً : المسلمون وحضارة الغرب
ثانياً : لقاء لا إنصهار
ثالثاً : نقد الحضارة الغربية



الفَصْـلُ الأوَّلْ
المسْلمُون وحَضَارة الغَـرب

هل الحضارة الغربية في ضوء ما رأينا صلحت لأهلها وقدمت إليهم مطامح الروح والنفس، الاجابة الصحيحة أنها عجزت عن ذلك حقيقة وإن كانت قد قدمت لهم ترفاً مادياً من أعلى المستويات ولكن هل الإنسان في تطلعه إلى الحضارة إنما يطمع أن تقدم له عطاءاً ماديا خالصاً أم عطاءاً إنسانياً جامعاً للروح والجسم والنفس والعقل جميعاً، فاذ كانت قد حجبت المعنويات وكل ما يتصل بالنفس والروح وتجاهلت هذا الجزء الحي في وجود الإنسان، فإنها لم تستطع الا أن تقدم عطاءاً مادياً كان له أبعد الأثر في تدمير الإنسان بإعلاء جانب منه على الجانب الآخر بينما لا يستطيع الإنسان أن يحيا إلا بالتكامل الجامع بين الروح والمادة والعقل والقلب والدين والعلم والدنيا ولآخرة.

لقد كانت الحضارة الغربية في انحرافها تستمد هذا الانحراف من تراثها القديم، ومن مفاهيمها المحرفة والمجزأة والانشطارية حول الدين والأخلاق والروح مما استطاعت معه أن تقدم للبشرية منهجا ناقصاً عاجزاً مبتوراً أشبه بالرجل الذي يمشي على رجل واحدة فاقداً رجله الأخرى، فكيف يمكن ان تستطيع هذه الحضارة أن تقدم هذه الأيدلوجيا المكسورة المنخورة المحطمة إلى الإنسانية، وكيف يمكن أن تقدمها إلى مفهوم حضاري أشد عمقا وأكبر ايمانا بحقيقة الإنسان وبتكامل أشواقه الروحية ومطامعه المادية واجتماع روح الدين والعقل والعلم والمادة من خلال رسالة السماء الحقة الخاتمة التي أعطته هذا المفهوم الجامع الكامل الذي كان مصدر حياته ومنطلق حضارته التي عمت أوروبا وآسيا وأفريقيا خلال ألف عام كاملة وامتدت إلى أوروبا نفسها وأعطتها أصول العلوم التجريبية ومفاهيم النفس والأخلاق والاجتماع فغيرتها تغيراً كبيراً.

بدأ هذا العطاء الإسلامي للغرب منذ القرن السابع الميلادي وامتد إلى القرن الخامس عشر، عندما نقلت حضارة الإسلام جماع علومها إلى أرض أوروبا بإنشاء معاملها ومصانعها وجامعاتها فوق أرض الأندلس (إسبانيا والبرتغال) ثم كان أن أزاحت أوروبا العرب والمسلمين وأخرجتهم بعد ثمانمائة عام من الأندلس وسيطرت على هذا التراث فترجمته ونسبته إلى نفسها ونمته وزادت فيه مرحلة دخل منها عالم الإسلام مرحلة المحاق ثم كانت الحملة الاستعمارية الضخمة التي قادتها أوروبا في العصر الحديث على عالم الإسلام (من ماليزيا والهند إلى بلاد العرب وتركيا وأفريقيا) حيث سيطرت بالنفوذ العسكري والتجاري والسياسي على هذه المنطقة الواسعة منذ سيطرت على الهند وجاوة ثم امتد نفوذها إلى البلاد العربية التي انتزعتها واحدة بعد أخرى الجزائر، مصر، السودان، تونس إلى نهاية الحرب العالمية الأولى حينما استطاع النفوذ الغربي الاستعماري الأوروبي السيطرة على هذا الشطر المواجه من البحر الأبيض التمرسط وفرض هذه الحضارة الاستعمارية الغربية ومحاولة حجب الحضارة الإسلامية بتراثها ومعطياتها في عالم القانون والتربية والسياسة والاقتصاد والاجتماع وفرض أيدلوجية ما يسمى الديمقراطية الليبرالية الغربية على هذه البلاد.

هذه هي القضية الخطيرة: قضية فرض الغرب لحضارته المادية على عالم الإسلام والعمل بكل ما يملك على سحق هذه الحضارة الأصيلة الممتدة الجذور، هذه الحضارة القائمة على تكامل المادة والروح فكيف واجه المسلمون هذه المحاولة وهل استسلموا لها أم واجهوها بقوة وأصالة وكشفوا زيفها وعجزها عن العطاء؟

الواقع أن لكل أمة حضارة وانه من خطل الرأي ان تحاول دولة مستعمرة ان تفرض حضارتها على أمة أخرى خاصة إذا كانت الدولة المستعمرة هي هذا الغرب بحضارته المادية المتحللة وكانت الأمة التي تجري معها المحاولة هي الأمة الإسلامية صاحبة الحضارة الجامعة المستمدة من مفهوم الدين الحق ولكن النفوذ الاستعماري الغربي بما وراءه من خلفيات مطامع امبراطورية الربا كان

يستهدف سحق هذه القيم الأساسية للمسلمين وذلك بدفنهم في هذه الحضارة المادية وإذلال نفوسهم وجباههم على عتبة الجنس والخمر والعري والفساد والدعارة ، هذه الألوان الوحيدة التي ساقها من حضارته إلى بلاد المسلمين بفكرة مسبقة هو أن السبيل الوحيد للسيطرة على هذه الأمة يتركز في احتوائها وصهرها في بوتقة الأممية العالمية حتى تفقد ذاتيتها ووجودها المعنوي الحقيقي وعندئذ تصبح داخل نطاق الاستعباد الحقيقي للغرب المستعلى بالجنس الأبيض صانع الحضارة والمدل بما أعطى من ثمرات الكشف والاختراع والظان أنه الذي ألقيت إليه مقاليد السيطرة على الأمم واستغلال ثرواتها وآستنزاف معطياتها .

وقد كشفت تجربة الاحتكاك في حدود قرن أو أكثر استحالة انصهار المجتمع الإسلامي في الحضارة الغربية مهما علت صيحات الدعاة الغربيين ومن تبعهم من الأذلاء التغريبيين بهذه الدعوة ولطمت وجوه هؤلاء الدعاة ضربات الحقيقة الواقعة ، وهي أن هذه الأمة لن تستطيع أن تذل أو تحتوي أو تنصهر مهما بلغت مرحلة من الضعف مكنت للنفوذ الأجنبي من السيطرة عليها سياسياً أو عسكرياً أو اقتصادياً على النحو الذي مرت به علاقة عالم الإسلام بالغرب .

ولقد امتدت دعوة حركة اليقظة في مهاجمة الحضارة الغربية حتى استقرت الصيحة على لسان أكبر قادة الحركة وفي أشد الأوقات حرجاً عندما قال الإمام الشهيد حسن البنا : إن علينا أن نقف في وجه هذه الموجة الطاغية من مدنية المادة التي حرفت الشعوب الإسلامية فأبعدتها عن زعامة النبي وهداية القرآن ولسوف تنهار حضارة الغرب ولا منفذ إلا الإسلام .

ولم تك هذه الصيحة جديدة في حياة المجتمع الإسلامي أو الفكر الإسلامي ولكنها كانت شعلة موقدة لم تنطفىء على مدى الأجيال ، اذ لم يكن شغل المسلمين الشاغل هو إنشاء شخصية حضارية بل يسمح لشخصية الحضارة الإسلامية من أن تذوب وتتلاشى في شخصية حضارية أخرى ،، إننا في الواقع لسنا في حاجة إلى أن تصرعنا هذه الحضارة وليس من مصلحتنا أن نذوب في

خضمها وأن تجرفنا بألوانها وأن علينا أن نجد شخصيتنا وذاتيتنا واضحة قائمة.

ولا ريب أن النفوذ الغربي قد اتخذ من الحضارة الغربية سلاحاً لتدمير المسلمين، وانه وجه كل أسلحته الحربية والعلمية والفكرية والاجتماعية والاقتصادية إلى العالم الإسلامي على حد تعبير (الفريد كانتول سميث) بقصد اذلاله وتحقيره واشعاره بالضآلة والخنوع يقول هنري دي كاستري ان أَحَدّ سلاح يستأصل به العرب وأمضى سيف يقتلون به هو الخمر، وقد جردنا هذا السلاح على أهل الجزائر فأبوا أن يتجرعوا فتضاعف نسلهم ولو قبلوه لأصبحوا أذلاء. ولقد جردوا أيضاً سلاح الربا يقول لوركينس: من الممكن ان تنسب جميع الآفات الاجتماعية إلى الربا وأنه عامل خطر في الحيلولة بين أي مجتمع وبين التقدم في المدنية والثقافة ونحن نراجع تلك الاطروحات التي قدمها الغرب المستعمر للشرق الإسلامي نجد روح التعصب والحقد والكراهية والرغبة في الإذلال واضحة في كل هذا المعطيات ذلك أن عقلية الرجل الأبيض مسممة تماماً بالتعصب العنصري والتفوق العرقي ورسالة الرجل الأبيض ولقد باتت الثقافة الغرّبية ولم تتخلى قط عن نصرانيتها وتعصبها. ولقد أعلن الغربيون في صلف ان حضارة أوروبا لم تقبل مزاحمة المسلمين لها وقالت إن المسلمين يجب أن ينتهوا عند جبال البرنيه.

ولقد كان من أخطر الدعوات التي روجها النفوذ الأجنبي في عالم الإسلام الدعوة إلى التفرنج أو إقامة التبعية الأوروبية الخالصة بحجة غلبة الغرب وسلطانه على العصر لحديث وأن على هذه البلاد والأمم الملونة ان تكون تابعة له وان تاريخ البشرية يجب ان يبدأ بتاريخ الغرب وأن تكون الكلمة الغربية هي منطلق الفكر للعالم كله.

(٢)

كانت أيدلوجية الحضارة الغربية التي طرحتها القوى الاستعمارية في افق العالم الإسلام تقوم على:

(١) الرغبة في التسلط والسيطرة حباً في القوة مع إعلاء شأن التمييز العنصري بين الأجناس وتفوق الجنس الجرماني الآري على جميع الأجناس،

وإثارة الخلاف بين الأديان والنحل والمذاهب والفرق وضرب كل القوى بعضها ببعض تحت شعار فرق تسد.

(٢) إعلاء شأن الظلم والسيطرة والإبادة والاستعلاء والاستعباد على الأمم الملونة غافلين أن ذلك هو من أسباب فساد العمران وهلاك الأمم.

(ثالثا) إعلاء عامل الترف والانغماس في الشهوات والملذات وتقديم الحضارة الغربية للعالم الاسلامي على أنها مجموعة من الشهوات والملذات والبغايا والخمور وإشاعة روح الانحلال المادي والاجتماعي وإفساد المجتمع وهدم الأسرة.

(رابعاً) الدعوة إلى تحطيم قيود الأخلاق وضوابط الخلق والقضاء على روح الجماعة وإعلاء شأن الفردية والطبقية والصراع.

غير أن روح الحضارة الإسلامية الأصيل ومفاهيم الاسلام النافذة التي حطمت كل المفاهيم الوافدة كشفت عن حقيقة لم يسع الغربيين إلا الإعتراف بها:

(١) بروز ظاهرة الأخوة التي تسمو على كل الفوارق العنصرية وتمحو كل الحواجز الاقليمية.

(٢) ظاهرة التسامح إزاء الأديان الأخرى «وقد كانت الحضارة الاسلامية تؤمن لأتباع الديانات الأخرى مكاناً معترفاً به داخل إطار الوحدة الكبرى، فقد فصل الاسلام بين العقيدة التي يجب احترام حريتها عند الآخرين وبين المصالح الدنيوية التي تعتمد على الكفاية والأمانة والتي لا تميز بين دين ودين في سبيل التعاون لتحقيق المثل العليا الانسانية، كذلك كشفت حركة اليقظة ان هناك اختلافاً وتمايزاً بين حضارة الاسلام وحضارة الغرب في مجال التوحيد والإخاء الإنساني ومفهوم العلم والاقتصاد بدون ربا ومتعة الحياة بدون أرباح.

وقد عجزت مادية الغرب بعد أن نشرت ظلام أيدلوجيتها وحجبت صفاء الحضارة الإسلامية أن تملأ الفراغ الروحي والخلقي العميق وقد حاول النفوذ الغربي أن يطرح هذه الفلسفات المادية في مجال الأخلاق والنفس والأصالة

والتربية وقدم النظرية السياسية الليبرالية الديمقراطية لعالم الإسلام ففشلت تماماً وعجزت عن العطاء، وكذلك فلسفة فرويد التي حطمت في الغرب البقية الباقية من روح الإنسان وقيمه الخلقية والدين.

وقد كشف الإسلام نفسه إزاء هذه التحديات على أنه قوة كبرى وموجه بعيد المدى.

يقول محمد أسد (ليوبولد فايس) إن الإسلام لم يبن لي دينا بالمعنى الشائع للكلمة بمقدار ما بدا طريقه في الحياة، ولا نظاماً لاهوتياً بمقدار ما تبينته منهاجا للسلوك الشخصي والاجتماعي قائما على ذكر الله، اني لم أستطع أن أجد في أي مكان في القرآن الجرماني ذكر لحاجة إلى (الخلاص) ليس هناك في الإسلام من (خطيئة) أولى موروثة تقف بين الفرد ومصيره، ذلك إنه ليس للإنسان إلا ما سعى ولا يطلب أيما نسك أو إماتة لفتح باب خفي إلى الطهارة ذلك أن الطهارة حق يرثه الإنسان بالولادة، والخطيئة ليست سوى زلة من الصفات الفطرية الإيجابية التي يقال إن الله قد وهبها لكل كائن من الناس، ليس هناك من أي أثر للثنائية في اعتبار الطبيعة الإنسانية، ذلك أن الروح والجسد يعقدان وحدة صحيحة كاملة.

لقد أجفلت بعض الشيء أول الأمر، لا لاهتمام القرآن بالأمور الروحية فحسب، بل أيضا بكثير من وجوه الحياة التي كانت تبدو لي تافهة دنيوياً إلا أنني مع الزمن بدأت أفهم أنه اذا كان الإنسان حقا وحدة كاملة من روح وجسد كما يؤكد الإسلام فانه ليس هنك وجه من وجوه حياته يمكن ان يكون من التفاهة بحيث لا يقع داخل نطاق الدين، ومع كل هذا فالقرآن لا يدع أتباعه ينسون مطلقاً أن الحياة في هذا العالم ليست إلا مرحلة من طريق الإنسان إلى وجود أسمى وإن هدفه الأساسي الأخير إنما هو ذو طبيعة روحية وإن الرخاء المادي كما يقول القرآن مستحسن ومستحب ولكنه ليس غاية في ذاته، ولذلك فان شهوات الإنسان بالرغم من أن لها ما يبرزها يجب ان تكبح وتضبط عن طريق الادراك الأخلاقي وهذا الادراك يجب ان يكون متصلا بعلاقة الانسان بربه فحسب بل بعلاقاته بغيره من الناس كذلك. يجب ألا نعنى باكمال الفرد فحسب بل أيضاً بخلق ظروف اجتماعية كتلك التي يمكن ان

تكون باعثة على النمو الروحي عند الناس جميعاً بحيث يستطيعون أن يحيوا حياة كاملة.

إن معالجة مشاكل الجسد (بخلاف ما جاء في العهد الجديد) كانت إيجابية إلى درجة قوية، إن الروح والجسد كلا في نطاق حقه كأنها بمثابة وجهين توأمين للحياة الانسانية التي أبدعها الله.

(٤)

كانت المحاولة هي طمس ضوء الحضارة الاسلامية السمح المشع بالنور والأمل والعدل والرحمة، وإخفائه خلف تلك الطروحات الفاسدة ظنا ان الأمة الاسلامية ذات التراث الغريق والأربعة عشر قرناً في رحاب التوحيد يمكن أن تكون مثل شعوب ألاسكا أو غيرها الذين احتوتها الحضارة الغربية وحصدت تراثها ودمرت قيمها البدائية، إنها كانت تعرف عمق هذا التراث واستعصائه على الاحتواء والانصهار ولكنها كانت تحاول بحقدها الدفين وأنانيتها وتلموديتها القضاء على روح الأخاء والسماحة والرحمة والتوحيد في هذه الأرض.

ومن ذلك كانت الدعوة الربوية وما وراءها من محاولات أخلاقية لتدمير القيم في نفوس الشعوب والأمم لتكون غارقة إلى الأذهان في الشهوات ولتسليم مواردها إلى أصحاب اللاليين اليهود الذين حاصروا الحضارة الاسلامية بالشيوعية والمادية والاباحية والوثنيات المختلفة وإحياء تراث السحر والأساطير.

كانت الدعوة الربوية من أخطر الأطروحات التي طرحتها الحضارة الغربية في أفق العالم الاسلامي، ولكن حركة اليقظة استطاعت أن تكشف الفارق بين التجارة والربا.

(ذلك بأنهم قالوا: انما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا) لقد دفعت الحضارة الغربية الدول الاسلامية الى الاقتراض والى السقوط في فوائد الديون ومنها سيطرت الدول الكبرى وامتلكت أرادات الدول والأفراد، وكان ذلك من قواعد الافلاس والسيطرة والاحتواء التي رسمتها بروتوكولات

صهيون في العالم كله لتسربت الأموال الاسلامية الى دول الغرب وقد استطاعت حضارة الاستعمار ذلك ووصف سوكارنو هذا وصفاً مزعجاً حين قال ان ما نهبته هولندا من أندونيسيا يستطيع أن يبني جسراً من الذهب بين أندونيسيا وهولندا . وهكذا وقع المسلمون في براثن التلمودية اليهودية وأعلن افلاسهم وجردوا من أرضهم وثرواتهم.

(٥)

وأعظم ما أحرزه الفكر الاسلامي في هذه الفترة هو انه اكتشف الغرب: فعرف وجهته في تدمير عالم الاسلام واحتوائه والسيطرة على مقدراته، عن طريق تقديم الجوانب الفاسدة والسلبيةمن حضارته لهدمه وتحطيم قواه وتعجيزه عن الحفاظ على مقدراته أو الدفاع عن نفسه وكان الخداع ببريق حياة الغرب وحضارته قد تسلط على الموجهين في المجتمعات الاسلامية وعلى بعض الذين تعلموا في الغرب والذين استطاع الغرب احتوائهم لخدمة التغريب والغزو الثقافي باسم تحضير المسلمين وترقيتهم وتزيين الطريق الغربي والأسلوب الغربي على انه السبيل الوحيد للنهوض والمنطلق الوحيد للحرية، كان الغرب قد جند زعماء المسلمين وقادتهم بالاستدانة والولاء والسفر الى الغرب كل صيف وكذلك كانت رحلات العلم وبعثات الطلاب مشوبة بأخطار كثيرة وكذلك كانت بعثات المستشارين الغربيين إلى بلاد المسلمين.

وكان من أخطر ما في عملية الاحتواء هذه هي تمزيق المسلمين تحت ولاءات كثيرة، انجليزية وفرنسية وروسية ماركسية بأخذ كل منها بالتبعية لتلك الأمة الأجنبية التي تعلمت فيها ومن ثم تقسيم المجتمع الإسلامي الى وجهات مختلفة حالت بينه وبين الالتقاء على القيم الأساسية للفكر الإسلامي

ولقد أمضى المسلمون زمناً طويلا في متابعة الحضارة الغربية على طريقها بالاستكشاف والاقتباس والتبعية، سارت الأمة زمنا وراء الأيدلوجية الغربية الديموقراطية ثم سارت زمنا وراء الأيدلوجية الماركسية ولما تقتنع بعد بأن الأسلوب الأصيل في بناء المجتمع الإسلامي انما يجب أن يصدر عن الأصالة الاسلامية القرآنية.

ولقد تعالت صيحات النقل والاقتباس من الحضارة الغربية فكانت من أشد الطروحات الفاسدة، عندما حاول دعاة التغريب دعوة المسلمين الى نقل االحضارة العربية بفكرها، تلك الدعوة التي أذاعها طه حسن ونقلها عن أرنولد تويني، وهي دعوة مسمومة لا ريب فيها، ولقد كشف دعاة اليقظة الاسلامية منذ وقت بعيد الى أن حاجة المسلمين من حضارة الغرب انما هو بالنسبة للعلوم والتكنولوجيا والمعطيات المادية وحدها، أما بالنسبة للمناهج النفسية والأخلاقية وأساليب العيش فان المسلمين عندهم منهجهم الخاص: منهجهم الجامع بين الدين والعلم والدنيا والآخرة.

ولقد كان فهم المسلمين للحضارة أنها ذلك الضوء الكاشف لتحرير النفس الانسانية من الوثنية وتحرير الانسان نفسه فرداً ومجتمعاً من العبودية والاذلال والاستبداد الذي فرضته عليه الحضارات المادية الوثنية: الفرعونية والفارسية واليونانية والرومانية، أما الحضارة بمعناها المادي وحده فانه ليس من مفهوم الإسلام، وان التبعية للآلة والمفهوم المادي للتقدم ليس هو مفهوم الاسلام والذي لا يضحي بالمادي في سبيل المعنوي، والذي يجعل للمجتمعات والحضارات ضوابط أخلاقية أساسية لا تتعداها، ولقد رسم القرآن للمسلمين طريق الحضارات التي خرجت عن الضوابط والحدود فانهارت ودمرت وذهبت ضحية إعلاءها للشهوات والأهواء والإباحية المضلة.

يقول الدكتور محمد حسين هيكل: أعتقد ان الشرق قد ضل طريقه في هذه العصور الأخيرة متأثراً بتعاليم الغرب فأصبح مثله الأعلى مادياً يحسب الحرية التي تسمو بها النفس الى المكان الأرفع ان ينال الجسم وأن تنال الشهوات كل مبتغاها، قد يكون للبيئة الطبيعية في الغرب ما يدفع إلى التطلع الى هذا المثل الأعلى ولكن بيئة الشرق الطبيعية وتاريخه منذ العصور الأولى وتاريخه بنوع خاص منذ انتشرت الحضارة الإسلامية في ربوعه يجعل هذا المثل الأعلى الذي يتخذه الغرب أمامه دون ما تتطلع إليه النفس الشرقية، لذلك كانت أمثال هذا الشرق تجري بأن من اعتز بغير الله ذل، ومن اعتصم بغير الله هان ولا تعرف شيئا في الحياة يعدل تقوى الله، وقد آثر هذا في الفن والنقش والموسيقى والأدب.

الفصل الثاني

لقاء لا إنصهار

(موقفنا من الحضارة الغربية)

لقد كان مطمح الغرب حين نقل إلى بلاد المسلمين تلك الجوانب الفاسدة والمبتذلة والإباحية من حضارته إلى الشرق أن يحتوي المجتمع الإسلامي ويجمد الحضارة الإسلامية ويفرض حضارته ولقد وصل إلى بعض ما أراد عن طريق النفوذ الأجنبي العسكري والسياسي وخاصة في محاولاته الخطيرة لاستقطاب عناصر من الأمة عن التعليم أو الثقافة أو السياسة ليكونوا دعاة له وحملة لأولوية التفرنج وقد استطاع تربية عديد من. الزعماء الذين فرضهم على الأمم والمجتمعات بعد أن صادر الزعامات الأصيلة بالاضطهاد والتعذيب حتى قضى عليها (والصورة التي يطرحها تاريخ البلاد العربية بعد الاحتلال الأجنبي تكشف عن هذه الصورة المتمثلة في طليعة قوية حاولت ان تواجه النفوذ الاستعماري فعمد إلى القضاء عليها خلال فترة امتدت جيلا من الزمن أمكن خلالها استقطاب زعامات جديدة تؤمن بالتغريب والتفرنج وتوالي النفوذ الأجنبي تحت اسم التقدم والتحضير). ومن هنا غلبت- فكرة الدعوة إلى « الفرنجة » أو إلى الأوروبية الخالصة بحجة غلبة الغرب وسيطرته على العصر الحديث وأنه لا سبيل أمام الأمم المحتلة غير التماس طريق الغاضب والانصهار في حضارته ونفوذه واصطناع أساليبه السياسية والاجتماعية بما أطلق عليه أسلوب العيش الغربي ولكن دعاة اليقظة واجهوا هذا المفهوم وكشفوا زيفه وأعلنوا أن هذه المجاراة تبعية بغيضة وأنه لو أخذنا بمعيار الغلبة في تقويم الحضارات لاختلت موازين القيم لأننا سنحكم بالفضل لكل غالب مهما كانت حضارته وقد رأينا شعوبنا مغلوبة حكم لها العلماء والمؤرخون بالفضل على الأمم الغالبة شأن الرومان مع اليونان والعرب والمسلمين مع التتر والمغول.

وان الحضارات الإنسانية انما تقاس بما تضيفه إلى البشرية من قيم التقدم والرقي وهو معيار خالد يعبث به العابثون ويتجاهله المتجاهلون ولكن البشرية لن تقدم الصوت المسموع الذي ينيط الفصل بأهله على مر العصور وإن انخداع هؤلاء التابعون الأرقاء فيما فرضه الاستعمار عليهم من قيم هذه الحضارات وغفلوا عن وجوه العجز البادية منها من انشطاريتها وماديتها وتحللها وبعدها عن قيم الدين والأخلاق والروح.

ولقد كان من أخطر محاولات الغزو الحضاري الغربي هو تلك الحملات الضخمة المثارة حول الحضارة الإسلامية للنيل منها ووصفها بالجمود والتحجر. بينما هي لم تتحجر لأنها تحمل طابع السيولة والإصالة والفطرة، وإن كانت قد توقفت عن العطاء ثمة وهكذا وقفت حركة اليقظة موقفاً صادقاً من تلك المحاولات وكشفت زيفها.

× محاولة نقل الحضارة حلوها ومرها.
× محاولة نقل تصور ان الحضارة لا علاقة لها بالدين أو الأخلاق.
× محاولة تبرير الحضارة لواقعها المنحرف.
× محاولة (تأويل) النصوص لتبرير الحضارة.

ولقد كان من الضروري ان يكشف الفكر الإسلامي زيف الحضارة الغربية في مقاتلها الحقيقية: قيامها على الربا، ونسبية الأخلاق والتصور المطلق وموقفها الفاسد من المرأة والأسرة والمجتمع، وموقعها من قصة الترف والتحلل، وكيف ان البناء الفكري للغرب يقوم على وثنية الترف والتحلل والتعرية وإن محاولة الذوبان في حضارة تمر بمرحلة الأزمة الخطيرة والإفلاس هو خطر كبير يقول الدكتور دون لويس روخاس أستاذ كرسى علم النفس في كلية طب جامعة غرناطة: انصحوا المبهورين بحضارة الغرب ان يعيدوا النظر فيها، احذروا يا عرب يا مسلمون ان تخلطوا تصوراتكم بالتصورات الأوروبية. أنتم أهل حضارة عريقة، وهي وإن كانت لم تصل من الناحية المادية الى مستوى الغرب إلا ان لها مقومات لا تملكها حضارة بلداننا الاوروبية إن الإنسان حاول ان يؤله نفسه بواسطة العلم والعلم وحده ولكنه وجدها أحقر وأقل مما كان يعتقد

فلا تتخلوا عن نزعاتكم المكتسبة من تصوراتكم الإسلامية ولا تتطلعوا إلى الحضارة الغربية تطلع المجد المعظم لشأنها: انها ستبلى.

«انني بعد دراستي وتجاربي اكتشفت أن العقل عجز عن كشف الحقائق المجردة وإن استطاعته محدودة بالظواهر وأن الإنسان لا يستطيع ان يصل الى درجة النضج الكامل إلا إذا استخدم قلبه مع عقله، وأن فرويد لم يفحص في خياته كلها أكثر من مائة مريض ولذلك فإن نظرياته فيها خطأ كبير نظراً لقصر دراسته ومعالجته النظرية.

إن أخطر ما يواجهكم هو الشعور بالنقص تجاه الأوروبية والثقة بكل ما يأتي من خارج البلاد».

(٢)

لقد تبين بوضوح للمراقبين الغربيين إعراض عالم الإسلام عن التبعية للحضارة الغربية، وفيما كتب هاملتون جب تحت عنوان تمرد الشرق الأدنى على الحضارة الغربية حيث كشف عما جلبه الغرب من مظاهر الحضارة لاحتواء حضارة الإسلام وصهر المجتمعات الإسلامية في بوتقته حين قدم لها الألعاب والتلهي ورحلات آخر الأسبوع وعلب الليل والإذاعة والسينما بصورة خاصة. وإدخال القوانين الغربية، وإقامة الجامعات على الطريقة الغربية وجلب الأساليب الدستورية التي تطورت في اوروبا الغربية بقطع النظر عن معتقداتهم، هذه التي يسميها المؤثرات الرئيسية التي اكتسحت ميدان المؤسسات العتيقة في المجتمع الإسلامي وأشار الى ان هذه القيم الغربية في صفوف المثقفين وأصحاب المهن ومما زاد هذه القيم رسوخاً في انفسهم إقامتهم ودراستهم في بلاد الغرب وإحاطتهم على تفاوت درجاتهم بالأدب الغربي.

ويحاول هاملتون في دهاء ومكر ان يقول بأن هناك وجوه لقاء بين العالم الإسلامي والعالم المسيحي الغربي مرجعها إلى أثر روماني مزعوم، بحيث يمكن ان يقال ان الفكر الإسلامي أخذ من الفلسفة اليونانية وهذا هو ما يردده طه حسين وغيره من التغريبيين في محاولة للقول بأنه اذا كان المسلمون في مرحلة سابقة قد أخذوا الفلسفة اليونانية فإن المسلمين في هذا العصر يأخذون الفكر

الغربي وريث الفلسفة اليونانية وهي محاولة مضللة رفضها الفكر الاسلامي الحديث.

غير ان هاملتون جب شهد بأن موقف المسلين كان واضح المخالفة لموقف الغربيين إزاء عنصرين على الأقل من العناصر المكونة للمجتمع وهي تفكير الغرب الخالص واعتقاداته الماورائية المعبر عنها بواسطة الدين (أي تصور الناس لعلاقتهم مع الكون والتقاليد الاجتماعية التي تربط هذه العناصر بعضها ببعض).

وتفسير ذلك فيما يعتقد أن المفهوم العقائدي الإسلامي يختلف عن المفهوم الغربي المسيحي وأن الغرب قد جاوز الدين إلى مفهوم عقلاني خالص يقوم على المادية، ومن شأن هذا كله أن أحدث تغييراً في التقاليد الاجتماعية أصبحت مباينة عميقة لصورة المجتمع الإسلامي ونقول إن العرب أعرضوا عن الفن والأدب اليونانيين لارتكاز هذا الفن على الوثنية وإيمان العرب بأن أدبهم هو المعبر عن روحهم ومشاعرهم وأن أي أدب آخر لا يطابق هذه المشاعر، وكشف هاملتون جب عن أهم عوامل تمرد الشرق الإسلامي على حضارة الغرب هو ان الإسلام لم يقبل قط بإنشاء مؤسسات تنظم الحكومة بصورة مطلقة وارتبط في جل الأحيان بنفوذ هيئة من ثقات الفقهاء «ليتقي فردية الضمير الديني في الحدود العقلية للتوحيد القرآني وتلك عبارته وهي في مجال المقارنة بين الشريعة الإسلامية وتميزها عن القانون اليوناني الروماني في الغرب» بما فيه من أشكال تخريبية وأبان «جب» عن ان الثقافة الإسلامية امتازت عن الثقافة الغربية بأنها جمعت بين العناصر العقلية والجمالية في الحياة الإنسانية ولا كذلك الغرب.

وأشار جب إلى ظهور الحركات الوهابية في أواسط القرن الثامن عشر وكيف انها كانت صيحة إنذار مدوية ضد هذا الانحطاط في العالم الإسلامي.

ويشير جب إلى أن المجتمع الإسلامي كان قد أصيب بالتفكك على نحو وجد الغرب من خلاله سبيلا إلى الدخول. ويقول: لم يكن نابليون هو الذي أدخل الأساليب العسكرية والفنية في مصر ولكن محمد علي هو الذي طلبها ولم يكن الغربيون هم الذين دعوا إلى قبول القوانين المدنية والمؤسسات النيابية

والتعليم الغربي وحرية الصحافة ولكن الشرقيين أنفسهم هم الذين طالبوا بها.

وهذا القول ولا شك ظاهر البطلان، ذلك لأن محمد علي حين أدخل الأساليب العسكرية لم يكن يرغب إلى إدخال النفوذ الأجنبي أو يقبل بالأحتواء الغربي ولكنه كان يريد استعمال الأدوات والاختراعات استعمالا حراً، ولم يكن المجتمع الإسلامي في الحقيقة هو الذي طالب بالقوانين الأجنبية فقد كانت شريعة الإسلام تكفيه وكانت قادرة على تحقيق الأمن له.

ولكن أتباع النفوذ الغربي الذين كونهم وشكلهم هم الذين حجبوا النظام الإسلامي واصطنعوا القوانين الوضعية وذلك اثمهم.

ونحن نعلم أن المثقفين المتغربين استطاعوا خداع مجتمعاتهم فترة طويلة حين حاولوا إقناع المسلمين بأن هذا الأسلوب الغربي قادر على منحهم الحرية والكرامة ولكن النتائج الخطيرة لذلك الاحتواء وتلك التبعية لم تكتشف إلا بالهزائم الخطيرة التي تمت بعد خلال أعوام ١٩٤٨/١٩٥٦/١٩٦٧ في ظل نفوذ غربي ماركسي مشترك ويعود هاملتون جب ليعترف بأن عناصر الحضارة الغربية التي أدخلت إلى بلاد الشرق الأدنى كانت عناصر مادية بحتة، وأن وراء الفنون الغربية روح المسيحية وروح الوثنية اليونانية.

ويقول جب: لقد انقضت ثلاثة أجيال منذ هجمت الأفكار والفنون الغربية على الشرق تلقى الجيل الأول مبادىء الغرب في صدمة مفاجئة وما هي إلا أن انبهر لها الجيل الثاني حتى جاء الجيل الثالث فاعتنقها اعتناقاً.

ويقول: يبدو أن المسلمين العاديين بل حتى المثقفين لم يكونوا مرتاحين لاعتناق هذه المبادىء واندلعت نار المعركة بعد أن تغلبت عليها الغلطة في أولها وأذكر في هذا الصدد كفاح الإخوان وهكذا تسير هذه الحركات التغريبية نفسها إلى النهاية التي ستفلس عندها إفلاساً أخلاقياً مبرماً.

ويشهد جب بأن الأصالة قد عادت مرة أخرى إلى الفكر الإسلامي فيقول: «إنني أزعم أنني أرى انبعاث جيل من قادة المجموع والتفكير الاجتماعي جعل لا ينحدر من الطبقات القديمة الحاكمة ولكن من أروقة لم تنفك إلى اليوم مسلمة شديدة المحافظة على إسلامها لم تقطع هذه العناصر علاقتها بالثقافة

الإسلامية قط، وكذلك فهي ستكون قادرة على ان تهدي إلى القيم الكافية في الحضارة الغربية فتفهمها. إن الشرقيين بين إقدام وإحجام يبحثون عن تعابير جديدة اكثر اصطباغاً بالطابع الشرقي، ويقرر جب الإفلاس الأخلاقي للنظم الديمقراطية ويقرر أن الشقة زادت في نظر الشرقيين وضوحاً لما رأوا من تصديع المجتمع الغربي بسبب ما فيه من عنصار داخلية مفسدة، وقد لاحظوا أخيراً انعدام الأمن في جميع أركان المجتمع الغربي وكان نتيجة هذا المشهد أن فقد الشرق كل ثقة بما للغرب من مذاهب أخلاقية.

ويقول: وقد زاد الأمر رسوخاً وثباتاً في نفوس الشرقيين ما اتضح من الاخطاء عند تطبيق المؤسسات الغربية في البلاد العربية. ونتيجة لجميع أخطار النظام الغربي ظهر في صميم الشعوب العربية عدم ميل ان لم نقل احتقاراً لكل ما له صلة بالحضارة الغربية.

ويقول: وقد رأينا حركيات كحركة الإخوان المسلمين ذات الإلهام الشعبي الخالص قد شرعت بعد تطبيق لبرامجها في قطع داء المؤثرات الغربية جميعاً، ولا مراء أن أصبحت كلمة (عصري) تمثل كلمة (غربي) على أنه يستحيل على العرب من ناحية أخرى أن ينسجوا على منوال الجمهورية التركية دون أن يكون نصيبهم الفناء.

إن الشرقيين بين إقدام وإحجام يبحثون عن تعابير جديدة وهم ليسوا ببرتاحين للتعاليم الوافدة راجعين إلى روح الاسلام.

٢ - تبعية القيادة

وقد أرجع الباحثون تأثير الحضارة الغربية في المجتمع الإسلامي إلى عدة عوامل ومن أهمها خضوع بعض قادة البلاد الإسلامية للحضارة الغربية وقيمها: تقول مريم جميلة في كتابها Islam Versus The West

إن الحضارة الغربية بقوتها الاقتصادية والسياسية الفائقتين استطاعت أن تبسط نفوذها على العالم كله ولما استطاعت الشعوب الآسيوية والإفريقية أن تنتصر في صراعها للحرية السياسية وتحررت من النير الأجنبي، كانت حضارتها المحلية قد تحطمت تماماً. إن قادة هذه الشعوب من غير استثناء تلقوا

ثقافتهم في معاهد أوربا وأمريكا، علمهم أساتذتهم أن ينظروا إلى تراثهم الثقافي القومي نظرة الاحتقار والازدراء، وكانوا قد خضعوا عقلياً لفلسفات الحضارة المادية وهكذا فان قادة آسيا وأفريقيا متفقون مع القادة الأوروبيين والأمريكيين على أن الهدف الاسمى والمثل الأعلى للمجتمع البشري هو تقدمه عن طريق الصناعات الثقيلة رفع مستوى الحياة المادية وتوسيع القوة الاقتصادية والسياسية.

أما الإسلام فانه ينظر إلى الرخاء المادي كوسيلة بينما ينظر الغرب إليه كغاية وهكذا كما يقول السيد أبو الحسن الندوي فإن مبدأ الحضارة الغربية الأساسي الذي ظل مسيطراً على جميع اتجاهاتها وتصرفاتها: هو الثورة على جميع القيم الروحية والدينية ومن هنا كان انخداع القادة بفلسفات المادة الغربية.

ومن أخطر أمثلة القادة الذين جندتهم المحاولة الغربية للسيطرة على المجتمعات الإسلامية عن طريق الحضارة الغربية مصطفى كمال أتاتورك في تركيا وسعد زغلول في مصر.

الفصل الثالث
نقد الحضارة الغربية

وقف قادة الفكر الإسلامي أمام المحاولات الخطيرة التي دعت إلى فكرة مسمومة يطلق عليها تزاوج الحضارات حين حاولت قوى كثيرة أن تقنع المسلمين بأن أسلوب الحياة الغربي هو السبيل الوحيد لتحررهم من مرحلة التخلف. وكانت هذه القوى ظالمة لنفسها وباطلة ولم تكن مخلصة في اسداء النصح وربما كانت ضالعة في الهدف الذي وضعه الغرب أمام كل محاولاته وهي احتواء الحضارة الإسلامية وصهر الفكر الإسلامي والأمة الإسلامية والمجتمع الإسلامي في بوتقته: بوتقة الحضارة الغربية بوصفها الحضارة العالمية القائمة والأخيرة وكانت الدعوة الجارية على ألسنة دعاة التغريب (طه حسين وسلامة موسى وحسين فوزي ولويس عوض من بعد) هي أن اقتباس الحضارة يستتبع اقتباس عقيدة الحضارة المادية الوثنية الإباحية.

وقد دحضت حركة اليقظة الإسلامية الفكرة المسمومة: فكرة تزواج الحضارات وفكرة توالد الحضارات وكشفت عن أنها- إن كانت تصح بالنسبة للحضارات، فإنها لا تصح كثيراً ولا قليلا- بالنسبة للحضارة الإسلامية إلا من جهة واحدة، من جهة ارتباطها بدين إبراهيم والتوحيد الذي امتد على جبهة الأمة العربية باسم الحنيفية والذي كان مصدر الأخلاقيات والقيم التي عرفها العرب والتي جاء الإسلام مصححاً لها ومكملا (إنما بعثت لأتم مكارم الأخلاق) فليست حضارة الإسلام وليدة السريانية ولا الإيرانية على النحو الذي يفهم البعض به الحضارة فهماً مادياً خالصاً.

يقول مصطفى عبد الرزاق: أريد أن تقتبس مصر أصول المدنية الغربية وتتشربها تشرباً لا أن تلبسها ثوباً معاراً حتى يكون وادي النيل عنصراً من

عناصر التقدم الإنساني وعاملا يشيد مع المشيدين في بناء الحضارة ويكمله. بيد أني أحب أن تبقى لمصر جوهر مشخصاتها فلا تفنى فناءاً في مدنية مها كانت عامة إنسانية فإن لها جوانب ليست إنسانية ولا عامة وجوهر مشخصاتها يرجع فيا أرى إلى اللغة والدين مستودع آدابنا وتقاليدنا مع أن اللغة والدين ينبغي أن يخضعا لسنة الله في هذا العالم، وسنة الله في هذا العالم أن يتحرك كل شيء وأن يتطور، لست أريد أن تكون مصر قطعة من أوروبا ولكن أريد أن تظل مصر قطعة من أفريقيا متصلة بآسيا على أن تزاحم الغرب بالمناكب في كل ما وصل إليه الغرب من عمل ومدنية رقي.

وعندي أن المدنية تراث إنساني تعاونت قوى البشر منذ العصور الأولى على تأسيسه وكل مدنية ناشئة فهي كمال لما خلقت البشرية من مدنيات سابقة وليست بدعاً يبتدىء ابتداء فما مدنية الغرب اليوم إلا تطور إلى كمال في مدنيات الأمم السابقة وما يكون لأمة من البشر قصرت عن هذه المدنية إلا أن تسعى إليها جهدها لتدرك شأوها وتنال منها نصيباً. فالذي أريده لمصر هو أن تكون مثل هذه الأمم الغربية في جميع وجوه الحضارة والرقي.

وما يقوله مصطفى عبد الرزاق يجري على ألسنة المفكرين المسلمين المعتدلين، فهم لا يرفضون الحضارة ولكنهم يدعون إلى تخير الاقتباس منها واستباق الأساس الإسلامي لهم يبنون عليه.

ويلقي عباس محمود العقاد ضوءاً أوسع وأعمق على هذا المفهوم: إن حالات المدنية لا تعدو طورين: ثقافة وحضارة أما الثقافة فهي تنحصر في العقائد والأديان والحالات النفسية التي تختلج في صدور الجماعات والأفراد فتدفعهم إلى العمل وهذه لا يمكن نقلها ولا يمكن أن تؤخذ بتعديل أو بدون تعديل لأن لكل أمة لها ثقافة خاصة بها، فثقافة فرنسا غير ثقافة انجلترا غير ثقافة ألمانيا. أما الحضارة فهي في الغرب: حضارة بخار وكهرباء وماكينات هذا المعنى متوحد في جميع أمم الغرب.

ويعمق هذا المعنى مصطفى صادق الرافعي فيقول: أخلاقنا قبل مدنيتهم: إن أوربا ومدنيتها لا تساوي عندنا شيئاً إلا بمقدار ما يحقق فينا من اتساع

الذاتية بعلومها وميولها فإنما الذاتية وحدها هي أساس قوتنا في النزاع العالمي بكل مظاهره. علينا المحافظة على الضوابط الإنسانية القومية التي هي مظاهر الأديان فيها ثم إدخال الواجبات الإجتماعية الحديثة في هذه الضوابط ومقاومة الإلحاد والنزعات السافلة وتخابيث المدنية الأوربية.

وهكذا يلتفت الرافعي رحمه الله إلى أعمق نقطة في الصراع: نقطة محاولة الغرب القضاء على ذاتية الشرق الإسلامي العربي وتذويبه في أتون الأممية وضرورة حيلولتنا دون ذلك بكل ما نملك.

ويتحدث الدكتور علي إبراهيم عما ينقص الحضارة الحالية: أشعر بأن الحضارة الحالية ينقصها عامل هام: هو الجانب الروحي فلعل رسالتنا للحضارة تكون في أن نكمل هذا النقص. إن العقلية الشرقية لم تمت وأراها نشطت في مصر وغير مصر، لا مراء أن تقدمنا سيكون في نطاق الحضارة الإسلامية ولن تبعث الحضارة الإسلامية على صورتها السابقة، فإننا مضطرون إلى الاقتباس من الحضارة الراهنة ثم نضيف من عندنا، إننا لن نرتمي في أحضان المدنية الحاضرة ولن نرفضها كلها، ولا غنى لنا إن تعيش.

ويقول الدكتور منصور فهمي: أن من يهيبون بالشرقيين ليتخذوا من الغرب إماماً يأتون به في كل أمر ويصطنعوا مظاهر ححضارته من غير تحفظ فمذهب يكشف عن عدم حساب القائلين به لأثر المحيط والوراثة وشأنها في تهيئة الأفراد والشعوب. الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا أبد الآبدين: كلمة حق إذا أريد بها تقرير أن لكل أمة مشخصات تغاير بها الأمم الأخرى وأن لكل طائفة من الأمم أسلوب من الحضارة والثقافة تتميز به عن الأمم الأخرى رغم كل عوامل المحاكاة والاقتداء. إن للشرقي طابعه وللغربي طابعه. وأنه من الخطأ الواضح عند من يطالبون الشرقيين بانتحال مدنية الغربيين إلا بقدر عوامل الجنس والمحيط الجغرافي والحياة الاقتصادية ومجموعة التاريخ وأثر العقائد وغير ذلك من العوامل التي من شأنها أن تكون نفسيات الشعوب فتتغير بتغير تكوينها الثقافات وتكوين الحضارات وتقديرها وقبول صنوفها.

ويكتشف الدكتور منصور فهمي: أن للمحيط حكمه القاهر في العمل

على تفاوت الطبائع في الشعوب واختلاف الأمزجة في أهلها ولم يغفل أحد من المشتغلين بعلوم العمران منذ أرسطو وابن خلدون ودى جوينيو وما تزال أثر المحيط في الحياة الاجتماعية، فإذا أضفنا إلى ذلك آثار الجنس والعناصر الأخرى من التقليد والتراث الأدبي والفتوحات الخاصة لكان من حقنا أن نجزم بأن الحضارة التي قدها الغرب لنفسه واصطنعها لجسمه واصلحها لقومه لا تصلح لأن تكون لباساً وفاقاً لأهل الشرق وأممه.

(٢)

وقد كشف الباحثون المسلمون فساد نظرية تزاوج الحضارات أو الاندفاع في التبعية للحضارة الغربية ودحضوا ذلك الاتجاه الخطير وكشفوا عن أن اتجاه التغريب والغزو الثقافي إنما كان يهدف إلى خلق الشعور لدى المسلمين والعرب بالعجز والنقص والتخلف حتى يسلم المسلمون أنفسهم للانصهار في الحضارة العالمية التي تمر بأشد مراحل الفساد والانهيار والتمزق، حتى نعلن إفلاسنا حضورياً ونقرر عجز فكرنا الإسلامي عن إيجاد مفهوم أصيل في مواجهة هذه الموجة الصاعقة وقد واجهت حركة اليقظة الدعوة إلى احتقار الماضي الإسلامي وانتقاصه وبينت الضرورة الملحة التي تلزم كل أمة بتقدير ماضيها ودراسته والعناية به والارتباط به وعدم الانقطاع عنه، واستمداد الثقة بالنفس من مواقفه المشرفة وصفحاته المتألقة والإفادة بما قد يلم به من عيوب وسقطات وهزائم وانتصارات على حد تعبير الأستاذ على أدهم الذي يقول: «قد يكون الماضي بعيد الأعراق طويل الآماد، وقد يكون مقصوراً على عشرات السنين، ولكن سواء طال هذا الماضي أم قصر فإن الأمة التي تنسى ماضيها وتتنكر له وتهمل ذخائره ولا تعبأ بتراثه وتتقدم في طريق الحياة خالية الوفاض من الذكريات تصبح من الأمم المتخلفة، ذلك أن ماضي الأمة هو رأس مالها المتجمع على مدى السنين وبدون رأس المال لا تستطيع أن تبني مجداً أو توجد لها مكانة، وأنه لا بد من مراعاة التوازن بين الماضي والحاضر، وأن الأوروبيين يعتقدون أن الذي حفظ الحضارة الغربية من الانهيار خلال فترة ألف وخمسمائة سنة هو النظام الأمبراطوري والنظام البابوي وأن من دلائل

سلامة الحضارات هو اتساع صدرها واتساع آفاقها وسمو تفكيرها وخلوص نيتها وقدرتها على فهم موقف غيرها من الأمم وأنه لا بد للأمم في مواجهة الاقتباس من الحضارات الأخرى هو الجمع بين الثبات والتغير والاستقرار والمرونة وأن الحضارة الإسلامية لا تقبل الاقتباس للجوانب التي تحطم كيان الأسرة. أو الأخلاق.

وقد تعددت الأبحاث عن نقد الحضارة الغربية وقالت: إن نقد الحضارة ليس معناه إنكسارها جملة فلا شك أن الحضارة الغربية قدمت للبشرية جوانب كثيرة من أسباب الترفيه والرفاهية ولكن النقد ينصب على انحرافها عن رسالتها وانفصالها عن الهدف الإنساني الذي يدفع إلى التسامي بالبشرية وحفظها من التدمير التكنولوجي والتحطيم الإباحي جميعاً.

كذلك كشفت الدراسات عن أن أزمة الحضارة الغربية تكمن في ماديتها الخالصة أعني أن فلسفتها وعلومها وأخلاقها واقتصادها واجتماعها وسياستها وقانونها تدور في فلك المادة وتتنكر للنظرة الانسانية ووجود خالق غير المادة (الإلحاد) فأصبحت العلوم التجريبية منطلقاً إلى تدمير الإنسان ولقد انصهرت الأخلاق في النفعية المحضة والخلاعة والمجون والرياء وصارت الأيدلوجيات واسطة الاستبداد والظلم وأن نقل هذه الرياح السموم إلى أفق المجتمعات الإسلامية سيكون عاملا خطيراً في تأخيرها من جديد عن أن تلتمس الأصول الحقيقية للنهضة وللقدرة على امتلاك إرادتها، وعند المسلمين من المناهج الإنسانية الجامعة بين الروح والمادة ما يمكنهم من إعادة بناء مجتمعهم واستئناف حضاراتهم للعطاء والبث للبشرية وليس للمسلمين وحدهم.

والمعطيات الإسلامية للحضارة - هي وحدها - اليوم بعد أن تكتشف فساد هذه الأيدلوجيات الغربية شرقية وغربية - هي وحدها القادرة على العطاء، على إعطاء النفس البشرية أشواقها الروحية ومطامعها المادية في إطار متكامل جامع يحول بين الإنسان وبين التمزق والغربة والغثيان الذي يتفشى الآن في أفق الحضارة الغربية ولا تجد منه مخرجاً، فقد دعا الإسلام إلى بناء الحياة وحفظ الدنيا وتنميتها ولكنه جعل ذلك في إطار الأخلاق ومن أجل إقامة

المجتمع الرباني القائم على الرحمة والسماحة والإخاء الإنساني وأنه حرم الإسراف والإباحية والفساد والرشوة والزنا والخمر وكل العوامل التي تدمر الإنسان نفسه وتحطم المجتمعات وتنسف الحضارات في النهاية.

وكشفت الأبحاث الإسلامية على أن الغرب يشرف على حضارة تنهار بعد أن انحرفت تماماً عن طريق الله أما المسلمون فيشرفون على مطالع فجر مشرق بعد ليل طويل، فمن الغريب أن تتفق وجهتي نظرهما إزاء أمر من الأمور، إن هؤلاء ينظرون إلى الأمور من نهاياتها بينما ينظر المسلمون إليها من أوائلها.

(٣)

ويصل إلى قريب من المعنى الاسلامي المؤرخ توينبي في موقفه من الحضارة الغربية عندما يقول: إنني أكره الحضارة الغربية المعاصرة.

ذلك أن كراهيتي للغرب كراهية صحيحة بعيدة عن الزيف والتهويل منذ شببت عن الطوق وأنا الآن في الخامسة والسبعين من عمري اشتبك الغرب في حربين عالميتين وأخرج للدنيا مذاهب الشيوعية والفاشية والاشتراكية القومية كما أخرج موسوليني وهتلر ومكارثي. هذه الكبائر الغربية تجعلني أنا الغربي اشعر بالقلق وعدم الأمان ولقد اقترف رفاقي الغربيون من أهل ألمانيا جرائم كثيرة فكيف أضمن أن مواطني الانجليز لا يمكن أن يقترفوا مثل هذه الجرائم بل إننا اقترفنا بالفعل جريمة قتل بضعة آلاف من المدنيين في بور سعيد ١٩٥٦ فما ذا الذي يمكن أن أتعفف عن اقترافه بعد هذه الجناية النكراء. بل ما الذي يمكن أن احجم عنه أنا شخصياً لو أن هذا الجنون الغربي المعاصر استطاع أن يمتد إلى ويقتنصني . هتلر الرفيق في الحضارة الغربية سيظل يرود حياتي المقيدة بالغرب حتى النهاية إلى جانب هذه الجرائم والآثام الغربية المعاصرة ثم عيوب الحياة الغربية المعاصرة التي أراها منفرة. فلئن كنت أكره العبودية السالفة للفرد إزاء الجماعة في اليابان فإني أكره أيضاً بصورة أشد ذلك المدى المتطرف الذي ذهبت إليه الفردية في الغرب المعاصر ولا سيما ما يلدونه هناك من قسوة وجحود تجاه العجائز، فالحضارة الحديثة المعاصرة فيما أعتقد أول حضارة ليس فيها للمتقدمين في السن مكان يحتلونه بصورة طبيعية في بيوت

أولادهم البالغين وكلما نظرت إلى هذه القسوة الغربية بعين غريبة وجدتها شيئاً مروعاً.

وأكره كذلك آفة أخرى من آفات الغرب المعاصر هي المكانة الضخمة التي يحتلها الاعلان فقد استطاع الاعلان أن يجعل من استغلال بلاهة الناس فناً رفيعاً بحيث يزج بسلع لا لزوم لها إلى داخل الحلوق المتخمة في حين يظل ثلثا سكان العالم من البشر في الوقت الحاضر في حاجة ماسة إلى ضرورات الحياة العادية. وإنها لصورة سيئة قبيحة لمجتمع الرخاء وإذ أنظر ورائي إلى تاريخ الغرب الماضي الذي كانت آثاره موجودة في طفولتي لا يسعني إلا الاعجاب بما كان في القرن التاسع عشر في الغرب من تأجيل موفق لسن اليقظة الجنسية ولسن الخبرة الجنسية والشغف الجنسي إلى ما بعد سن البلوغ الجسدي بوقت طويل.

إن عبرة التاريخ تعلمنا قبل كل شيء أن جهود الانسان موجهة إلى التسامي بالطبيعة أو التسامي فوقها في المقام الأول بحيث نتغلب على الحدود العضوية التي ورثناها عن أسلافنا من الحيوان.

إن الغرب المعاصر: أصيب بنفاذ الصبر وجنون التعجل بحيث يعبد السرعة للسرعة وكل هذا من شأنه أن يسبب تخريباً شديداً في تربية أطفالنا لأننا نستعجل نموهم بالقوة كما يسمن الدجاج في مصانع التفريخ ومزارع الدواجن فيؤدي بذلك إلى تنبيههم لمسائل الجنس قبل الأوان بل قبل البلوغ البدني والفعلي وبذلك يحرمهم من حقهم الانساني في التمتع بالطفولة البريئة.

ويبلغ الأمر أشده في تناقضنا في تربية الجيل الجديد، ففي حين ينخفض سن التنبه الجنسي وسن الخبرة الجنسية أيضاً إلى المستوى الذي كان سائداً في الهند نعمد إلى إطالة مدة الدراسة في معاهد التعليم، ومعنى هذا أننا نرغم فتياننا وفتياتنا على التنبه الجنسي في سن الثالثة عشرة، ثم نطلب إليهم أن يطيلوا مدة دراستهم بحيث يتحرجون وقد اقتربوا من سن الثلاثين، فكيف نتوقع منهم أن تنصرف أذهانهم إلى التعليم طوال السنوات الست عشرة بعد ذلك التنبه الجنسي المبكر وهم في معاهد التعليم المختلط. إن هذا السلوك

الجنسي السابق لأوانه من أكبر النقائص الأخلاقية في حضارة الغرب المعاصر.

ومن نقائصه: إصراره على تقسيم العالم إلى شظايا تزداد صغراً بمرور الأيام فقد نقسم الجنس البشري إلى عدد هائل من الدول. وأنا أكره الوطنية وأكره التخصص وكلاهما من سمات الانحراف الغربي.

ثم بعد ذلك أنا أكره العلم الغربي لأنه اكتشف هذه المخترعات المهلكة فهل تستطيع حصافة رجل السياسة أن تحول بينه وبين القضاء على ذلك العالم الغربي أو تصفيته »اهـ.

الباب السابع
موقف الغرب من حضارة الإسلام

أولاً : ذاتية الحضارة
ثانياً : أرنولد توينبي وحضارة الإسلام
ثالثاً : مونتجري وات : الإسلام والحضارة
رابعاً : روجيه جارودي: الحضارة العربية



الفصل الأول

ذاتية الحضارة

لم يكتف الغرب بأن حاول فرض حضارته الغربية على المجتمع الإسلامي بل إنه عمد إلى تشويه الحضارة الإسلامية وحمل عليها حملة ضخمة عنيفة بغرض تمزيقها وإفسادها في نظر أهلها وأثار حولها عشرات الشبهات المسمومة وكان أخطر ما ووجه به المسلمون هو إنكار دورهم الرائد في بناء المنهج العلمي التجريبي: ذلك الدور الحافل الضخم الذي امتد أكثر من ألف سنة والذي « سرقه » الغرب من الاندلس ثم أقام [مؤامرة الصمت] الضخمة ضد هذا العطاء وأنكر فضل العرب والمسلمين وادعى دعوى عريضة أنه بنى حضارته الغربية دون الاعتماد على دور المسلمين وقد كشفت الحقائق التاريخية هذه الظاهرة وتبين من بعد مدى عظمة هذا الدور، كشفه رجال منصفون من الغرب نفسه: أمثال جوستاف لوبون ودرابر وهو نكه.

بل إن الأمر لم يتوقف عند هذا فقد هوجمت الحضارة الإسلامية هجوماً عنيفاً لم يعرف له التاريخ شبيهاً ولو لا قوة دعائم هذه الحضارة وثبات جذورها لأطاحت بها هذه المحاولة المتعصبة الظالمة.

ولقد كان أخطر ما واجه الحضارة الإسلامية هو انتقاصها في نظر أهلها وشبابها وأجيالها الجديدة حتى نشأ في نفوسهم ذلك الإحساس بالاحتقار لها والإعجاب بحضارة الغرب.

وكان دور حركة الاستشراق في هذه المحاولة كبيراً وعنيفاً، فقد طرحت كثيراً من الاتهامات والشكوك والشبهات في أفق المجتمع الإسلامي فهم تارة يسمونها الحضارة العربية لإخراج المسلمين منها أو وصفها بأنها حضارة إسلامية لم يشترك العرب فيها فيقول ما سينون أن كبار رجال الحضارة الإسلامية لم

يكونوا ذوي دم عربي محض بل موال مستعمرون ومرة ثالثة يردونها كلية إلى الآثار الإغريقية الرومانية ويذهب رينان إلى أبعد من ذلك فيرمي الحضارة الإسلامية بأنها حضارة سطحية ظاهرية أنتجتها عقول أوربية ومنابع يونانية وفارسية وهندية وغنوصية وأنه حينما وجد الإنسان ظاهرة من ظواهر الحضارة في البلاد العربية فلا بد من إرجاعها إلى عقلية آرية وإنتاج غير سامي.

وقد واجه المفكرون المسلمون عشرات من هذه السموم والشبهات وكشفوا الهدف الأصيل منها وهو الخوف من أن تصل مفاهيم الإسلام صحيحة إلى أهل الغرب العاطش المتطلع اليوم إلى منهج حياة يرد إليه روحه فيؤمنوا به فهم يعملون على تشويه الإسلام وحضارة الإسلام بتقديمه مهلهلا، ومن ثم كانت كتاباتهم المشوهة وأحكامهم الزائفة التي قوامها الجهل والسطحية والتعصب وأنهم يهدفون إلى اقتناص الحجج المغلوطة لتقدم إلى المبشرين كي يستغلوها في الجدل وقد أشار إلى ذلك (كرا دي فو) حين قال: إن محمداً ظل وقتاً طويلا معروفاً في الغرب معرفة سيئة فلم توجد خرافة أو فظاظة إلا نسبوها إليه وقد أشار الباحثون إلى مدى ما قدمت الحضارة العبودية السابقة فيقول: إنه بعد حضارات العبودية الفارسية والفرعونية والرومانية وعبادة الفرعون والعنصر فإن الحضارة الإسلامية استطاعت أن تقدم للبشرية الاخاء والعدل والرحمة والسماحة وأن ترفع العبودية عن العقيدة وعن علاقة الإنسان بالإنسان وذلك هو جوهر الحضارة الإسلامية التي قامت على التوحيد الخالص وبذلك فهي تختلف أشد الاختلاف عن الحضارات اليونانية وغيرها.

ويقول الدكتور جواد علي: إن الحضارة الإسلامية ليست حضارة عنصرية وقد اشترك فيها كل الذين اعتنقوا الإسلام بصرف النظر عن أجناسهم فإن القرآن واللغة العربة والتوحيد كانت هي العناصر التي شكلت الفكر الذي صنع الحضارة.

(٢)

كذلك فقد كشف الباحثون وجوه الالتقاء ووجوه الخلاف بين الحضارة الإسلامية والحضارة اليونانية الرومانية، يقول محمد أسد: إن ذكر المدنية الرومانية على أنها -على حد ما على الأقل- مسئولة من ناحية القرابة عن المادية في أوربا المعاصرة قد تكون له رنة استغراب في آذان الذين سمعوا الموازنات الكثيرة بين الامبراطورية الرومانية والامبراطورية الإسلامية الأولى «إنهما لم يكونا متقاربين » إذ ليس ثم شيء ما مشترك بين الامبراطوريتين الإسلامية والرومانية، ما عدا أنهما امتدتا فوق أراض شاسعة وشعوب متباينة ولكن كلتا الامبراطوريتين ظلت في مدة بقائها خاضعة لقوى توجهها توجيهاً خاصاً وكان عليها أن تحقق أهدافاً تاريخية متباينة ثم إنه يلاحظ من حيث نشوء الامبراطوريتين أيضاً فارقاً عظيماً بين الامبراطورية الإسلامية والامبراطورية الرومانية.

لقد اقتضى الامبراطورية الرومانية ألف عام حتى نمت إلى اتساعها الجغرافي الكامل وحتى بلغت نضجها السياسي بينما الامبراطورية الإسلامية بزغت ثم بلغت أشدها في مدة وجيزة تبلغ نحو ثمانين عاماً، كذلك نجد أن انقراض الامبراطورية الرومانية الذي نتج نهائياً من هجرات الهون والقوط تم في قرن واحد وكان تاماً حتى أنه لم يبق من تلك الامبراطورية سوى بضعة معالم من الأدب والبناء.

والامبراطورية البيزنطية التي يظنها بعضهم عادة وارثة الامبراطورية الرومانية كانت وراثة لها بمعنى أنها استمرت في الحكم على بعض الأراضي التي كانت يوماً جزءاً من الامبراطورية الرومانية.

«أما الامبراطورية الإسلامية المنطوية على الخلافة فقد خضعت على خلاف ذلك لبعض التبديل في حدود والاختلاف في الأسر الحاكمة ولكن بناءها ظل في أساسه واحد أو فيما يتعلق بالغزوات الخارجية على الامبراطورية الاسلامية حتى غزوة التتر والمغول التي كانت أعنف من جميع ما خبرته الامبراطورية الرومانية فإنها لم تستطع أن تهز شيئاً من النظام الاجتماعي ولا من الحياة

السياسية المستمرة في امبراطورية الخلفاء مع أنها بلا ريب ساعدت على الركود الاقتصادي والفكري في الأعصر التي تلت في مقابل القرن الواحد الذي كان كافياً لتقويض الامبراطورية الرومانية.

«كانت الحاجة ماسة إلى أكثر من الف ومائتي عام من الانحلال البطيء حتى يتم الانهيار السياسي نهائياً. ذلك الانهيار الذي تمثل في إلغاء الخلافة العثمانية والذي تبعته العلامات الأولى فقط للتفكك الذي نشهده اليوم في البناء الاجتماعي الإسلامي ، هذا الأمر الذي يحملنا على الاستنتاج بأن القوة الباطنة والتماسك الاجتماعي في العالم الاسلامي كانا أرقى من كل شيء خبره العالم من طريق التنظيم الاجتماعي.

إن الامبراطورية الإسلامية التي ترامت في ثلاث قارات وكانت أثناء ذلك محاطة بدول معادية لها قوة عظيمة وفيها حيوية بالغة ومنذ فجر التاريخ والشرق الأدنى- كما ندعوه- هو البؤرة البركانية لقوى اجتماعية وفكرية متنازعة، ولكن حضانة النظام الاجتماعي الإسلامي ظلت -إلى عهد قريب على الأقل- منبعه. وليس لنا أن نبحث بعيداً عن تعليل هذا المشهد الرائع: إن تعاليم القرآن خلقت هذا الأساس المتين وسنة رسول الله أصبحت إطاراً من الفولاذ حول ذلك البناء الاجتماعي العظيم. أما الامبراطورية الرومانية فلم يكن لها مثل هذا العنصر الروحي لتحفظ عليها كيانها ومن أجل ذلك انهارت بسرعة ولكن لا يزال هناك فارق آخر بين تينك الامبراطوريتين العظيمتين، فبينما لم يكن في الامبراطورية الإسلامية قوم ممتازون وبينما خضعت القوة فيها لنشر فكرة اعتبرها حملة المشاعل فيها الحقيقة الدينية السامية. كانت الفكرة التي تقوم عليها الامبراطورية الرومانية هي الاجتياح بالقوة واستغلال الأقوام الآخرين لفائدة الوطن الأم وحده.

وفي سبيل الترفيه عن فئة ممتازة لم ير الرومانيون في عنقهم سوءاً ولا في ظلمهم انحطاطاً وأن العدل الروماني الشهير كان عدلا للرومانيين وحدهم، ومن البين أن اتجاهاً لهذا كان ممكناً فقط على أساس إدراك مادي خالص للحياة والحضارة «إدراك مادي» هذبه على التأكيد إطار فكري ولكنه على كل

حال بعيد عن جميع القيم الروحية، إن الرومانيين في الحقيقة لم يعرفوا الدين وأن آلهتهم التقليدية لم تكن سوى محاكاة شاحبة للخرافات اليونانية، لقد كانت أشباحاً سكت عن وجودها حفظاً للعرف الاجتماعي ولم يكن يسمح لها قط بالتدخل في أمور الحقيقة بل كان عليها أن تنطق بالرجز على ألسنة عرافيها إذا سئلت عن مثل ذلك، ولكن لم يكن ننتظر منها أن تمنح البشر شرائع خلقية ».

(٣)

كذلك فقد كشف الباحثون مدى الفوارق العميقة التي كانت في القرون الوسطى بين حضارة الإسلام وبين مجتمعات الغرب حيث أشار جوستاف لوبون: حين كانت الحضارة الإسلامية في إسبانيا ساطعة جداً رأينا أن مراكز الثقافة في الغرب كانت أبراجاً يسكنها إقطاعيون متوحشون يفخرون بأنهم لا يقرأون وأن أكثر رجال النصرانية معرفة هم الرهبان المساكين الجاهلون الذين كانوا يقضون أوقاتهم في أديارهم ليكشطوا بخشوع كتب الأقدمين النفسية فيكون عندهم من الرقوق ما هو ضروري لنسخ كتب العبادة وظلت همجية أوربا طويل زمن عظيم جداً من غير أن يشعر بها ولم يبد فيها بعض الميل إلى العلم إلا في القرن الحادي عشر وفي القرن الثاني عشر على الخصوص متى ظهر فيها أناس رأوا أن يرفعوا أكفان الجهل الثقيل عنهم ولووا وجوههم شطر العرب الذين كانوا أئمة وحدهم.

ويقول بارتلمي سنت هيلر: أسفرت تجارة العرب وتقليدهم عن تهدئة طبائع أمرائنا الإقطاعيين الغليظة في القرون الورسطى ومنهم تعلم فرساننا أرق العواطف وأنبلها وأرحمها من غير أن يفقدوا شيئاً من شجاعتهم فأشك أن تكون النصرانية وحدها قد أوحت اليهم بذلك مهما بولغ في كرمها وكان للحضارة الإسلامية تأثير عظيم في العالم وأن هذا التأثير خاص بالعرب وحدهم فلا تشاركهم فيه الشعوب الكثيرة التي إعتنقت دينهم فالعرب هم الذين هذبوا البرابرة الذين قضوا على دولة الرومان بتأثيرهم الخلقي والعرب هم الذين فتحوا لأوربه ما كانت تجهله من عالم المعارف العلمية والأدبية والفلسفية

بتأثيرهم الثقافي فكانوا متمدنين لنا ستة قرون .

ويصور هذا المعنى جوستاف لوبون فيقول: ما عجز عنه الأغريق والفرس والرومان في الشرق قدر عليه العرب بسرعة ومن غير إكراه: أنظر إلى مصر التي كان يلوح أنها أصعب أقطار العالم إذاعانا للمؤثرات الأجنبية تجد أنها نسيت في أقل من قرن واحد إفتتاح عمرو بن العاص لها ماضي حضارتها الذي دام نحو سبعة آلاف سنة معتنقة ديناً جديداً ولغة جديدة وفناً جديداً إعتناق مبيناً ليدوم بعد تواري آلامه التي حملتها عليه.

لم يغير المصريون دينهم سوى مرة واحدة قبل العرب وذلك حين ضرب قياصرة القسطنطينية بلاد مصر بتحطيم جميع آثارها أو تشويهها وجعلهم القتل عقوبة من يخالف حظر عبادة إلهتها القديمة وهكذا عانى المصريون الدين الجديد الذي فرض عليهم بالقوة أكثر من إعتناقهم له وما كان من تهافت المصريين على نبذ النصرانية ودخولهم في دين الإسلام يثبت ضعف تأثير النصرانية فيهم.

وما وفق العرب له في مصر من التأثير البالغ إتفق لهم مثله في كل ما خفقت فوقه رايتهم كأفريقية وسورية وفارس وبلغ نفوذهم إلى بلاد الهند التي لم يدخلها إلا عابري سبيل ولا نرى في التاريخ أمة ذات تأثير قادر كالعرب فجميع الأمم التي إتصل بهم العرب اعتنقت حضارتهم ولو حينا من الزمن فلما غاب العرب عن مسرح التاريخ إنتحل قاهروهم كالترك والمغول تقاليدهم وبدوا للعالم ناشرين لنفوذهم.

كذلك أشار الباحثون إلى أن روجر بيكون وفرنسيس بيكون كانا هما بالذات تلاميذ الحضارة الإسلامية الذين نقلوا منهج العلمي التجريبي الإسلامي إلى أوربا وقد دعا روجر بيكون إلى التخلص من مذهب أرسطو لعدم كفايته ودعا إلى الأخذ بالتجربة وكان المسلمون قد سبقوه إلى نقد منهج أرسطو، وهكذا هدمت أوربا دعائم منطق ارسطو بأدلة المسلمين وبمنهجهم التجريبي وليس صحيحاً ما يدعيه التغريبيون من أن روجر بيكون هو صاحب المنهج التجريبي الغربي.

وذلك المنهج القائل بأن الملاحظة والتجريب هما أساس العلم وأصله، والواقع أن بيكون إنما استقى المنهج التجريبي وتلقى علومه في الجامعات الاسلامية في الأندلس وذلك ما شهد به الباحثون الغربيون أنفسهم.

وقد أشار كثيرون إلى دور أسبانيا الاسلامية في الحضارة الغربية قال القاضي أرثر لا يسى العالم المؤرخ الأمريكي : إنني كفرد انتمي إلى العنصر السكسوني أعترف بأننا مدينون لكم معشر العرب وانتم الدائنون، يرجع الناس أصول مدنيتنا إلى المدنيتين اليونانية والرومانية مع أن آثارهما كانت في زوايا النسيان زمن العصور المظلمة ولو لم يقدر لهما أن تتناولهما أيدي العرب لأصابهما الوهن والاضمحلال. إن أسبانيا العربية هي مدرسة أوربا التي علمتنا الآداب والفلسفة والعلوم ومنكم تعلمنا الكسور العشرية، وحساب التفاضل والمقابلة، ومنكم علمنا القول بكروية الأرض، وأن الكرة الفضية التي أهداها الشريف الإدريسي الجغرافي العربي الأول إلى روجر الثاني أمير نابولي في منتصف القرن الثاني عشر الميلادي (القرن السادس الهجري) خير شاهد على ما أقول، وذلك قبل رحلات كولومبوس بخمسمائة سنة وقد حسب محيط الأرض بأربعة وعشرين ألف وخمسمائة ميل وشعركم وأدابكم كانت منهلا استقى منه الأدباء الفرنسيون والطليان والانجليز وةمنه جاء دور البعث والتجديد إلى أوروبا.

وتحدث كالوس أريان العالم الأسباني عن التأثير العربي في الثقافة الأسبانية وأشار إلى ما أسماه العطاءات الإسلامية في اللغة والأدب والفكر والفن وتلك التي أسهمت فيها ثقافة الإسلام في تكوين الثقافة الأسبانية بصفة خاصة والثقافة الأوربية بصفة عامة.

(٤)

بل إن بعض الباحثين الغربيين لا يرى بأساً من الاعتراف بالخطر الخطير الذي أحدثه الإسلام حين قسم البحيرة البيضاء المتوسطة إلى أمتين، يقول هنري بيرين المؤرخ البلجيكي:

لقد كان البحر الأبيض حلقة إتصال مستمر بين الحضارات التي

نشأت حول شواطئه منذ العصور القديمة ولكن الحدث الكبير الذي قلب الأوضاع رأساً على عقب هو ظهور الإسلام الفجائي في القرن السابع الميلادي على مسرح الأحداث وما كان من إستيلائه على الموانى الشرقية والجنوبية والغربية من البحيرة الأوربية ومنذ ذلك الوقت أصبح البحر المتوسط سداً وحاجزاً بين الغرب والشرق بعد أن كان معبراً وأداه إتصال على الرغم من أن الدولة البيزنطية بفضل أسطولها استطاعت أن ترد المسلمين عن بحر إيجه والادرياتيك والشاطىء الجنوبي في إيطاليا إلا أن غرب ذلك البحر المتوسط سقط كاملا في أيدي العرب فطوقوه من الجنوب ومن الغرب بفتحهم المغرب وأسبانيا وباستيلائهم على جزر البليار وكورسيكا وسردينيا وصقلية.

وتبعاً لذلك فإنه منذ القرن الثامن الميلادي حكم على التجارة الأوربية بالموت في تلك المنطقة وانتقلت حركة النشاط التجاري كلها نحو بغداد عاصمة الامبراطورية الإسلامية، إن هذه الشواطىء التي قامت عليها في يوم من الأيام علائق ترتكز على وحدة العادات والحاجات والأفكار قامت عليها حضارتان : بل عالمان متعاديان غريبان يواجه احدهما الآخر، وهما عالم الهلال وعالم الصليب. إن التوازن الاقتصادي الذي قام منذ العصور القديمة واستمر حيا بعد الغزوات الجرمانية قد انتهى أمام الغزو الاسلامي، حقا أن دولة شارلمان قد صدت العرب عن التوسع فيما وراء جبال البرانس ولكنها لم تحاول شاعرة بعجزها أن تسترد البحر المتوسط ومن هذه الحقيقة الجوهرية ظهر بالضرورة نظام إقتصادي جديد ».

وهكذا كشف المصنفون من كتاب الغرب زيف تلك الدعاوى التي حملها الاستعمار والتغريب والغزو الثقافي ليفسدوا بها علاقة الأمة الإسلامية بتاريخها وحضارتها.

(٥)

كذلك لم يصب كبد الحقيقة أولئك الغربيون الاستعماريون الذين حاولوا أن يجعلوا الحضارة الإسلامية جزءاً من حضارة البحر المتوسط فقد كانت حضارة الإسلام تستمد من منابع جديدة مختلفة عما استمدت منه حضارات

البحر الأبيض، فقد كان استمدادهم من التوحيد: دين الله الحق.

ومن تلك الأيدلوجية الإسلامية الجامعة- إن صح لنا أن نطلق هذا التعبير على نظام الإسلام ومنهج الله الخالد، الذي أعطى البشرية حصيلة ضخمة من الأساليب والقيم والمفاهيم والنظم التي تختلف بل ويتعارض في كثير منها مع المنهج البشري القائم على الظن وما تهوى الأنفس، والذي صنعه البشر بعقولهم من خلال الفلسفات والمذاهب عندما جاءهم العلم بغيا بينهم وخروجاً عن منهج الله الذي أرسل به الأنبياء جيلا بعد جيل وفي كل أمة وفي كل عصر من عصور البشرية، حتى أصبحت البشرية راشدة ومؤهلة لتلقى رسالة جامعة خاتمة لكل الأمم والبيئات وإلى يوم الدين.

الفصل الثاني
أرنولد توينبي وحضارة الإسلام

افرد ارنولد توييني للإسلام كعقيدة وحضارة مكانا بارزاً في كتابه:

An Hislouan approach to Religion.

يشهد للاسلام- كما يقول فؤاد شبل- بأنه اكثر العقائد الدينية في العالم إتفاقا مع المنطق وأشدها صراحة في الإيمان بمبدأ الوحدانية الجليل وأعظمها وضوحا في إدراك الاستشراق الالهي وتسامي الذات الإلهية ويقرر توينبي أنه لم يصبح للمسيحية تأثير سياسي وديني في العالم إلا بعد رسالة المسيح بثلاثمائة سنة وبفضل إعتناق الامبراطور قسطنطين المسيحية شأنها في ذلك شأن البوذية حيث لم يعد دورها بارزاً في السياسة الدولية إلا بعد وفاة البوذا بمائتي سنة وبفضل إعتناق الامبراطور (أشوكا) لها.

أما الإسلام فقد أخذ تأثيره على مجريات الأمور العالمية في غصون حياة الرسول نفسه بل لقد تولى هو شخصياً صياغة تلك المبادىء التي اثرت في السياسة العالمية ولا تزال تؤثر فيها حتى اليوم، بعد ما استقر المقام بالنبي في يثرب دلل على أنه عبقرية سياسية إلى جانب كونه صاحب رسالة دينية عظمى. ولقد كان لصدقه السياسي ونبل أخلاقه وسماحة نفسه في الشروط المعتدلة غاية الإعتدال التي صالح على أساسها أعدائه، وأمكن بعد فتح مكة أن يمد سلطانه على جزء كبير من الجزيرة العربية وكان ذلك إرهاصا بإستيلاء أتباعه بعد وفاته بعشرين سنة على جميع املاك الامبراطورية الساسانية وعلى افضل اجزاء الامبراطورية الرومانية ويعزو بعض المؤرخين ظاهرة إنبعاث الإسلام على هذه الصورة، إلى عدم إرتباطه بقيود دينية وفلسفية تعتبره كغيره من العقائد الدينية والتقاليد فالمسيحية إرتبطت بالديانة والتقاليد اليهودية

إرتباطاً وثيقاً وكذلك إرتبطت البوذية بالتقاليد والفلسفة الهندوكية.

ويسلم توينبي بإعجاز الإسلام في إنبعاثه وفي إستيلائه بضربة واحدة على أملاك الامبراطورية الساسانية وعلى مصر وسوريا.

ويرى توينبي أن الإسلام لم يوفق في التأثير على سكان المناطق التي غزتها جيوشه بتغيير أنماطها الدينية والفنية والثقافية فقد استمرت عملية الصياغة الفكرية ستة قرون ولما تستكمل حتى الآن بدليل وجود أقليات مجوسية ومسيحية ويهودية في العالم الاسلامي في الوقت الحاضر بفضل تسامح المسلمين مع أهل الكتاب تطبيقاً لأحكام القرآن.

ويرد توينبي توفيق الإسلام في الفوز بولاء الملايين من اتباعه إلى تسامحه مع تقاليد تلك الشعوب التي تحولت إلى الاسلام وإستيعابه الكثير من تراثها القومي بما لا يضير وجوده ومبادئه الأساسية.

ويشير توينبي إلى ظاهرة اللغة العربية والمكانة الرفيعة التي تشغلها منذ قرر الخليفة الأموي عبد الملك إتخاذها لغة الادارة في جميع أنحاء البلاد الخاضعة لسلطان الإسلام ويعتبر توينبي المصنفات الأدبية أعظم المجالات التي إنتصرت فيها اللغة العربية ويدلل على أن مصادر التاريخ الإسلامي منذ حياة الرسول إلى الآن تتسم بالغزارة الفائقة فضلا عن يسر تتبع سيرة الرسول بالتفصيل مما لا يتوافر للباحث في حياة المسيح وهو ما يحتم على الباحثين الغربيين الالمام باللغة العربية.

ويرد توينبي إتساع الامبراطورية الاسلامية بعد أن إنبعث من نواة صغيرة للغاية إلى التوفيق المذهل للعقيدة الاسلامية وحدها. فقد أصبحت الدولة الاسلامية بعد غزو العراق وفارس وسوريا ومصر وارثة للامبراطورية الساسانية بينما ورثت ملك الدولة الرومانية، وبفضل موارد العراق الاقتصادية بالذات وفي ظل حكم العباسيين تحولت الدولة الإسلامية إلى امبراطورية كبرى.

ويقارن توينبي بين الإسلام والمسيحية فيقول:

تبلورت مهمة المسيح في أذهان اليهود في خلع نير الامبراطورية الرومانية عن كواهلهم وأن يقيم مسيحهم لهم مكانها امبراطورية دنيوية يكونون فيها

الجنس السيد، ولن يوفق مسيح اليهود في إنجاز غاية اليهود المرتجاة إلا بفضل تأثير (ياهوه) ربهم وحاميهم فإذا افتقر إلى هذا السند الالهي كان الفشل حليفه والاخفاق رائده وقد رأى خصوم عيسى من اليهود في رسالته الروحية تهديداً لنزعتهم المادية. أما الإسلام فيرى توينبي أنه قام بعدة أمور:

- الانبعاث بفضل التوفيق بين الآراء في المذاهب المتناقضة التي تخلفت عن أنقاض حضارة مندرسة.

- إتجهت للتبشير بمادتها للعالم بأسره بهدف إجتذاب البشرية.

- أرسلت دعائمها في بداية الأمر داخل نطاق دولة عالمية ثم وفقت تدريجياً بالفوز بالولاء الروحي لسكان هذه الدولة.

ويرى توينبي: أن إندفاع الاسلام هو آخر الانتفاضات التي استكملت طرد الهلينية من جنوب شرق جبال طوروس. كذلك يرى أن العقيدة المسيحية إنتهت إلى مصالحة بينها وبين السلطة الزمنية تنازلت بمقتضاها عن رسالتها الروحية بتولي أتباعها تنفيذ غايات السلطان وأهدافه الدنيوية مقابل إسباغ السلطة الدنيوية حمايتها على أتباع العقيدة الدينية ويعتبر توينبي تردي المسيحية في معضلات السياسة أبشع الكوارث التي حلت بالمجتمع الغربي، ذلك أن السيد المسيح قد أبى إلا أن تظل رسالته روحانية بحتة.

وبينما يرى توينبي أن العقيدة الدينية تبدأ ايدلوجية الطابع ثم يستخدمها السلطان الدنيوي لكفالة الغايات القومية وتحقيق أهدافه الخاصةإلاانه يستثنى الإسلام من الخسارة التي تصيب الرسالات الروحية إذا استظلت بالسلطة الزمنية وعنده أن الاسلام قد وفق فعلا إلى أن تصبح العقيدة الدينية لمجتمع أصابه الانحلالات ونجح الإسلام على الرغم من اقحامه في الشئون السياسية منذ البداية ومضيه في ذلك السبيل بطريقة قاطعة لم تعهد في الأديان التي عرضت لها دراسة التاريخ.

ولنا في هذه النقطة تحفظ وتحفظات على مفهوم توينبي للإسلام فهو لايستطيع أن يتجاوز فهم الأديان اللاهوتية ويظن أن الإسلام دين عبادة وربما حاكمه على مفهومه للمسيحية أو غيرها، ومن هنا تجئ أخطاؤه في القول بأن

الأديان يطوعها الحكام للأهداف السياسية للسلطات الدنيوية وللحكم السياسي ذلك أن الإسلام جاء منهج حياة ونظام مجتمع وطبق كأسلوب للحكم السياسي والاجتماعي والإقتصادي في عهد النبي من خلال نظامه الإجتماعي الذي قدمه لتغيير الحياة والذي لم تظفر به المسيحية من حيث أنها دين مكمل لرسالة موسى وانها وصايا وليس لها شريعة كاليهودية.

كذلك يخطىء توينبي في القول بأن الحضارة الإسلامية تأثرت بالعناصر السورية والهلينية القديمة وقصة مقاومة الفكر الإسلامي للهلينية والوثنية والعناصر الباطنية والمجوسية واضح ومشهور.

* * *

وفي الجزء الثالث من موسوعة ارنولد توينبي: ملخصاً لدراسة سيرة الرسول ﷺ السياسية يلخصه الأستاذ فؤاد محمد شبل في قوله: يقرر توينبي أن الرسول قد شيد بعد عودته من المدينة إلى مكة أسس امبراطورية يمكن مقارنتها بالإمبراطورية التي شيدها قيصر بعد عودته من بلاد الغال إلى روما: ويقول إن الإسلام إستعاد الدولة العالمية السورية التي قضت عليها الهلينية بفعل الغزو المقدوني ثم الروماني وأن يستولي على مجال الامبراطورية الساسانية بأسره فان اللاهوت والدولة متماثلان متطابقان في المجتمع الإسلامي حيث المصلحة والمضمون الدنيويين يهيمنان على المعنى الديني بحيث تبدو علاقة الكنيستين الأرثوذكسية والبروتستانية بالسلطة السياسية أن قورنتا بالإسلام وكأنهما بعيدتان عن السياسة والشئون الدينية، على أن التحام الدين بالدولة في الإسلام قد ظل دواما المثال الأعلى لبعض بابوات المسيحية الغربية الذين تاقوا لتخليص المجتمع المسيحي من إنقسام إلى كنيسة ودولة عن طريق إدماج الدول المتكثلكة والإقليمية المسيحية في القرون الوسطى الغربية في كيان إجتماعي تضمه كنيسة روما بين طياتها ويطلق عليه إسم الجمهورية المسيحية لكن الكنيسة عجزت تماماً عن تحقيق أملها المرتجى في إندماج الدين والدولة مثلما حققه الإسلام.

ويصحح ارنولد توينبي بعض المفاهيم الخاطئة عن الحضارة الاسلامية

فيقول: على الباحث ان يسقط الفكرة التي ما برحت شائعة عن المسيحية والتي تغالي في تقدير أهمية القوة المادية في إنتشار الإسلام، ذلك أن الأسس التي نطلبها خلفاء النبي للإيمان بالدين الجديد إقتصرت على تأدية عدد من الفرائض لم تنقد المطالبة بها الجماعات الوثنية البدائية، حيث لم يكن الاختيار بين الإسلام والقتل ولكن بين الاسلام والجزية وتلك سياسة مستنيرة كذلك فإن إنتشار الاسلام الواسع في غضون الفترة بين ق ٩- ١٣ م- كان حصيلة حركة شعبية تلقائية ولم ينجم قط عن ضغط سياسي.

وفي القرن ١٣م غدا الاسلام دينا عالمياً تفيء إلى ظله الأقوام التي هجرها دعاتها بعد إنهيار الخلافة العباسية.

ثم يقول: ولا جرم أن عقيدة دينية توفق التوفيق كله تحت تأثير فضائلها الذاتية في الفوز بولاء الناس لها عقيدة لا يستند بقاؤها أو زوالها على اهواء تلك النظم السياسية التي تنشد العقيدة لتحقيق غايات تجافي مبادئها، ليعتبر إنتصارها الروحاني أعجب مثل بيد أنه وان حلت الكوارث بالأديان العالمية الأخرى التي رنت لتحقيق غايات سياسية فان الاسلام عكسها لم يؤثر هذا الاتجاه الذي دمر الأديان الأخرى روحانياً.

ويرى تويني: أنه إذا كانت الأديان العليا الأربعة التي ما تزال قائمة في القرن العشرين (الاسلام- المسيحية- الهندوكية- البوذية) مجرد ألوان أربعة لمنهج واحد فان الاسلام قد أعاد توكيد وحدانية الله في مقابل الضعف البادي في تمسك الأديان الثلاثة الأخرى بهذه العقيدة الجوهرية.

ويقرر تويني: أن العرب أصبحوا مهيئين منذ هجرة الرسول من الناحية المادية تماماً أن يصبحوا غزاة العالم ولكنهم افتقروا إلى شيء حيوي يتمثل في الوحدة السياسية فلما منحهم الاسلام إياها ما كانت لتقف أمام اجتياحهم أراضي الامبراطوريتين أية عقبة: وأن القدر إدخر للاسلام أن يغدو عقيدة عالمية سواء تحققت وحدة العرب السياسية وما تلا هذه الوحدة من غزوات أم لم يتحقق. وقد كانت نرعة العرب الاستقلالية تحول دون اعتناقهم المسيحية أو اليهودية وهما ديانتان غريبتان على البيئة والعقلية العربية، إذ نظر العرب

إلى المسيحية على أنها العقيدة الدينية القومية للرومان وإلى اليهودية على أنها عقيدة اليهود القومية، ومن ثم كان إقبال العرب على إعتناق الاسلام إعتقاداً بأنه عقيدة قومية للعرب ترفع من مستواهم الفكري إلى الدرجة التي بلغها اليهود والرومان بفضل اليهودية والمسيحية وما أن إستقر الفتح الاسلامي حتى انتزع الرعايا المسيحيون والمجوس حين اسلموا من العرب مكانتهم السياسية المرموقة في الدولة الاسلامية فجعلوا من الاسلام تنظيما أزالوا به صفة الأقلية وهكذا انتصر الاتجاه العالمي واصبح الاسلام عقيدةدينية سامية لجميع الشعوب والأجناس.

ويرى ارنولد توينبي أن هناك خطأ بالغا في القول باتهام الإسلام بمناهضة المسيحية ومعاداة الفلسفة الهلينية وكراهية المدنية عامة أو كراهية الفن.

ويقرر أن الإسلام استطاع توحيد المنطقة الممتدة من سوريا والعراق ومصر مرة أخرى وكانت العراق دعامة الامبراطورية الساسانية سياسيا وثقافيا وسوريا ومصر كانت العمود الفقري للامبراطورية البيزنطية، وقد تجلت طاقات البلاد الثلاثة الحضارية وقتما أعاد الفتح العربي توحيدها سياسيا لأول مرة بعد أن تفككت الإمبراطورية الفارسية قبل ذلك بألف سنة تقريباً.

وقد أزدهر الإسلام في نفس المنطقة التي نشأت فيها جميع الحضارات الكبرى (منطقة الشرق الأدنى).

يقرر ارنولد توينبي أن إنتشار الإسلام بين أتباع المسيحية قليل أما بين إتباع الزرادشتية في إيران وحوض بحر سيحون وجيحون فقد جاء أسرع كثيراً من إنتشاره بين رعايا الإسلام من المسحيين، وأن حملات الصليبيين والمغول قد دفعت المجتمع الإسلامي للتاسك الروحي تجاه الجائحة التي كانت تهدد باقتلاعه من أساسه.

ويرى أن المجتمع الإسلامي هو بمثابة دولة عالمية ونظام ديني عالمي وهجرة شعوب ويخطىء بالغ الخطأ حين يرى أن المجتمع الإسلامي توأمين هما المجتمع الايراني والمجتمع الغربي وان احد التوأمين قد ابتلع التوأم الآخر وضمه إليه.

ويخطىء حين يظن أن الإسلام قد انقسم إلى أهل السنة والشيعة كما

انقسمت المسيحية إلى الكاثوليكية والأرثوذكسية.

نقد آراء توينبي

لما كان أرنولد توينبي هو محامي الحضارة الغربية القائمة على المسيحية، فإنه في آرائه بالنسبة للحضارة الإسلامية يكون أحياناً عاجزاً عن الإنصاف أو تقدير المواقف، وأخطر أخطاء توينبي هو إرجاعه أصل الحضارة الإسلامية إلى الحضارة السريانية القديمة وفساد رأيه في أن يرى أن الحضارة الإسلامية حضارة فرعية وقد لجأ في تفسير الحضارة الإسلامية وهـذا خطأ فاحش لا شك فيه يستمد مفهومه من النظرة الغالبة إلى أن الحضارات العالمية كلها وليد الحضارة اليونانية الرومانية.

وقد كان على توينبي أن يعرف أن الحضارة الإسلامية قامت على أسس جديدة مغايرة تمام المغايرة لكل الحضارات التي سبقتها واهمها التوحيد والإخاءالإنساني والرحمة، وأن يعلم أن الإسلام قد أقام انقطاعاً حضارياً لا ريب فيه بحيث لا يمكن ربط حضارة الإسلام بتلك الحضارة السريانية القديمة الزائلة.

كذلك فإنه يخطىء خطأ بالغاً في تصور المجتمع الإسلامي وكأنه مجتمعين: عربي وإيراني وذلك لغلبة نزعة الفكرة العنصرية ونظرية الدماء والعروق على الفكر الغربي الذي يصدر عنه توينبي، والواقع أن الاسلام أقام مجتمعاً واحداً من مصدر الفكرة التي قدمها والتي صاغت جميع مظاهر الحياة في العالم الاسلامي كله وجبّت ما قبلها من حضارات واديان ولغات ووثنيات مختلفة وإن الايرانيين قد اعتنقوا الاسلام فحررهم من المجوسية وبيوت النار وثنائية الآلهة وغيرها ودفعهم دفعاً إلى بوتقة التوحيد الخالص ولا يمنع أنهم التمسوا بعد فترة لغتهم القديمة فكتبوها باللغة العربية أو ربطوا أنفسهم تاريخياً بذلك الماضي القديم كما فعل المصريون التماس تاريخ الفراعنة، ولكن لا الايرانيون ولا المصريون وجدوا هنالك من الخيوط ولا خيط واحد يمكن به إحياء التاريخ الوثني قبل الاسلام.

ومن أخطاء أرنولد توينبي أنه يقارن كل حركة في الحضارة الاسلامية بصورة الحضارات الغربية ولا يستطيع - كما يقول الأستاذ طه باقر ومسخ خوري أن يرفع عينيه عن النظرة الغربية في المقارنة فيرى أن الحضارة الإسلامية نوع جديد وفريد.

ولقد وجه كثير من الباحثين النقد إلى طريقة توينبي فقرر كولنجود أنه وقع في الخطأ أو طبق نظريات لا تستجيب إلا لحاجات عاطفية في الغرب على مجموعة بشرية تنظر إلى العلم من ناحية أخرى، ويرى هنري فرانكفورت بحق أن صور توينبي تنم عن تحيزه لنظرية التطور وأن توينبي حين يعلن أن ديناميكية الحضارة الغربية تنطبق على الحضارة العالمية فهو لا يستطيع أن يفعل ذلك إلا بتجاهل شكل الحضارات غير الغربية، ولكن الفهم الصحيح يصبح في هذه الحالة مستحيلا.

وإن أرنولد توينبي حين يطبق مبدأ الأبوة والبنوة (على الحضارة الاسلامية) والحضارة السريانية فانه يتناسى فترة من الزمن مقدارها ألف عام تفصل بين الحضارتين وينسى المفهوم الديني والعقلي والروحي المختلف، وقد أثبت سوركن بطلان مبدأ الوحدة الحضارية.

يقول سوركن: إن توينبي لا يعني بالحضارة مجرد مجال للدراسة التاريخية وإنما يعني نظاماً موجوداً أو كياناً مرتبط الأجزاء ارتباطاً سببياً بحيث يستتبع التغير في الجزء الواحد تغييراً في الكل وبالعكس، ويرى سوركن أن هذه الوحدة الحضارية لا توجد حتى في الانسان الواحد، فكيف يمكن وجودها في مجالات ثقافية كالحضارة الهلينية أو السريانية أو غيرها، إن ما يسميه توينبي وحدة حضارية ليس في الواقع غير مجال ثقافي توجد فيه عناصر عديدة من الأنظمة والتكتلات مسنجمة في جانب منها، متجاورة أو متباينة في الجانب الآخر.

ولعل من أكبر أخطاء توينبي هو انتقاص الحضارة الاسلامية تحت تأثير تعصبه الديني للحضارة الغربية باعتبارها نتاج مسيحي كنسي رهباني، إنه لم يتناول الحضارة الاسلامية والتاريخ الاسلامي على أنها وحدة حضارية

متكاملة، بل عزل حوادث التاريخ الاسلامي عزلا وخالف المنهج العلمي الذي زعم أنه يفسر التاريخ على أساسه، كما أنه قد أورد وتجنب من الحوادث ما يروق له، وكان من أكبر أخطائه تفسير حياة الرسول ﷺ تحت مبدأ الاعتكاف والعودة، وتحت مبدأ الاستجابة الناقصة مرة وتحت مبدأ الاستجابة الناجحة مرة أخرى، ولكنه يؤكد على مبدأ الاعتكاف والعودة (أي الاعتزال والظهور) الذي يطبقه على كثير من الشخصيات التاريخية وهو مالم يحدث في حياة الرسول.

ومن أخطائه أنه يعتبر مبدأ الوحدانية في الدين مأخوذ من الروم ومبدأ القانون والنظام في الحكومة مأخوذ من الدولة الرومانية وإن هجرة النبي وصحابته كانت خروجاً على مبدأ الاعتكاف والعودة.

وعبارته في هذا يقول: تميزت حياة الامبراطورية الرومانية الاجتماعية بظاهرتين بارزتين أثرت تأثيراً عميقاً في فكر الغربي الملاحظ ذلك أنهما كانتا بارزتين لمجرد انتقاء وجودهما في بلاد العرب: مبدأ الوحدانية في الدين ومبدأ القانون والنظام في الحكومة، فكان عمل محمد الذي شغل حياته يدور حول نقل هذين العنصرين الموجودين في كيان الهرم الاجتماعي إلى صورتين عربيتين وطنيتين ودمج الوحدانية بصورتها العربية والحكم الامبراطوري بصورته العربية في نظام رئيسي واحد هو نظام الاسلام الشامل الذي نجح في إعطائه قوة دافعة بحيث أصبح الدين الجديد الذي وضعه صاحبه لسد حاجات سكان بلاد العرب قد شق حدود الجزيرة وأسر العالم السرياني بأسره.

ولا ريب أن عبارة توينبي هذه تكشف تعصبه وعجزه عن فهم التاريخ، وقصور فكره أيضاً، فأين هو النظام الاجتماعي العادل الذي كان في الدولة الرومانية وأين التوحيد وقد كانت روما تعبد القيصر. وكانت تجعل العدالة مقصورة على السادة، وكانت ترى أن العبيد لا يمكن أن يصبحوا سادة، وأنهم لا قيمة لهم ولا وزن، فكانت روما مثلا للعبودية الوثنية في العقيدة والعبودية الاجتماعية بين البشر، أما الاسلام فقد قدم منهج التوحيد الخالص وتحرير العقل والنفس البشرية من عبودية الوثنية وتحرير الإنسان من عبودية

حضارات روما والفراعنة وفارس والهند.

ويقول الأستاذ مسخ خوري الذي عالج هذه الظواهر معالجة طيبة في كتابه عن فلسفة توينبي «إن وجود توينبي الإنسان المؤرخ في مجتمع مسيحي يؤثر في نظرته إلى الإسلام حتى في الكلمات التي يستعملها» كما يقول (إدوار كار في كتابه ما هو التاريخ) فتوينبي يقيس مبدأ الاعتزال والعودة من حياة المسيح بالنسبة لاعتقاد المجتمع المسيحي اليوم ليطبقه على حياة النبي محمد ﷺ، وليس هناك أشد بطلاناً من إقامه معيار افتراضي مجرد لما هو مرغوب فيه ثم إدانه الماضي على أساسه. وبناء على نظرته المسيحية يرى أن سيرة النبي في الفترتين المكية والمدنية متناقضة لأن النبي شغل في الفصل الأول برسالته الدينية بطريقة سليمة من الدعوة والتبشير، وشغل في الفصل الثاني ببناء سلطة عسكرية وسياسية، واستعمل في هذه السلطة نفس السبيل الذي كان في الحالات الأخرى وبالا وشراً على الديانات الأخرى، والنظرة المسيحية واضحة هنا، والصريح في تعاليم يسوع نبذ الأخذ بالسيف أو استخدام القوة، هذه النظرة تختلف عن النظرة الاسلامية أساساً، إذ أن الدين والدولة لا يمكن أن ينفصلا في الاسلام لأنه لا يجوز تطبيق أحدهما وتعطيل الآخر، وإلا عد باباً من الفتنة عن الدين أو الكفر.

وليس في الاسلام: من لطمك على خدك ولكن فيه: فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم وليس فيه نبذ الاخذ بالقوة (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة).

ولعل أبرز نص يكشف عن خطأ توينبي ما سجله تور أندريه في ختام كتابه عن حياة محمد ودعوته:

Moham med: Soin Lebenu. Seine Glaube.

حيث قال: اننا معشر الكتاب المسيحين نقيس حياة محمد عن شعور وغير شعور بحياة المسيح ووفق المبادىء الموجودة في الكتاب المقدس وهي نظرة مخالفة على كل حال للنظرة التي يراه بها أصحابه ومعتنقو دعوته.

ويقول الأستاذ مسح خوري: إن توينبي حاول أن يجعل للحضارة الإسلامية الناشئة في وضح التاريخ نسبا ضائعاً فيصلها بالحضارة السريانية على بعد ألف عام وأن الحضارة الإسلامية شكلت من اتحاد المجتمع الايراني والمجتمع العربي، واكتشف أن هذين المجتمعين يرجعان في نسبهما عبر ألف عام من الحقبة الهلينية في الشرق إلى أصل الحضارة السريانية القديمة.

ولا ريب أن هذه محاولة ملفوفة معقدة لا تدل على سماحة المؤرخ في تقدير انبثاق الحضارة الاسلامية من دين سماوي له صفة الاستقلال الخاص والوجود الواضح الذاتي عن حضارات وأديان مختلفة سبقته وأن هذا المجتمع الذي أنشأ الحضارة الاسلامية تشكل من فرد واحد وإبنه: هما إبراهيم وإسماعيل اللذين هاجرا إلى الجزيرة العربية وأقاما القواعد من البيت وأن نسب الحضارة الاسلامية التي جاء بها محمد والقرآن إنما تتصل بنسب واحد هو الحنيفية السمحاء التي حمل لوائها سيدنا إبراهيم عليه السلام وأنه جاء لتصحيحها بعد أن إنحرف بها خلفاء الخليل على طول تاريخ اليهودية والمسيحية.

ومن العجيب أن يرد توينبي الحضارات إلى الأديان ويتجاهل ذلك بالنسبة لخاتم الأديان وقد اعترف المؤرخون ودارسو الحضارات بأن عالم الاسلام الذي قام قد أحدث إنفصالا عميقاً واضحاً بين مجتمعات وعقائد ما قبل الاسلام أطلق عليه اسم «الانقطاع الحضاري» هذا مع الاعتراف بأن الحضارة الاسلامية أخذت من الحضارات القديمة كثيراً من العناصر والأساليب والتنظيمات ثم صهرتها في بوتقة التوحيد ولكنها كانت نبتا خالصا في استقلاله وتميزه وذاتيته قام في إطار نظام كامل جامع لم تعرف البشرية له مثيلا من قبل.

ولكن توينبي يشير إلى حقيقة صحيحة لا سبيل إلى تجاوزها هو أن الاسلام حرر المنطقة من نفوذ ألف سنة فكراً وعقيدة ومجتمعاً ويشير إلى أن المجتمعات في منطقة الشرق قد حاولت التحرر من طلائع الثقافة الهلينية وأنه جرت محاولات لتصفية المسيحية من الهلينية بعد طغيانها عليها في محاولة لتهلين

المسيحية وحرمانها من التوحيد يقول: أحفقت المحاولات كلها في زحزحة التحدي الهلييني الصادق في وجه المجتمع السرياني المنحل إلى أن كانت الدعوة الاسلامية وكان إمتدادها عام ٦٣٠ تاريخ شؤم على الامبراطور هرقل إذ كتب عليه أن لا يفارق الدنيا قبل أن يشهد عمر بن الخطاب خليفة النبي محمد يجتاح امبراطوريته ويحطم إلى الأبد ما شاده بنفسه وما شاده بومبيوس والاسكندر من قبله في رحاب المجتمع السرياني.

«لقد حقق الإسلام جميع ماحاولت اليهودية والنسطورية واليعقوبية مراراً وتكراراً أن تحققه دون جدوى فأنجز طرد الهلينية من العالم السرياني وأعاد في شخص الخلافة العباسية الدولة السريانية الجامعة التي كان الاسكندر قد هددها بالابادة عندما قضى على مملكة الفرس. وأخيراً زود الإسلام المجتمع السرياني بديانة جديدة ناشئة من صلب مملكته بعد أجيال من الحيوية المرموقة أن يطرد شبح الفناء من وهمه ويعيد إليه الثقة بأنه لن يزول من الوجود بغير ذرية؛ ذلك لأن الديانة الإسلامية صارت ذروة الشريعة التي سينطلق منها (فيما بعد) المجتمعان الجديدان: الإيراني والعربي سليلا الحضارة السريانية القديمة».

ولا ريب أننا نقبل الحقيقة الأساسية ولنا حق رفض التصور المنحرف من خلال مفهومه عن العالم السرياني وغيره من المفاهيم التي كشف المؤرخون زيفها وإنحرافها والذين اعلنوا في وضوح قيام ظاهرة «الإنفصال الحضاري» أو «الإنقطاع الحضاري» من عالم الإسلام بعد ظهور الدعوة الإسلامية وبين ما قبله تماما إلا ذلك الخيط المرتبط بابراهيم وإسماعيل والحنيفية السمحاء.

وبالجملة فان توينبي لم يسلم فكره للانصاف، لأن ذلك يختلف مع طابع دراسته الضخمة التي قامت في مواجهة التحديات التي كشف عنها شبنجلر وماكس نوردوا الذين هاجموا الحضارة الغربية في عنف فأراد أن يدافع عن هذه الحضارة من خلال تفسيرها تفسيرا مسيحيا، من شأن هذا التفسير أن لا يعترف بالإسلام حتى يصفه كثير من الباحثين بأن التحيز يسود دراسته كلها **وهو التحيز إلى المسيحية.**

وذلك حين يقول: أنه يلتمس مفتاح النجاة من رسالة المسيحية قبل غيرها

من الديانات، وبذلك وصف بأنه كان لاهوتيا أكبر منه مؤرخا.

ولا ريب أن موقفه من الصهيونية موقف علمي وصريح ولكن مصدره عند توينبي مبني على هذا المعنى القائم على الصراع بين المسيحية واليهودية.

ومن هذا خلطه في القول بأن المحنة التي تواجهها الحضارة اليوم يمكن حلها باقامة الديانة الرباعية (الإسلام- المسيحية البوذية) ..

وهو يعلم أن الإسلام لا يمكن أن يندمج، كما أنه يرى أن الإسلام يستطيع أن يقدم للحضارة: تحريم الخمر وتحريم التمييز العنصري.

والواقع أن الإسلام لا يستطيع أن يقدم علاجات جزئية، ولكنه يقدمه للبشرية منهجا كاملا من ألفه إلى يائه.

ومع ذلك فنحن نذكر لتوينبي: أنه أنصف الحضارة الإسلامية في مواقع كثيرة منها وخاصة في موقعها مع رسالة عيسى ومع النزعة العنصرية وله في ذلك فصل مطول في كتابه الحضارة في فترة إختبار Civilization on Trail

يقول عندما كانت حضارة الغرب تنحدر إلى الهاوية في القرن السابع المسيحي، وظهرت الحضارة الإسلامية الفتية أصابت الغرب نوبة هسترية لظهور هذا الخطر الجديد وأشد ما خشيه الغرب من الحضارة الإسلامية الناشئة أنها كانت تستند إلى مثل أعلى فوق المادة لا ينتفع في دفعه ما لدى الغرب من أسلحة مادية

ويقول توينبي: إن الإسلام لم يدخل في معركة مع رسالة عيسى ولكن مع الكنيسة المسيحية التي استولت على عقول الروم وإستسلمت إلى ما دعت إليه الوثنية الإغريقة من الشرك وعبادة الأصنام وأن الإسلام قد استنكر هذا الشرك واسترد عبادة الإله الواحد الذي دعا ابراهيم إلى عبادته من قبل وهكذا حمل الإسلام شعلة التوحيد بين المسيحيين المشركين من جهة وبين الهندوس المشركين من جهة أخرى وأن عقيدة التوحيد التي جاء بها الاسلام هي أروع الأمثلة على فكرة توحيد العالم وأن بقاء الاسلام أمل للعالم كله.

ويقول: إن الاسلام قد قضى على النزعة العنصرية والصراع الطبقي

بتقرير مبدأ الإخاء الإسلامي والمساواة المطلقة بين المسلمين ويدعو إلى الأخذ بهذا المبدأ الاسلامي كما يدعو الغرب إلى نبذ معاداة العرب وبذلك تنجو المدنية الحالية مما يدب فيها اليوم من عناصر العداء.

* * *

وهناك موقف لا يمكن المرور عليه دون وضعه في مكانه الصحيح وذلك موقف توينبي من الحركة التركية الكمالية التي قامت على أساس حركة الاتحاديين الذين احتوتهم المحافل الماسونية وحركة الدونمة اليهودية فاستعملتهم كأداة لتدمير الدولة العثمانية وإسقاط الخلافة، هذه الحركة يؤازرها توينبي ويراها مثلا أعلى للنهضة والتقدم في الشرق ويدعو المسلمين والعرب إلى تقليدها، وهو في هذا إنما يصدر عن أهوائه كغربي يريد أن تحتوي الحضارة الغربية عالم الاسلام، ولكن التجربة قد كشفت عن فسادها وزيفها وهو حي يشهد، ولقد كان هاملتون جب أشد منه حصافة حين قال إن العرب لن يعيدوا تجربة تركيا بل أنه هو نفسه قد ازدرى تركيا وعنفها وشهر بها وقال انها كانت بتغربها عبء على الغرب لأنها حين تحولت إليه فقدت ذاتيتها ولم تستطع ان تقدم للغرب شيئا في مجال الكشف أو العلم والتكنولوجيا.

ولكن توينبي كان في قرارة نفسه يود لو أن يتغرب العالم الإسلامي وهذا واضح في كتابه العالم والغرب، وقد حمل هذا الكتاب دعوته المسمومة إلى نقل فكر الحضارة مع أدواتها وانه لا سبيل إلى تقبل جوانب الحضارة المادية دون فكرها وهو في ذلك يناقض منطق الحضارة الغربية التي نقلت علوم المسلمين دون عقائدهم في أول عصر النهضة. ولذلك فإن رأيه في القول بأن المدنية كل لا يتجزأ رأي فاسد بتجربة التاريخ نفسه وان الذين قالوا به امثال طه حسين وحسين فوزي ولويس عوض مخطئون أشد الخطأ ولم يفهموا روح الحضارة الحقة ولا ذاتية الأمم الكبرى وعقائدها التي تحول بينها وبين الانصهار في بوتقة الحضارات الأخرى.

ولذلك فإن أتاتورك حين آمن بهذه النظرية لم يكن مصلحاً ذو أصالة أو إيمان بوطنه أو عقيدته، ولعل هذا هو ما كشف عنه البعض من بعد أنه كان

متآمراً على الأتراك والإسلام وأنه كان من الدونمة فإن لم يكن منهم عرقاً فهو منهم فكراً ونسباً وبالرغم من أن أرنولد **توينبي** يهاجم القومية ويرى أنها من أسباب فساد الحضارة العالمية فإنه يمجد نزعة القومية التي حمل لوائها الترك ويمجد القومية في عالم الإسلام حتى يراها أنها أعظم معطيات الحضارة الغربية، نعم هي باليمين ضارة للغرب ولكنها باليسار مصدرة إلى المسلمين نافعة للمستعمرين وإن كان أرنولد **توينبي** في بعض نصوصه يرى أن الفكرة القومية التي سرت عدواها من الغرب إلى العالم الإسلامي- والتي يعدها أعظم منجزات الغرب- قد أخرته وكادت تفكك وحدته وتفتتها إلى دويلات تتخاصم بدل أن تتعاون.

الفصل الثالث
مونتجري وات: الإسلام والحضارة

يقف مونتجري وات في كتاب الإسلام والحضارة **(Islam and Culture)** كما يلخص ذلك الأستاذ عبد الحميد فرحات موقف معتدل وإن كان يغلب الكشف عن دور العامل الإقتصادي جنباً إلى جنب مع العوامل الروحية والإجتماعية، وأبرز مفاهيمه أن الدين جوهر الوجود وروح العالم وأن العلاقة بين الدين والوجود خالدة خلود العلاقة بين الجوهر والعرض، يقول: كل الديانات السماوية ما عدا الإسلام تحمل كل مبادئها وتعاليمها شكل التحذيرات والمواعظ، كل دين يترك للدين الذي يليه أن يكمل ما فيه من نقص، أما الإسلام فهو خاتم الأديان، ولذلك كان لا بد من إشتماله على كل فضائل الديانات السابقة فالإسلام هو الدين الوحيد الذي تخطى مستوى المواعظ في التحذيرات إلى مستوى تسجيله لجملة العقائد المشرعة **Lagal dogman** وتعنى بهذا أن العقائد الإسلامية تصلح أصولاً تستمد منها البشرية كل القوانين التي تسير حياتها، إن أسماء الله الحسنى بالعدد والشكل الذي جاءت به تصلح لأن يستمد منها أي قانون إنساني- وأن تحليل القوانين مدينة كانت أو دينية تجعلنا ندرك أنها تحتوي على ما في أسماء الله الحسنى من دلالات ومعاني. **Atri butes of God**

ويقول وات: إن الإسلام هو الدين الوحيد الذي يؤاخي بين الروح والعقل والذي لا يرى تعارضاً بين الدين والعلم وأن أوربا منذ القرن التاسع عشر كانت الرحم الذي تخلقت فيه كل صنوف الإلحاد **Atheism** وأن أوربا هي التي رمت الشرق بهذا الخطر الجسيم، ذلك أن خلاف الدين والعلم قد رجع في جوهره إلى تعصب وجمود رجال العلم من جهة ورجال الدين من جهة، فالعلماء تعصبوا للقانون العلمي رغم كونه نسبياً، يصلح في حدود وظروف معينة،

وظنوا أن منهجهم هو المنهج الوحيد للإمساك بالحقيقة، ورجال الدين قد تعصبوا لعقيدتهم فلم يفرقوا بين الأصول والفروع، وبين ما يصح فيه الإجتهاد وما لا يصح.

لقد فات العلماء أن العلم بقوانينه ومنهجه يتعامل في حدود معطيات العالم المادي وأنه يفشل بالضرورة في الوصول إلى منشىء أو مبدع أو خالق هذا الكون، أما الإسلام فإنه لا ينظر إلى الإنسان بوصفه عقلاً له فقط بل من حيث هو عقل وروح وشعور وإرادة وجملة من القوى غير المنظورة يقال عنها (الحاسة السادسة) أو الحدس أو الإلهام وأن الإسلام يحترم في الإنسان هذا كله ويدعوه إلى إستخدام كل طاقة للوصول إلى الحقيقة في مجال المادة، وأيضاً في مجال ما وراء المادة وتلك هي رحابة الإسلام وتشجيع للعلم والفكر Seabon and spirit ويقول إن الإسلام هو دين العقل والروح.

ويتحدث وات عن حضارة الإسلام فيقول: لم تعرف البشرية قبل الإسلام ديناً سماوياً أو غير سماوياً قد قامت عليه حضارة بالمعنى السليم لكلمة حضارة ليست هناك حضارة يهودية قامت على الديانة اليهودية وإنما هناك ثقافة يهودية ولم تكن هناك حضارة مسيحية بل ثقافة مسيحية، والفارق بين الثقافة والحضارة أن الأولى محلية محدودة والثانية واسعة شاملة أكثر إنسانية.

ويصور أسس الحضارة الإسلامية فيشير إلى الدور الهام الذي جعل من كل مسلم مبشراً وجعل العمل على نشر الدين شرطاً تفصيلياً بين المسلمين ويرجع ذلك إلى القدر الموجود من التيسير في الإسلام فالله لا يكلف نفساً إلا وسعها وهذا التبسيط الذي من شأنه أن يحبب الناس في الدين فيدخلون فيه أفواجاً، وتلك الرحابة الرائعة الموجودة في الإسلام، الذي لم يتعصب لثقافة معينة، لقد إحترم العقل غير الإسلامي لدرجة أن إتسع صدره لكل مفيد، وذلك التنسيق الشيق بين ما في تركيب الإنسان من ماديات وروحانيات فلم يطلب الإسلام التضحية بالدنيا من أجر الآخرة وإنما طلب بذل أقصى جهد من أجل صالح الدنيا والآخرة، من أجل النفع في أمور الدين والدنيا فالإسلام بذلك هو دين الحاضر والمستقبل، ودين اليوم والغد، ودين الإنسانية ما شاء رب الإنسانية.

ويتحدث عن المواجهة الحضارية بين التراث الإسلامي وبين القيم المستحدثة فيقول: لقد إستطاع الإسلام ببراعة لا تتهيأ لمخلوق، أن يوفق بين المتناقضات جميعاً دون أن يميل إلى جانب فيغلبه على باقي الجوانب. يتسنى الجماعة الملكية المشتركة فيما لا بد أن يكون للجماعة ينال فيه كل إنسان نصيباً دون ما عائق من ظروف إقتصادية وإجتماعية، وهو ينادي بالفردية المتعاونة حينما تكون الحوافز والتطلعات هي أساس التقدم بفعل كل هذا لا عن رغبة في التوفيق أو التلفيق.

ويقول إن دعوة توينبي إلى شجب الأيدلوجيات التي تقود العالم إلى فنائه وتدميره والعودة إلى الأديان صوت يرتفع في مجتمعات أعماها التقدم العلمي والإنحياز الأيدلوجي، ولما كان الفكر هو محرك القوى البشرية فإننا نتحمس لكل فكر يساعد البشرية على أن تتبين طريقاً، وهي محاولة لردها إلى الرشد بعدما كان من فصل بين الدين والدولة نتيجة لتاريخ طويل من تجبر الكنيسة التي فرضت الظلام والتخلف بإسم الدين.

ويتحدث عن الحضارة الغربية فيصفها بالحضارة الطاغية التي تفرض على العالم نظمها وقيمها بطرق متعددة والتي تسعى إلى توحيد العالم تحت شعاراتها ومبادئها، وقد سلمت الشعوب المسيحية قيادها إلى الأيدلوجيات لأن الدين المسيحي لم يستطع أن يمدها بالبناء الفكري الكامل الذي يستطيع أن يفسر الأوضاع الإجتماعية في المجتمع وأن يمنحها الأمل والمثل الأعلى في مستقبلها ويشير إلى المواجهة الحضارية الإسلامية وبين الأيدلوجيات الغربية (رأسمالية وشيوعية) فالإثنتان ماديتان في النزعة والمنطلق وأن الذي نشهده اليوم لهو الأزمة الحضارية بكل أبعادها.

الفصل الرابع
روجيه جارودي: الحضارة العربية

تحدث روجيه جارودي عن الحضارة الإسلامية ولكنه نسبها إلى العرب الجنس وليس إلى الدين ويرجع ذلك إلى ماركسيته ولكنه أنصف هذه الحضارة وإعترف بدورها الحق وإن كان قد وقع في بعض الأخطاء فإنما كان ذلك في محاولة إستخدام الإسلام وحضارته لدعم التنظيمات الماركسية العالمية اليوم، وذلك ما ينهزم أمامه كل صاحب محاولة لإحتواء أو صهر للإسلام سواءاً أكان ذلك في بوتقة الديمقراطية الوثنية أم الماركسية الشيوعية.

يقول جارودي: في صفحة من صفحات كتاب أناتول فرانس (فوق الحجر الأبيض) سأل أحد المؤرخين مدام نوزيير: ما أكثر تواريخ فرنسا سواءاً؟ولم تعرف مدام نوزيير الإجابة، وقال لها المؤرخ: هو عام ٧٣٢ تاريخ معركة بواتيه في هذا اليوم تراجعت الحضارة العربية أمام البربرية الإفرنجية.

ويقول: هذا النص يثير في نفسي ذكرى لذيذة، ففي مدينة الجزائر حين أردت التعرف على التقاليد الكبرى للثقافة والحضارة العربيتين إصطدمت بالجريمة الحقيقية التي إقترفها الإستعمار ضد العقل البشري «لقد كانت مؤامرة الصمت » التي إرتكبت ضد الثقافة الإسلامية منظمة تنظيماً محكماً. قليل جداً من نصوص العلم والفلسفة العربية ترجمت إلى الفرنسية بصعوبة كثيرة وقت إقامتي بالجزائر ١٩٤٤، ذلك الإجماع على سياسة الإستعمار الثقافية التي تهدف إلى منع أي شعب من أن يشعر بالفخر والإعتزاز بتراثه وماضيه، وقد إعتبرت نشر هذه الكلمات في الجزائر وترجمتها بالعربية سلاحاً أيدلوجياً لمعركتهم.

ويقول: لم تسارع الشعوب المفتوحة إلى الإسلام بسبب التفوق الحضاري فقط بل لأن مبدأ حرية الأديان أيضاً (وهو حجر الزاوية الذي ترتكز عليه

العظمة الحقيقية للأمة الإسلامية) وبينما كانت شعوب الشمال غارقة في الجهل والحرب والتمزق. كانت إسبانيا قد بلغت ذروة سابقة من الحضارة في ظل المسلمين.

ويقول جارودي: إن السمات الرئيسية للحضارة الإسلامية هي:

١ - الحرية في العقيدة والتشريع والتساوي في القيمة الإنسانية.

٢ - التنظيم الإقتصادي والضريبي (وزعوا الأرض توزيعاً عادلاً وخفضوا الضرائب).

٣ - **العدالة: إحترمت الشريعة الإسلامية فكرة أن العمل هو الأساس** الوحيد للملكية لدرجة أنها لم تعترف بالغزو كسبب للملكية إلا عقاباً وألغى المسلمون قوانين الرومان فحرموا إتلاف الأموال بغير سبب وساعد الإسلام على التقدم الحر.

وقد قدم الإسلام للعالم الصورة الأولى لحضارة تجارية بكل ما لها من ثمار مادية وروحية وبذلك خلص الظروف الإقتصادية والإجتماعية من أجل بعث الإنسانية وإزدهارها الجديد، وقد إعتنقت الجماهير خاصة في المغرب وإسبانيا الديانة الإسلامية لظروف تلقائية، فقد دفعهم التنظيم الإجتماعي الجديد المرتبط إرتباطاً وثيقاً بالدين إلى الدخول في الجماعة الإسلامية التي تمثل قوة تقدمية.

وقد ركز الإسلام على أمرين:

أولاً : على الغايات الإيجابية التي يجب تحقيقها.

ثانياً: على تحسين وضع الإنسان.

فيما لا شك فيه أن من الأسباب في إزدهار هذا الدين ونجاحه هو إصراره على محو «العبودية» وتأكيد مبدأ المساواة الذي يختلف به إختلافاً تاماً عن المجتمعات العبودية والإقطاعية القديمة:

[الناس سواسية كأسنان المشط، لا فضل لأبيض على أسود ولا لعربي على عجمي إلا بالتقوى].

وقد ذكر دوزى أن ذلك كان من أهم أسباب التوسع السريع وإلتفاف الشعوب حول الأمة العربية. وكان الفتح العربي خيراً لإسبانيا فقد أحدث ثورة إجتماعية هامة ومحا جزءاً كبيراً من الأضرار التي كانت تئن تحتها البلاد منذ قرون.

كانت الضرائب العربية متحفظة بالنسبة لضرائب الحكومات السابقة.

قسم العرب الأراضي بعد أن نزعوها من طبقة النبلاء الفرسان، بين الذين يعملون فيها (الأرقاء والعبيد المتزمتين) وعمل الملاك الجدد بهمة وحققوا محاصيل أفضل.

حرروا التجارة من القيود والضرائب الكثيرة التي كانت تستحقها وتمت بطريقة ملحوظة.

كان القرآن يسمح للعبيد بأن يعتقوا أنفسهم مقابل تعويض عادل أدى إلى ظهور قوى جديدة، وقد أحدث هذا كله من الرفاهية العامة وبالنسبة لحرية الدين رحبوا بقدوم العرب، يقول ميخائيل السوري: إن الله عندما رأى شراسة الرومان الذين كانوا حينا يحكمون يهينون بقسوة كنائسنا وأديرتنا، وكانوا يدينوننا دون رحمة بعث من الجنوب بأبناء «إسماعيل» ليكون خلاصنا على أيديهم، وهكذا كان الفتح يعنى الأمن بالنسبة للجماهير المسيحية.

وقد إستطاعت الحضارة العربية تحقيق أمرين: تحرير العبيد وتحقيق الأمن.

ولقد كانت الضرائب طيلة العصور الوسطى الإقطاعية والمسيحية في الغرب تفرض على الأرض وحدها ومع الفتح العربي ظهر نظام جديد هو الضرائب على الملكية الشخصية.

(٢)

ويتحدث جارودي عن دور الحضارة الإسلامية في العصر الحديث. ويشير إلى الدور الذي لعبه الدين (وبخاصة الإسلام) في حركات التحرر، ويقول إن الصيحة الأولى للنضال الوطني كانت بإسم الله قبل أن تكون بإسم الوطن،

ولقد كان الإنتماء إلى الإسلام في الجزائر في القرن التاسع عشر بمثابة إحتجاج ضد السيطرة الإستعمارية وضد بؤس الجماهير وإذلالها.

إن عصر النهضة العربية في العالم الإسلامي (جمال الدين وإبن باديس) تدلك على صبغتها المثالية والإصلاحية التي تربط بين التحرر والتعليم، على أن الإسلام بعيد عن دفع الإنسان بالضرورة إلى القدرية واللامبالاة بالحياة الإجتماعية، بل في إمكانه أن يكون خميرة، للعقل والنضال، وإن هذه الآية القرآنية: (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير) هذه الآية قد إكتسبت رنيناً جديداً في الموقف التاريخي للنضال الوطني العظيم للشعب العربي وخلقت أفضل الأبطال والشهداء المستعدين للموت في حرب عادلة، وهكذا لم يكن الدين أفيوناً يشل المناضلين بل على الضد من ذلك كان حافزاً يلهمهم النضال والبطولة مثل هبة المهدى في السودان.

إن التأكيد الديني يكشف أحياناً عن الوجه المزدوج: معارضة للمحتمل ودعوة إلى كل ما هو أصيل. وهكذا لم يكن الدين (أي الإسلام) وسيلة للتعبير عن العالم فحسب بل هو أيضاً وسيلة للحضور في هذا العالم، وإنه يقدم الحاجة الناشئة عن اليأس والتي تتطلب عدالة كاملة. كذلك فإن الإيمان قد مكن الإنسان أن لا يعترف بهزيمته الكاملة وبرهن على سموه.

ويقول جارودي: إن الإسلام لا يعني التسليم، ذلك أنه في فترة إزدهاره كان نظرته للنضال والفتح منطلقة كالإعصار من بحر الصين إلى المحيط الهادي، وقد لعبت الحركات الدينية المحلية دوراً تحريرياً ضد الإستعمار، وقد خلق التحرر من نير الإستعمار الظروف لنهضة عظيمة، هذه النهضة لا تعني إنفصالاً عن أجمل تقاليد الإسلام والحضارة الإسلامية.

ولقد كان الإسلام في عصور الإحتلال والعبودية رمزاً على المقاومة الروحية والثقافية وقد أكد إستمرار اللغة والثقافة، وكان دوره كبيراً في تأكيد ما هو أساسي وأصيل ضد الحملة المنظمة لمحو الشخصية التي ينظمها النظام الإستعماري.

ويقول جارودي إن السمة الأساسية للحضارة العربية في عصرها الذهبي

هما بالتحديد روح التجريب والعلم، وكان المفكرون العرب هم الذين أيقظوا أوربا في القرن الحادي عشر من القسر الذي دفعتها فيه العلوم اللاهوتية.

والسمة الثانية: إنفتاحها وتقبلها كل التيارات في الفكر والعمل وقد كانت على هذا الأساس البوتقة التي تقدمها مرحلة جديدة وحاسمة من الفكر الإنساني.

ويقول جارودي: لقد سبق إبن خلدون ديكارت ومونتسكيو وتخطى ميكافيلي فهو المؤسس الحقيقي للتصور العلمي للتاريخ وعلم الإجتماع وقد إكتشف مبادئها الأساسية:

(أ) خضوع الظواهر الإجتماعية وتاريخها لقوانين معينة.

(ب) تنوع العصور التاريخية وأثره في مصير المجتمعات وتطورها.

(ج) توصل ما يشبه نظرية القيمة إذ أعلن أهمية تقسيم العمل، وقال إن القيمة تقوم عليه.

وقد فات جارودي أن ابن خلدون كان إنعكاساً صافياً لمبادىء الإسلام، وكان نتاجاً للمنهج العلمي الذي دعا إليه القرآن والرسول وأن ابن خلدون شأنه شأن علماء الحديث والفقه والأصول واللغة بدأوا من القرآن الكريم وإن سبب إنتشار الإسلام السريع لا يرجع إلى تفوق في الإدارة أو الإقتصاد بل إلى العقيدة الإسلامية نفسها القائمة على التوحيد والنبوة وليست الحضارة الإسلامية مزيجاً من حضارات سابقة، ذلك أن الإسلام تنزيل إلهي والإسلام لا يأمر بالعلم في مجال الطبيعة وحدها بل في مجال المجتمع، وكان توجيه الإسلام يرمي إلى ملاحظة المجتمعات الأخرى وكشف السنن التي تحكمها وأن تستفيد من ذلك. والشعوب لم تقبل الإسلام تلقائياً بل تقبلته لأنه خاطب عقولها ولأنه قدم طريقاً لتحريرها وحقق مصالحها الإقتصادية ولم تكن الزكاة في الإسلام صدقة ولكنها حق الفقراء على المجتمع وهي لا تمثل صراعاً طبقياً.

الباب الثامن
حضارة التوحيد وحضارة الوثنية

أولاً : الطريق المسدود
ثانيًا : هل تستطيع المسيحية إنقاذ الحضارة ؟
ثالثًا : الإسلام ينقذ الحضارة
رابعًا : لماذا توقفت الحضارة الإسلامية عن العطاء
خامسًا: حضارة الإسلام أمل البشرية

آفاق البحث

الفصل الأول
الطريق المسدود

حاولت القوى التغريبية (غربية وماركسية وصهيونية) تزيين الحضارة الغربية وإعلائها وإفساد صورة الحضارة الإسلامية وتشويهها في محاولة خطيرة تستهدف صرف أهل الحضارة الإسلامية عنها وإقبالهم نحو حضارة الغرب، والحيلولة دون أن تجد العقول في الغرب في حضارة الإسلام مخرجاً عن الأزمة التي يعيشونها ولكن هذه المحاولة باءت بالفشل فقد إستطاعت حضارة الغرب أن تجد من أهلها من يكشف زيفها وأن تجد الحضارة الإسلامية من يدفع عنها، وذلك لأن الحق لا بد أن ينتصر أخيراً مهما طال مطال أهل البغي والعدوان.

ولما كانت حضارة الإسلام قد إستطاعت على مدى أربعة عشر قرناً أن تكون مصدر العطاء أكثر فإنها ما زالت مصدراً دافعاً من مصادر الخير والرحمة والإخاء البشرى، وستظل قادرة على حل مشاكل البشرية وأزماتها ومعضلاتها ولذلك فقد تكشفت بأقلام كتاب الغرب- رغماً منهم أحياناً- أو في إطار واسع من محاولات إستيعابها وإحتوائها لتكون منطلق الدعوات الديمقراطية الليبرالية والماركسية والإشتراكية- تلك الحقائق الواضحة، ولقد كان للكشف عن عطاء الحضارة الإسلامية- وهي في مرحلة التوقف عن العطاء مصدراً للتساؤل: هل هي قادره على إنقاذ الحضارة العالمية، كذلك فقد حاول كتاب الغرب البحث عما إذا كانت حضارة الغرب ما زالت قادرة على إصلاح طريقها وإستنقاذ نفسها من أزمتها الخطيرة، وكذلك عما إذا كانت المسيحية قادرة على إنقاذ الحضارة.

ويتساءل الكسي كاريل: هل يستطيع العلم أن ينقذ الحضارة ويقول إن معارفنا في الزمن الحاضر غير وافية فنحن نعرف كثيراً عن الحياة ولكنا لا

نعرف كثيراً عن أنفسنا نحن عاجزون عن الملائمة بين نفوسنا وبين هذا العالم الميكانيكي الذي خلقته. ويقول أن الباعث على ذلك خطأ قديم، عند ما فرقوا بين الكم والنوع وعني بالأول فارتقى العلم المبني عليه وكان إزدهاره باهراً، فقد حصروا همهم في الكم وأهملوا الكيف فحماستهم في سبيل الوزن والقياس حولت الإنسان إلى عوالم الطبيعة والرياضة والكيمياء والواقع أن الصفات التي لا تقاس في الإنسان أهم من الصفات التي تقاس، وقد كان خطأ جاليلو واضحاً في التفرقة بين خواص الكم وخواص الكيف وكذلك خطأ ديكارت في الفصل بين الأشياء المادية والأشياء الروحية والإهتمام بالجسم دون العقل، هذا الخطأ حول الحضارة إلى الطريق التي أفضت إلى إنتصار العلم وإنحطاط الإنسان ولذلك فإن على منقذي العالم أن يتوفروا على دراسة الإنسان من ناحية الكمية والنوعية معاً وعليهم دراسة العقل الإنساني وهو المجهول العظيم. إن تقدم العلم فيما يتعلق بالغذاء والصحة وشفاء الأمراض قد تم على حساب لا ينحصر في أساليب التفكير بل يمتد إلى الدين والروحانيات وهكذا يضع الباحثون أزمة القيم في الغرب كأساس للأزمة التي تواجهها الحضارة ويقولون إن الرجل الغربي يتحكم في بيئته المادية وفاته أن يتحكم في سلوكه البشري وليس شيء في الأخلاق عنده صواباً على الإطلاق أو خطأ على الإطلاق والحياة عنده ورقة (يانصيب). ويقول الباحثون في هذا المجال أن مشكلات المجتمع الغربي مشكلات أخلاقية عسيرة، فقد بلغت مستويات المعيشة حداً بالغاً ولكن الفوضى الأخلاقية في نفس الوقت لم تصل يوماً إلى ما وصلت إليه. ذلك أن أساليب الرفاهية في البيت بالمعنى الروحي للكلمة لم يعد يعني شيئاً بالنسبة إلى الكثيرين وهو لم ينجح حتى الآن إلى الإهتداء إلى الطريق الفعالة من أجل التحكم في السلوك البشري تحكماً رزيناً.

وعندما وصل العطاء المادي إلى القمة وصلت المجتمعات إلى درجة عالية من التحطم والدمار واتجه الشباب إلى الانتحار والتمزق، وفزع كثيرون من مواجهة مصيرهم بشجاعة ورباطة جأش، وانتشر أسلوب جديد من اللامبالاة واللامسؤلية وكان التغير الإقتصادي مصدر خطير عمل على زعزعة كثير من القيم الأخلاقية والروحية.

وكانت مسألتي الجنس والحرب هي أهم من الميادين التي وصل الاضطراب فيها درجة عالية وأصبحت المحرمات التقليدية موضع شك وارتياب من جانب الكثيرين، وكان لتجاوز القواعد الأخلاقية في مضمار الحياة الجنسية قد أحدث تغييراً حاسماً في العلاقات فكسر ذلك الإطار الذي أقامه الدين في العلاقات بين الرجل والمرأة، بوسائل منع الحمل أو التلقيح الصناعي، أو الخطيئة أو الانحراف الجنسي أو إباحة زواج الرجل بالرجل وكانت أهم مشاكل تدمير المجتمع الغربي ضعف سلطة الآباء فقد أصبح الآباء عاجزون عن تكوين آراء أخلاقية واضحة عن الخطأ والصواب أو الفضيلة والرذيلة وقد تبين أن تلك الحرية التي دعا إليها اليهودي فرويد من خلال هدف تدمير المجتمعات قد أحدثت أثاراً خطيرة، فقد دمرت الأطفال دينياً. إن حاجة الأطفال إلى الشعور بالأمن لا تقل عن حاجتهم إلى الشعور بالحرية، وإن الشعور بالأمن يقتضي اطمئنان الطفل إلى وجود معتقدات راسخة لدى الوالدين الذين يقومان على تربية وتنشئة الأجيال الجديدة. ولقد كان من أثر إطلاق الحرية تمرد المراهق على أبويه ومعتقدات أبويه وأثبتت التجربة أن الأطفال اللذين ينشأون في كنف أسرة ذات عقائد راسخة يكسبون الكثير من وراء هذه العقلية المحدودة، أما حين يكون الآباء مذبذبين مترددين فإن ذلك يقلق بال أبنائهم. وأثبت كثير من علماء النفس أن احتمال ظهور المرض النفسي يتزايد مع ضعف السلطة الأبوية لا العكس وأن منشأ الكثير من الاضطرابات النفسية لدى الأطفال إنما هو نتيجة الإرتياب الذي أصاب الكثير من الآباء حول الطريقة المثلى في التربية مما جعل الأطفال ينشأون في كنف أسرات يجهل الوالدان فيها كل شيء عن التربية، ولو كان هؤلاء الآباء لديهم القليل من الثقة في أنفسهم لكانوا أقدر على تربية أبنائهم، ولا غرو فإن الشك الذي يجثم على عقول الآباء سرعان ما ينعكس على عقول الأبناء فلا يلبث أن يقعوا فريسة سهلة لوساوس القلق والشك والخوف والارتباب.

هذا ما أحدثته الحضارة الغربية في مرحلة المحاق فهل تستطيع إعادة روح الثقة بالنفس إلى الآباء والأمهات حول قدرتهم على تربية أبنائهم لاستنقاذ الأجيال الجديدة كذلك فقد كان لصراع القيم آثاره الخطيرة من الأزمات

الأخلاقية حيث يقول دعاة التدمير في الحضارة أن كل شيء نسبي، وليس شيء صواباً على الإطلاق أو خطأ على الإطلاق أو يقولون إن الأخلاق ليست ثابتة القيم، هذا الشك في كل القيم والتقديرات التي جاءت بها الأديان والتي تكشف النظرة العليا صدقها وسلامتها وملائمتها للفطرة، هذا التحلل من القيم يدفع إلى تمزيق المجتمعات إلى أفراد كل فرد له قيمه الخاصة وحقائقه الفردية وهذا ما يدحضه الإسلام حيث يقيم مظلة الأمن النفسي للطفل ووالده وأمه، وذويه في إطار الحقائق الإسلامية الثابتة والتيقن أولا ثم الالتزام ثانيا وفي الفكرة الواحدة الجامعة أخيراً.

كذلك فإن تلك النظرة المدبرة إلى الحياة على أنها ورقة (يانصيب): وأنها مجرد حظ، وأنها لعبة وكل هذا يفسد المفهوم الأصيل للحياة ومسؤلية الإنسان فيها وجزاءه وحسابه في الآخرة.

ويرى الباحثون أن أخطر أزمات الحضارة الغربية هي محنة الشك والارتياب واللاإرادية: هذه الآفة التي أخذت تنخر في عظام المجتمع الغربي: روح شكية هدامة قوامها النفي والسلب والإنكار.

كل هذا يتطلب أن ينظر المسلمون إلى هذه التحديات والمعضلات وأن يجنبوا أنفسهم ومجتمعاتهم آثارها السيئة لأنها هي ستودي بالحضارة الغربية أخيراً وعلى المسلمين أن يعلموا أن اقتلاع جذور الإرتياب من نفوس الشباب المسلم والدعوة إلى الإيمان الخالص بالله تعالى وكتبه ورسله واليوم الآخر للتغلب على أمراض القلق والحيرة والشك والارتياب واسترجاع الايمان ليس بالأمر الهين في عصر أصبح الناس فيه يظنون أن العلم هو السحر الجديد وأنه يحل مشاكل البشرية.

(٢)

ولا ريب أن الحضارة الغربية الآن بما طرحته من مفاهيم وفلسفات في أفق المجتمعات الإسلامية جعلت الإنسان يعيش مأساة مصدرها العبث واستسلام الإنسان لإنهياراته النفسية، هذا الخطر الذي يصوره آرنولد توينبي في كتابه حرب وحضارة حين يقول: «إن جيلنا بعكس الأجيال التي سبقته يحس في

أعماق قلبه بالحاجة الملحة لاستتباب السلم الدائم، إننا نعيش ونحن نلمح يومياً طيف كارثة نخشى أن نراها تطبق فوق رؤوسنا لولا أن نجد ونحن على شفير الهاوية ووسيلة كالمعجزة تؤجل وقوع الكارثة ولسنا نبالغ أبدا إذا قلنا أن ظل هذا الخوف الذي يسد في وجوهنا طريق المستقبل في الوقت الحاضر، يأخذ بمجامع فكرنا ويفرض على أذهاننا شللا بدأ يستشري فيظهر حتى في مشاغلنا السخيفة اليومية الاعتيادية، ولكننا إذا لم نستطع أن نلهب حماسنا لمواجهة هذا الخوف بجرأة فإننا لن نحظى بالقدرة على طرده كأي عمل جنوني ذلك أن ضرره ينحصر في تلك الواقعة التي لا تنكر وهو أن جذوره عقلية».

وهكذا يحكم أرنولد توينبي على الحضارة الغربية بأنها لن تستطيع إنقاذ نفسها وأن البحث عما يسمونه الخلاص قد تجاوز كل الأيدلوجيات فلم تعد هناك وسيلة حقيقية له.

يقولون: إن الخلاص قد يكون بالليبرالية أو بالاشتراكية أو بالوجودية، أو بغيرها من الأيدلوجيات التي لم تستطع خلال أكثر من ثلاثة قرون أن تحقق شيئاً.

يقول الغربيون نحن سجناء الغرفة المظلمة، غرفة الوجود، وجود محكم لا نافذة فيه ولا مخرج، وجود كله جحيم، هذا الزمان، الرعب النووي، والإمبريالية، لم يستطع العلم إخراجهم من الأزمة، ولم يستطع الاقتصاد، ولم تستطع الماركسية ولم تستطع استعادة نظريات بوذا وغيره، لماذا يتنكبون الطريق وهو واضح.

(٣)

ولقد علق كثير من المفكرين الأمل على «الخلاص» كما يسمونه على التجربة الشيوعية الماركسية بعد أن فسدت التجربة الغربية الديموقراطية فماذا جاءت به هذه التجربة، لقد جاءت بأخطار كبرى وتحديات خطيرة.

الأولى: إهدار الكرامة الإنسانية وذلك بالقضاء على مفهوم فردية الإنسان وحريته الخاصة وكرامته وقدراته الحرة التي تمكنه من العمل في الحياة وتحقيق الانتصارات.

الثاني: تدمير الأخوة الإنسانية وذلك بإثارة روح البغضاء والخصومة والحقد بين مختلف الطبقات بما يحول دون التئام المجتمع ككل واندفاعه نحو التقدم وزرع الفرقة والحقد والكيد.

الثالث: إذلال الإنسان وتحقيره وذلك بجعله أشبه بترس آلة ليس له كيانه الخاص ولا مقدرته الحرة على التفكير والحركة وذلك بالقضاء على إنسانية الإنسان وقداسة الأسرة وحرية الفكر.

ولا ريب أن هذه الأخطار الكبرى قد سجلت على التجربة الشيوعية الماركسية أنها ضد الفطرة وضد التاريخ وضد تيار التقدم البشري حيث ينظر المجتمع الشيوعي إلى الفرد وكأنه شريحة في جسد أو صامولة في ما كينة أو شيء لا يحسب حسابه ولا يقام له وزن.

الفصل الثاني

هل تستطيع المسيحية إنقاذ الحضارة؟

هذا هو السؤال الذي يتردد اليوم، إذا كان العلم وإذا كانت الماركسية لم تستطع إنقاذ الحضارة فهل تستطيع المسيحية الغربية؟ يطرح هذا السؤال كولن ولسون ويقول:

أتستطيع المسيحية أن تنقذ حضارتنا. إن لم يكن في وسعها أن تفعل فماذا.

ويشير إلى أن العامل الوحيد في نمو المسيحية هو تنصر يهودي سابق كان يضطهد المسيحية هو القديس بولس، بولس الذي تهيمن عليه فكرة الخطيئة، كان بولس مختلفاً عن المسيح، كما أن الدين الذي اخترعه بولس وسماه المسيحية لم تكن له علاقة بتعاليم المؤسس، ونظرة بولس إلى العالم نظرة متشائمة، تشغل باله مسائل كئيبة كالموت والعنف والألم وقد ركز انتباهه عليها وقد دعاها بولس (الخطيئة) التي أن شعر بأنه صار أقوى منها واستطاع بولس بهذا أن تتمحض عن فكرته التي جعلت من المسيحية ديناً عالمياً».

وكلام كولن ولسن في هذا يدل على أن المسيحية بصورتها الحالية ليست هي المسيحية المنزلة ولذلك فإنها لن تستطيع أن تنقذ الحضارة، وهو في رأيه قريب مما يرى المسلمون حين يرى أن المسيحية تجاوزت حجمها الطبيعي، إنها آخر رسالات اليهودية فهي الآن تنطوي في اليهودية مرة أخرى فلا يوجد إلا المسيحية اليهودية.

ويرى أن فكرة الخطيئة هي أخطر أفكار المسيحية التي صنعها بولس؛ يقول: هذه الفكرة هي أن المسيح مات ليخلص البشر من خطاياهم، وإذا كان موت المسيح قد أنقذ بولس من تفاهته فلماذا لا يحدث ذلك بالنسبة للبشر الآخرين أيضاً.

من هنا نشأت فكرة تخليص البشرية بعذابه: إن المسيح قد مات لينقذ البشر ولما كان بولس قد قرأ العهد القديم فإنه استطاع أن يحول هذه الفكرة إلى عقيدة قوية، وأعلن بولس أنها خطيئة آدم أن يولد البشر خاطئين ولكنهم يستطيعون إلقاء الخطايا على المسيح وبهذا يصبحون كاملين.

ويقول إن عقيدة بولس في المسيح المخلص تتهاوى كلما أوغلنا في الاختبار، هذه العقيدة عرضت الكنيسة إلى النقد الذي وجهه نيتشه إذ قال أن المسيحية هي دين الكلاب العرجاء. ولقد عبر نيتشه عن احترامه لمؤسس المسيحية واحتقاره للقديس بولس الذي سماه (باسكال اليهودي) وقال عنه أنه ميال للخرافات والمكر وأنه رجل مصاب لشعوره بعذابه الشديد.

ويقول كولون ولسون ما يلي: حاولت أن أبين أن المسيحية لم ترتكز على تعاليم المسيح وإنما ارتكزت على عقيدة ميتافيزيقية اخترعها بولس وصارت أساساً للكنيسة الكاثوليكية التي حملت بذرة فنائها معها لأنه لم يكن هناك إلا خطوة صغيرة بين القول بأن المسيح يستطيع أن يخلص البشر من خطاياهم وبأن الكنيسة تستطيع أن تفعل ذلك مقابل المال. ويرى كولن ولسن أن وجودية المنتمي هي بديل المسيحية. (سقوط الحضارة ص ١٨)

وهكذا نرى أن كتاب الغرب المسيحيين لا يجدون في المسيحية القدرة على إنقاذ الحضارة بل إن هناك من يتحدث عن ذلك صراحة أمثال (أمري ويفز) في كتابه تحليل السلام إذ يقول تحت عنوان فشل المسيحية.

إنه من العبث نكران أن المسيحية عجزت عن التسرب إلى النفس الإنسانية وعن غرس جذورها في تلك النفس، لقد اقتصر نجاحها فقط عند خلق قشرة رقيقة من السلوك الخلقي وطبقة خفيفة من الحضارة لم تلبث العلائق الإجتماعية التي شهدها القرن العشرون حتى فرقتها قطعاً.

إن الفي سنة لزمن كاف للحكم على جدوى أية طريقة بصرف النظر عن المذهب الذي تطبقه هذه الطريقة، وخلال هذه القرون العشرين وصل إلى الناس أن المسيحية نجحت في تأنيس الحيوان الراقد في صدر الإنسان وفي ضبط وتقييد النزعات والخصائص الإنسانية المدمرة، ولكن منذ حادث

الكنائس عن رسالتها الإنسانية العالمية متحولة إلى منظمات وطنية قوية أثر الوطنية الوثنية القبلية، لكم هي ضعيفة قبضة المسيحية على العالم الغربي.

ذلك لأنها من أجل عرض الدنيا قد تخلت عن تعاليمها الروحية مستسلمة أمام غرائز الإنسان البركانية التي تحطم بعضها بعضاً ما لم يتداركها القانون ويلزمها حدها.

إن ما في المسيحية من قداسة وبواعث للحضارة هي توحيدها وعالميتها التي تعود إلى تعاليمها القائلة بأن الناس خلقوا متساوين أمام الله وأنهم عبيد لإله واحد يحكمهم قانون واحد فتلك هي التعاليم المطوية على الفكرة الناهضة حقاً في تاريخ الإنسانية ولكن لسوء حظ المسيحية كدين عظيم تحولت شيئاً فشيئاً إلى منظمة ذات سلطة رأسية مطلقة، وقد أدى هذا إلى التمزق والتفرق وبذلك انحدر القانون الواحد العالمي إلى ديكتاتورية من ناحية وإلى انتشار الفرق والمذاهب على أوسع نطاق من ناحية أخرى.

وبدأت الأوطان والقوميات الحديثة تتبلور، كما بدأ الشعور الوطني يسود العالم الغربي ويتفوق على الشعور المسيحي فانقسمت الكنائس المسيحية فيما بينها إلى عدد من الفرق المذهبية وجعل كل فريق منها يؤيد المثل الاعلى الجديد الناشىء. أعني المثل الاعلى الوطني وما لبثت المسيحية أن تشابهت بالوطنية وفي كل وطن اعتبرت السياسة الوطنية كأنها سياسة مسيحية مناهضة للاتجاهات الاشتراكية والنزعات الحرة.

وفي انجلترا ينص الفصل الأول من برنامج حزب المحافظين وهو أحد الأحزاب الحاكمة بها على ضرورة العمل لإقامة حضارة مسيحية، ومن ألقاب ملك بريطانيا (حامي المسيحية) وفي إسبانيا وإيطاليا تفتح المدارس دروس الصباح بتلاوة النشيد الديني ولا يكاد يوجد بها رجل أو إمرأة أو فتاة أو طفل يتخلف عن حضور الكنيسة يوم الأحد».

ويقول: ولكن هل استطاعت هذه التعاليم أن تحقق شيئاً؟ لقد تراجعت المسيحية أمام الأيدولوجيات الغربية وأمام الاحتواء التلمودي الصهيوني في الربا والجنس والقاعدة القائمة على أساس التفسير المادي للتاريخ والعجل الذهبي.

(٢)

ويرى أونامونو في كتابه (احتضار المسيحية) إن المسيحية لا صلة لها بالأنظمة السياسية: (ديمقراطية أو دكتاتورية أو بالأنظمة الإقتصادية: اشتراكية ورأسمالية وأنها لا تستطيع أن تقدم شيئاً للمجتمعات وأن مجالها الوحيد هو الفرد وأن المسيحية- على حد قوله- عاجزة عن أن تحل مشاكل الفقر والغنى أو توزيع الثروات فقد أتى المسيح إلى الأغنياء والفقراء وإلى العبيد والطغاة، ويعادي أونامونو جميع الأنظمة السياسية والإقتصادية للعصر، يعادي البلشفية ويناصر أعداء الثورة الروسية ويرى أن البلشفية قد استبدلت ماركس بالمسيح، ودستوفسكي ببولس، والأخوة كرامازوف باعمال الرسل وهو يرفض البلشفية ويرفض كل محاولة للتقريب بين الكاثوليكية والاتجاهات العلمية كالوضعية مثلا لأن الوضعية كالبلشفية اتجاه مادي نحو العالم فالدين صراع أما الوضعية فلا حياة فيها ويرفض أونامونو الاستشهاد في سبيل المبادىء السياسية لأن ذلك إيمان بالأصنام، ولا يريد أن تختلط الروح الدينية بمادية العالم ويقول إن المسيحية شيء فردي محض، يستحيل أن يدخل الدين في سياسة الحزب أو في المعرفة الإنسانية، والدين في نظره أقرب إلى التجربة الصوفية والأسطورة الشعبية، بل إن الدين- في نظره- يستحيل أن يتحول إلى قانون أو تشريع، وبذلك يصبح أوغسطين من عبدة الحرف باعتباره مشرعاً فالواجب والقانون عاطفتان دينيتان لا يدخلان في نطاق التشريع والقانون ويقصر (أونامونو) الدين على العبادات ويفصل عنه المعاملات، ويراه علاقة بين الله والإنسان، لا بين الإنسان والإنسان، فما لقيصر لقيصر وما لله لله ولقد قال المسيح:

إن مملكتي ليست في هذا العالم، فما للمسيحية علاقة بالحضارة أو هذه المجتمعات، وينتهي إلى أن الديمقراطية المسيحية خرافة والإشتراكية المسيحية خرافة أيضا، وأن المسيح لم يتحدث عن الملكية الفردية نفيا أو اثباتاً، وهو ليس ديمقراطيا أو جمهوريا أو ثوريا، بل كان إنساناً، كان يهودياً ضد الاتجاهات الوطنية لبني قومه، وضد الكهنة والفريسيين، وأخيراً يرفض

أونامونو أن يتحول الدين إلى حضارة، فقد احتضرت المسيحية في نظره منذ أن تحولت إلى رومانية أو حضارة غربية.

لقد طغت الوثنية على الدين الجديد، وعلى الدين أن يرجع للمسيح، والمسيحية عنده مجرد تجربة صوفية لا صلة لها بالأرض ولا بالسماء، ولذلك فإن المثل الأعلى للمسيحي هو الراهب».

ويجمع كتاب الغرب على أن الحضارة لم تعرف طريقها إلى الغرب إلا بعد أن حطمت قيود الكنيسة التي فرضتها على الناس وتخلصت من استبداد رجال الدين الذين حبسوا العقلية الغربية داخل نطاق التعاليم المسيحية الروحية التي تخالف اتجاهات الغرب التي تميل إلى المادية، فكانت حركة النهضة- التي قامت على أساس بعث ثقافة اليونان واستغلال مقوماتها في خلق حضارة جديدة.

(٣)

وهكذا نجد أن الحضارة الغربية لم تستطع من خلال المسيحية أن تحقق وجودها أو تحل أزمتها، إن الحضارة قامت أساساً على أنقاض مفهوم الدين والأخلاق المسيحية، ويقول الباحثون: إن المسيحية قد قضت قضاءاً مبرماً على الوثنية الهلينية والعبودية الرومانية ولكنها عجزت أن يحل محلها فكر جديد وكانت بتفسيرها المادي الذي قدمه بولس أعجز ما يكون عن أن ترضي النفس الإنسانية الغربية المتطلعة إلى آفاق العلم والبحث الحر أو تسعدها ولذلك فإنها سرعان ما انتكست الحضارة مرة أخرى بانفصالها عن المسيحية للعودة إلى الروح الهلينية الوثنية الإباحية بعد القرن الخامس عشر وأعادت إحياء الفكر اليوناني في مجال النفس والفكر الروماني في مجال الحكم وهذه الردة جاءت نتيجة سيطرة التلمودية الربوية.

والسؤال هو: لماذا لم تنهض الحضارة الغربية في إطار المسيحية ولم تظهر إلا بعد ظهور الإسلام بأربع قرون، ولماذا احتوتها التلمودية اليهودية من حيث الحرب، والمسيحية تقول بالسلام ومن حيث الربا والمسيحية تقول بتحريمه ومن حيث الخمر والمسيحية تقول بضده ومن حيث الإباحيات والمسيحية تقول

بالزهد ومن حيث تطور الأخلاق ونسبيتها والمسيحية تقول بالأخلاق الثابتة المتصلة بالدين ومن حيث الإستعمار والعنصرية والمسيحية تقول بالرحمة والإخاء.

لقد عجزت الحضارة الغربية أن تستجيب للمسيحية وعارضتها وثارت على مفاهيمها ولم تحاول أن تلتمس لها مخرجاً من خلال فكر رباني كان بين أيديها هو الإسلام، واستطاعت التلمودية الصهيونية احتوائها وهي تستخدمها الآن في هدم أهداف التوراة.

ويرى الكثيرون أن المسيحية لم تعط الغرب الحضارة ويقول فريجة: مرت أوروبا في فترة من تاريخها طغى منها سلطان الكنيسة، وفرضت نفسها على الحياة العامة فكانت المسيرة الموجهة ولكن أوروبا لم تقدم فكرا أو ثقافة وعلماً واقتصاداً إلا بعد أن ثارت على سلطان الكنيسة تحررت منه تحرراً تاماً، ولكن أوروبا لم تستأصل روح المسيحية بل تقوم حضارة أوروبا على روح المسيحية: المسيحية التي لم تفرض نظاماً ولم تنزل شرائع ثابتة ولم تقيد الإنسان فكرياً بل ولقد كان للمسيحية دور آخر في حضارة الغرب، يكتب صفحة مظلمة شديدة الظلمة ذلك هو استخدام الغرب للمسيحية في عمليات التبشير والتنصير وفي إخراج المسلمين من دينهم ولقد خاض الاستعمار باسم التبشير تجربة ضمنية من خلال الإرساليات والمدارس والجامعات التي أنشأها واحتوى فيها اجيالا من أبناء المسلمين أراد بهم أن يكونوا مغربين ليخدموا أهدافه وليتولوا قيادة أوطانهم، ولكن هذه التجربة لم تخلف إلا صورا رديئة من القادة والحكام، وقد أخذ المسلمون يتجاوزونها الآن.

الفصل الثالث

الإسلام ينقذ الحضارة

ماذا تستطيع الحضارة الإسلامية في إنبعاثها في هذا العصر أن تقدم للبشرية؟

هذا السؤال هو الذي يطرحه الباحثون اليوم في العالم كله بعد أن تبين عجز الحضارة الغربية عن العطاء وقصورها عن تلبية مطامح الإنسان في هذا العصر، وبالرغم من كل أسباب التعصب أو الخلاف أو الولاء الغربي فإن الأقلام المنصفة قد استطاعت منذ وقت مبكر أن تعلن جدارة الحضارة الإسلامية في إعطاء البشرية مطامحها الروحية ومطامعها المادية جميعاً في توازن وإعتدال وتكامل.

وأن هناك كثيراً من الأقلام الصادقة توقعت أن يجيء الدور على حضارة الإسلام بعد هذه الأزمة الطاحنة الساحقة لانقاذ البشرية.

ونحن المسلمون نؤمن بذلك أصدق الايمان ونعرف أن البشرية بعد هذه الحيرة الضالة فقد آن لها أن تعود إلى هذا الورد النمير الذي عزفت عنه طويلا والذي تخطته مرة ومرة من الهلينية إلى الغنوصية: ومن الثيو صوفية إلى البوذية دون أن يحقق لهم ذلك شيئاً والإسم في الطريق بين أيدلوجيات الشرق الوثنية وبين أيدولوجيات الغرب المادية ولكن القوى التلمودية كانت قادرة على أن تجاوز بهم من النقيض إلى النقيض دون أن تتوقف عند الفكرة الجامعة الوسطى ولكن مقدرة التلمودية قد كشفت زيفها ولم تعد قادرة في المستقبل أن تحول بين البشرية وبين ورد الإسلام النمير.

* * *

ويرجع هذا الفهم الذي فهمه الباحثون الغربيون المنصفون إلى «ذاتية»

الحضارة الإسلامية التي تقوم على جذر أساسي أصيل لم تسبقها إليه أو تلحق بها حضارة أخرى هو التوحيد، هذا فضلا عن تحررها وقدرتها على الارتفاع فوق الأهواء، فلم يعرف عنها ذلك الحقد الذي يدعو إلى الانتقام الشديد الذي عرفت به الحضارات.

وحين نراجع القيم الأساسية التي قامت على حضارة الإسلام نجدها كانت قادرة في مجال الحرب أن تترفع عن الانتقام أو قتل الأطفال أو الشيوخ أو العباد في الكهوف وأن لا تعتدي أن ترد إلا إذا انتهكت حرماتها وأن تكف إذا جنح العدو للسلم وأن ترتقي في السلم فوق الأهواء والصغائر وأن تبادر الناس بالسلام والسماحة وأن تقيم العلاقات على الإخاء البشري والرحمة كل هذا لم تعرفه حضارة غير حضارة الإسلام التي تتمثل قيمها الأساسية في:

أولا: تمدين الانسانية وتحريرها من العبودية.

ثانياً: توحيد العبادة وتحرير البشرية من الوثنية أو التثليث والاله الخاص والتعدد.

ثالثاً: تحديد وجهة الإنسان في الأرض مستخلفاً للعمران على أساس المسؤلية الفردية التي تنتهي بالبعث والجزاء.

رابعاً: الالتزام الأخلاقي، والترابط بين الفردية والجماعة وفناء الفرد في الجماعة بالإيثار والتضحية والاتفاق وإقامة أخلاقية المجتمع وإعتبار الأخلاق قيما ثابتة جزءاً من الدين.

خامسا: التفرقة بين الألوهية والنبوة والبطولة.

وقد كانت هذه المفاهيم والقيم التي آمن بها المسلمون وأقاموها في أنفسهم هي عامل تأسيس الحضارة ومصدر النصر والقوة التي شكل المجتمع الاسلامي وأقام الدولة الاسلامية في أقل من سبعين عاماً على نحو وصل بين الصين وفرنسا على نحو أدهش المؤرخين والباحثين وعجزوا عن فهمه حتى وصفوه بالمعجزة، ولم يقدروا ان هذه المعجزة لم تكن إلا ذلك المفهوم الخالص للاسلام والتطبيق الصحيح له في المجتمع، هو الذي أقام هذه الحضارة الانسانية التي عرفت

الرحمة والعدل والأخلاق مع أرقى درجات الارتقاء العلمي والاجتماعي واستطاعت ان تجمع بين الروح والمادة والعقل والقلب والدنيا والآخرة.

ثم كانت غفلة المسلمين عن منهجهم وإنحرافهم عنه هو مصدر المحنة التي واجهتهم بالجائحة المغولية التترية ثم بالغزوة الصليبية، على هدف موحد هو تطويق عالم الاسلام وخنقه، فلما عادوا إلى أصولهم ومفاهيمهم بتطبيق الشريعة وإقامة الجهاد وتربية الأجيال فيكونوا مرابطين في مواجهة العدو والوقوف في وجه الغزاة بالإعداد والاستعداد كتب الله تبارك وتعالى لهم النصر المؤزر وفتح للاسلام والمسلمين آفاقا جديدة وبنى لهم قوة مكينة.

واليوم يمر المسلمون بنفس التجربة ويتطلب الأمر منهم التماس مفهوم العودة إلى الله.

(٢)

لقد قامت حضارة الاسلام على اساس مفهوم الاسلام وقد أمدها القرآن بالروح والقوة والتماسك وجعل أبلغ سماتها: التوازن بين مقاصد الروح ومطالب البدن والبعد عن الزهد المعطل للطاقات وبين المادية الجامحة المفسدة لانسانية الحياة وقد اتسمت الحضارة الاسلامية بالسماحة والانسانية وحرصت على توفير الخير لغير المسلمين واحترمت شعائرهم وفتحت أمامهم أبواب الترقي والتقدير.

وقد كان في طابع الحضارة الاسلامية ما يوحي بأنها متكاملة يعيش أصحابها لدينهم ودنياهم معا، ولدنياهم وأخراهم جميعا وأبرز معالمها الربط بين المادة والروح ولقد اثبتت الشريعة الاسلامية بأصالتها وشمولها وقدرتها على الاستجابة لظروف المجتمعات وملائمة العصور المتوالية والبيئات المختلفة، حل مشاكل هذه المجتمعات. ولقد كان أبرز هذه المعطيات البساطة واليسر والرحمة والبعد عن التعقيد والتركيب الذي نراه في الأيدولوجيات الغربية، ومن أعظم أثرها قدرتها على أن تصل بين العبد وخالقه دون واسطة وأن يجعل العمل كله عبادة لله، ما دام يقصد به وجه الله حتى الأكل والنوم وكان إلى ذلك فيه تلك الرحابة التي تستطيع أن تتقبل من الفكر البشري ما هو صالح منه ورد ما يعارض التوحيد.

والتقدم في مفهوم الاسلام مفهوم متكامل إنساني الأساس، جامع بين المعنويات والماديات فالتقدم المادي وحده ليس في نظر الاسلام تقدما كاملا والاسلام دعوة إلى التقدم في إطار الأخلاق والايمان واستخلاف الانسان في الأرض تحت حكم الله تبارك وتعالى.

وهو في هذا يختلف عن مفهوم التقدم الغربي المادي الصرف الذي ساق الحضارة إلى أزمتها الحالية.

كذلك فإن الحضارة الاسلامية عرفت الوسطية وهي عامل من عوامل قدرتها على العطاء دوما فقد إنحرفت اليهودية إلى الفردية الطاغية وانحرفت المسيحية إلى الروحية الطاغية وجاءت الأيدلوجيات الحديثة فردية أو جماعية تسحق الأولى المجتمع وتسحق الثانية الفرد.

أما الاسلام فانه يميل الوسط المتوازن الجامع الذي يجعل الفرد متفاعلا مع المجتمع ويجعل المجتمع متوازنا مع الفرد، وهذا ما يحتاج اليه البشرية اليوم.

والمسلمون امة وسط ليس فقط في تقريب الفرد من المجتمع أو المجتمع من الفرد وإنما في السلوك الخلقي الذي تحمل فضيلة الوسط بين التفريط والإفراط.

والاسلام لا يقف في وجه نهضة الأمم ولا التقدم حين يقف عند حدوده وضوابطه التي لا يقبل التطور أو التأويل، انما يرفض الاسلام إتجاه العلم إلى التدمير والإبادة وإعلاء شأن أمة واحدة على جميع الأمم، وهو يدعو إلى تحرك العلم في إطار الأخلاق واتجاهه إلى نفع البشرية وحل مشاكلها وشفاء أمراضها وتحويل الخبرات الكامنة الى رزق ييسر الحياة لكل كائن على وجه الأرض، وهو لا يقف امام الحضارة بوصفها مدنية، ولكن أمام انحرافها وفسادها وامتلاكها الخطير وترفها وتحللها في جوانب الخمر والربا والاباحية واستعباد البشر والزنى والانهيار الأخلاقي.

كذلك فإن ما تثيره الحضارة الغربية من أزمة الطعام والشراب ليس في

حقيقته إلا لون من ألوان الظلم الذي يسيطر به عدد قليل من أصحاب الملايين اليهود على مقدرات البشرية وتوجيهها وجهة ظالمة والواقع ان هذا الكون فيه مادة رزقه حتى ولو تضاعف عما هو اليوم عشرات الأضعاف وخالق الكون الذي قدر في الأرض أقواتها عليم بهذه الأعداد المتزايدة قد أعد لها كل ما تحتاج إليه ولكن الخطأ ليس في مادة الرزق ولكن في تقسيم الرزق، إن علماء الاقتصاد الآن يتحدثون عما يسمونه قانون الوفرة ولكن العبث هو في السيطرة والطغيان- إن هذه الحضارة ستدمر نفسها نتيجة لفكرة قارون والعجل الذهبي وإمبراطورية الربا.

إن تلك الصيحات التي تتحدث عن الانفجار السكاني أو عدم كفاية مواد الغذاء هي صيحات كاذبة مضللة تصدر عن قوى تريد ان تسيطر على العالم كله وتحتويه.

إن الغرب ليشرف على حضارة تنهار بعد ان طال زمن الازدهار أما المسلمون فيشربون على مطالع فجر بعد ليل طويل فمن الغريب ان تتفق وجهتي نظرهما إزاء أمر من الأمور، ان هؤلاء ينظرون إلى الأمور من نهاياتها المظلمة المأزومة بينما ننظر نحن إليها من أوائلها المتجددة المستمدة من المنابع الأصيلة.

ومن المعروف أزمة الحضارة الغربية تكمن في ماديتها الخالصة، أعني ان فلسفتها وعلومها وأخلاقها واقتصادها واجتماعها وسياستها وقانونها تدور في فلك المادة وتتنكر للنظرة الإنسانية ولوجود خالق يمسك الكون ويديره لحظة بعد أخرى. فأصبحت العلوم التجريبية وسيلة إلى تدمير الإنسان وانصهرت الأخلاق في النفعية المحصنة والخلاعة والمجون والرياء وصار المنهاج الاقتصادي عار من طابع الإنسان والرحمة، وواسطة الاستبداد والظلم، وفسدت السياسة بمعايير القومية الضيقة والوضعية والإقليمية والتمييز العنصري وعبادة القوة وتأليه أصحابها.

والمسلمون يجدون اليوم مثل هذه الأدواء لأن مجتمعاتهم ليست إسلامية تماما فعليهم ان يتحرروا من هذه التبعية وأن يستمدوا قيم مجتمعاتكم من مفاهيم

الإسلام حتى يوقظوا حضارة الإسلام مجددا لتشرق على البشر نوراً وضياءاً.

(٤)

روح الحضارة الإسلامية وخصائصها تقوم على أساس وحدة الكون وانسجام قوى الطبيعة واتساقها وان الإسلام هو النظام الوحيد الذي يحقق هذا الانسجام لأنه يجمع بين الروح والجسد (في نظام الدين) والسماء والأرض (في نظام الكون) والعبادة والعمل (في نظام الحياة) والدين والآخرة (في نظام الدين) ويشكلها جميعا في طريق واحد: هو الطريق إلى الله بينما ان روح الحضارة الغربية يقوم على أساس تجزئة الكون والطبيعة والفصل بين الله والطبيعة والعلم والدين أو ما يسميه كولن ولسون (في كتابه سقوط ص ١٣٣/١٣٢) تجزئة الصنعة.

وفي هذا يقول محمد أسد (ليوبولد فايس) إن وجهة النظر الإسلامية مخالفة على كل حال لوجهة النظرية الغربية الآلية، اذ ان الإنسان يعتبر وجود الإمكان الروحي لمجموع البشرية صفة كامنة أي انه شيء وصنع في بناء الطبيعة البشرية ولا يسلم أبدا - كما يفعل الغرب- بأن الطبيعة تخضع لعملية تبدل ارتقائي كالذي يحدث للشجرة مثلا في نموها، ذلك الأن اساس تلك الطبيعة (أي النفس الإنسانية) ليس كمية عضوية فحسب، والخطأ الأساسي في التفكير الأوربي الحديث ناتج عن اعتبار ان التزيد من المعرفة المادية ومن الرفاهية مرادف للترقي الإنساني الروحي والأدبي وذلك يقوم على جحود الغربيين لوجود نفس مفارقة للمادة منفصلة عنها ومخالفة لها، أما الإسلام الذي بنى على أوجه من الإدراك المطلق فإنه يعتبر وجود النفس حقيقة لا تقبل النقاش والسبب في هجر الأوروبيين للأفكار المطلقة ان الفكر الأوروبي في هروبه من الكنيسة ورغبته الخفية والظاهرة عن خلع نيرها قد مال إلى نفي فكرة الثبات على الإطلاق واستعاض عنها بفكرة التطور على الإطلاق (ك: الإسلام على مقدمة الطريق).

وفكرة التطور المطلق لكل الأوضاع ولكل القيم كما يقول مؤلف كتاب

التصور الإسلامي: تناقض الأصل الواضح في بناء الكون وفي بناء الفطرة الإنساينة، فمادة الكون سواء أكانت الذرة أم الإشعاع البسيط المطلق عند تحطمها أو أية صورة أخرى ثابتة الماهية تتحرك حول محور ثابت لا يتغير مطلقا والذرة ذات نواة ثابتة ولكل ذرة عدد ذرى ثابت ولكل عنصر عدد ثابت من الألكترونات لا يتغير مطلقا.

ومن ثم فان وجود تصور ثابت للمقومات والقيم أمر ضروري جداً في بناء الحضارة واستمرارها ووجه الضرورة هو ضبط الحركة البشرية ووجود مقوم للفكر الانساني، مقوم منضبط بذاته يمكن ان يضبط به الفكر الانساني منهجيا فلا تتأرجح به الشهوات والمؤثرات فتحركه ذات اليمين وذات الشمال.

(٥)

الحضارة الإسلامية ترفض مقاييس الحضارة الغربية:

ان الإسلام يجعل المفاضلة بالعمل الصالح ويشجب العنصرية والتفوق بالدم أو اللون ويرفض فكرة التفوق بنظرية القرن التاسع عشر التي هدمتها الحقائق العلمية الصحيحة فالأجناس كلها شاركت في بناء الحضارات مع استثناء القليل منها. كذلك الإسلام يرفض اعتبار العوامل الجغرافية هي الأساس الوحيد لقيام الحضارات ويرفض نظرية التفسير المادي للتاريخ ويقرر أن الأحداث التاريخية جانبان: مادي وروحي.

وإن من خطأ القول بأن الحضارات والحروب والمجاعات وقيام الدول وسقوطها ترجع جميعها إلى العوامل الاقتصادية المجردة أو صراع الطبقات ويرفض الإسلام التركيز على مفهوم الخلود في الدنيا ويدعو إلى العدل ويرفض بخس الناس أشاءهم وبطش الجبارين بالأعداء ويدعو إلى البساطة، وما ذهب به السرف هو من حق الآخرين الذين ظلموا، ويقيم الإسلام حضارة الجماعة التي يعمم فيها الخير الناس جميعا ومن طبقة معينة، وأن تكون موجهة لإسعاد اكبر مجموعة من الناس، كذلك فإن الحضارة التي ترمي إلى إسعاد البشرية جميعاً لاتتجه إلى بناء الشوامخ الخاصة أو تعمل عملا يقتصر أمره على مجموعة من المترفين وحدهم.

وان قيمة الحضارة الحقة هي في المعطيات التي تقدمها للإنسان، ليس في حياته المادية فقط بل في تكريم مواهبه وإسعاد روحه وإعلائه والدين هو في حصانة الحضارة وأمنها وحماها الذي تحتمي به. ومن الخطأ فصل الحضارة عن العقيدة وعندما تتجاوز الحضارة جذرها الديني والأخلاقي وتهمل ناموس وجودها الحق فنعجز عن أن تقيم المجتمع الرباني الرحيم العادل فإنها تضمحل وتتقدم نحو الانحطاط والتخلف فإذا عادت إلى قانون الله عادت إلى الازدهار.

وكلما اتجهت الحضارة إلى السرف المادي وقفت عند متعة القلة وعم الظلم باقي الناس، ولا ريب أن وجهة الحضارة وهدفها وغايتها هو الذي تقرر وجودها أو زوالها هل تعمل لإسعاد طبقة أم لسعادة الناس، هل تعمل للإستعلاء أم الرحمة والأمر في الإسلام واضح فقد عمد الإسلام إلى توجيه الحضارة إلى الأمن والسلام فأدارها من خلال قيم الأخلاق والتقوى حتى لا تصبح العلوم التجريبية أداة لتدمير الإنسان على النحو الذي اعتنقته الحضارة الغربية من بعد حين أدارتها على الجشع والطمع والتسلط.

يقول رومان رولان: ان هذه الحرب نزاع دنس تتذوقه أوروبا المجنونة وهي تسير إلى حتفها كهرقل الذي قضى على نفسه بيديه، إن القتال لم يتوقف يوماً واحداً منذ نشبت الحرب عام ١٩١٤، إن طبيعة الحضارة الغربية حربي عدواني واتجاهها إلى إنشاء وسائل الحرب أكثر من اتجاها إلى وسائل العمران.

(٦)

إن ما يميز حضارة الإسلام عن حضارات الوثنية هو الدعامة الانسانية المستمد من التوحيد.

فقد أقرت وحدة النوع الانساني رغم تنوع أعرافه ومنابته وأوطانه واجتثت التمييز العنصري من أصوله فالناس سواسية لافضل لأحد على غيره الا بالعمل الصالح بينا الحضارة الحالية لم تستطع ان تضع حداً للطغيان العنصري. وقد اثبتت أبحاث العلم ان الشعوب والاعراق وإن كانت متفاوتة في بعض الصفات والألوان: الأبيض والأسود فانها من حيث الاستعداد للرقي

والحضارة سواء، فلم تكن وقفاً على شعب دون شعب واذا ما أردنا ان نتبين نصيب الأمم منها استناداً الى عصورها الذهبية في ماضيها لوجدنا الأوروبيين في أحط الدرجات والبحث العلمي كالفطرة لا يقر التفوق العنصري وقد تبين فساد نظرية نقاوة الأعراق حيث انه لا يوجد شعب خالص النقاء ولعله من أسباب امتداد حضارة الاسلام أن الذين أسهموا فيها كانوا من كل الأجناس وكانوا قد تثقفوا ثقافة إسلامية قوامها اللغة العربية فصنعتهم في بوتقة معنوية انسانية الاتجاه ربانية الغاية.

كذلك فان الإسلام بنى حضارته على العبـودية لله وهدم عبودية العباد فالإسلام يربأ بكرامة المخلوق من أن تخضع لسلطان غير سلطان الخالق ويأنف أن يكون الإنسان عبداً وقد دعا الإسلام الى تحرير الإنسان من عبودية العبد ومن إحساس الرجل بأنه أقل من سواه.

وما من دين إستطاع أن يوحي إلى المتدين به شعوراً بالعزة كالشعور الذي نخامر المسلم من غير تكلف ولا اصطناع.

كذلك فان المسلم لا يصر على الخطأ اذا ظهر له وجه الحق ولا يأنف أن يأخذ بالحقيقة تأتيه ممن يخالفه دينا ولغة ولا يتعصب لمذهب ويكون مستعداً دائماً لأن يصحح ما يتضح له أنه أخطأ فيه.

وقد دعا الاسلام جميع أبنائه إلى الإندفاع في المجتمع وقهرهم قهراً على الأخذ بمنافع الدنيا وحفظها وتنميتها وجعل ذلك من أصوله الأصلية مستهدفا به وجه الله وبناء المجتمع الرباني والإسلام يدعو إلى تداول المال بين الناس دون تداوله من طائفة خاصة، وقد قيد حق التصرف بالانفاق بمنع السرف والتقتير ودعا في تنمية الثروة إلى منع الغش والربا والاحتكار والقمار.

وهذه العناصر كلها تختلف وتتعارض مع المفاهيم التي تقوم عليها الحضارة الغربية ذلك ان الإنسان في مفهوم الاسلام هو محور قيام الدول والحضارات وتدهورها وسقوطها.

ومن هنا فإن التماسك الفردي والجماعي يظل قائما بالرغم من سقوط الواجهة (الطبقة الحاكمة الممتازة).

أما في الحضارة المعاصرة فإن هناك تدهور أصاب الإنسان كله والمجتمع كله من الداخل وأن الأغلبيات الساحقة مقادة إلى السلبية والدمار.

وهناك إرتباط متين في الإسلام بين الدولة والحضارة من جهة وبين الإنسان والمجتمع من جهة أخرى، وتقرر المفاهيم الإسلامية انه لن يتم التقدم والتوحيد والتماسك الا بوجود هذه الأقطاب الأربعة:

١- الإنسان صانع الحضارة

٢- المجتمع مشكل قيم الحضارة ومنقذها

٣- الدولة حارسة الكيان الحضاري

٤- الحضارة التي لن تكسب إستقلالها وحيويتها وإمتدادها لا تتوفر إلا بالانسان الفعال والمجتمع العامل المجاهد والدولة القوية الراشدة.

ومن هنا كانت خطة الاستعمار في عزل المجتمع الاسلامي عن دولته.

ولا ريب ان أكبر الفروق الجوهرية بين الحضارة الوضعية العلمية والحضارة الاسلامية الإنسانية:

التأكيد على دور الإنسان وعملية التعبير الباطني أو الجهد الأكبر وتقوم على قاعدة التغيير من الداخل أولا:

[إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم]

ثم يجيء التغيير الخارجي.

الفصل الرابع

لماذا توقفت الحضارة الإسلامية عن العطاء

يردد الباحثون عشرات الأسباب لتوقف الحضارة الإسلامية عن العطاء ويردوها إلى عوامل مادية وجغرافية وإقتصادية والواقع أن أسباب التوقف ترجع إلى تعطيل المسلمين لتطبيق المنهج الإسلامي على أنفسهم. فقد توقف في المجتمع الإسلامي: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وترك المسلمون جهاد العدو، وفسدت الأخلاق وعجز المسلمون عن إقامة المجتمع الفاضل المتحرر من وباء الترف والإنحلال وإختلاط الجنس الخليع وفي مجال الإقتصاد، ساد الربا والكسب الحرام وفي مجال الثقافة غلب طابع التقليد وعدم العودة إلى المنابع الأصيلة وفي مجال السياسة فصل المسلمون الدين عن السياسة.

فالأسباب كلها ترجع إلى إهمال شريعة الله وهداية الإسلام الكفيلة بتحقيق المعنى الحضاري السليم.

لقد ترك المسلمون عزائم القرآن التي قام بها سلفهم، وأعرض العلماء المسلمون عن العلوم الطبيعية وفقدوا أعظم قوة مادية، وغلب اليأس من رحمة الله وبدأ فقدان الثقة في النفس، وإستخذى المسلمون أمام الغربيين وظنوا أنهم أقل منهم درجة في العقل والوجدان وبهرتهم مظاهر الحضارة المادية البراقة وفقد أكثرهم عزة الإسلام فاندفعوا في طريق التبعية وواطأ المسلمون للأوربيين على إخوانهم وأعانوهم على محو المسلمين وكان فقدان روح التضحية من أبرز معالم توقف الحضارة الإسلامية عن العطاء بالنسبة لمجالات الإقتحام العالية التي إندفع فيها الغربيون وكان الشعور بالقناعة بما صنعت أيديهم عاملاً في التوقف بينما إستمر الأوربيون يعملون ويقتحمون كل مجال وهم لا يملكون من مصادر الطاقة والثروة ما يملك المسلمون بل إن الغربيين قد إقتحموا بلاد

المسلمون وإستولوا على هذه المصادر ونقلوها إلى بلادهم بأبخس الأثمان ثم أعادوها مصنعة وباعوها للمسلمين بأضعاف مضاعفة.

وكان لفساد الأخلاق أبعد الأثر: فساد أخلاق الأمراء وفساد العلماء وتخلفهم عن أداء واجب مناصحة الأمراء وقول كلمة الحق. وكان لتفشي الجهل وعدم تجدد برامج التعليم وإلتماس أسلوب التربية الإسلامية وكان الإنسحاب من الدنيا والكلام عن الآخرة وغلبة طابع الجبرية.

وبالجملة فقد ترك المسلمون عزائم القرآن التي قام بها سلفهم.

ولقد كان المسلمون الأولون جد عاملين في الميادين الكبرى وخاصة في ميدان التجارة ولم يكونوا متواكلين فقد إندفعوا شرقاً حتى الصين مارين بسمرقند وتركستان والصين وكانت البضائع تنقل على قوافل متعددة، وكان التجار قد حملوا معهم الإسلام إلى الجزر الهندية وبلغت تجارة الإسلام غرباً مراكش وإسبانيا وكان لبعض تجار البصرة الذين كانت مراكبهم تنقل البضائع إلى شاسع الأصقاع وبلغ دخل بعضهم إلى ما ينيف على مليون درهم وعرف في البصرو وبغداد من التجار من بلغ من غناه أنه كان يخرج من الزكاة كل يوم مائة دينار.

وقد رد بعض المستشرقين ركود الحضارة الإسلامية إلى الإسلام، وقد دافع عن هذا الإتهام، وكشف بعض الباحثين الغربيين عن أن هذه الفكرة خاطئة: «فقد درسنا شئون المسلمين في أنحاء العالم وفي كل العصور فثبت لدينا أن الإسلام براء من كل عناصر التأخر والركود وأن سبب الإضمحلال راجعة إلى أمور خارجة عن الدين نفسه أهمها طبيعة الشعوب التي إنتحلته ووراثياتها المختلفة، فإنها لم تتغير ولم تتبدل وبقيت على فطرتها ومنها الترف والرفاهية والرخاوة ومنها هجوم أوربا على الشعوب الإسلامية بحجج مختلفة كلها واهية ومنطوية على المصالح؛ ويرى مالك بن نبي أن الحضارة الإسلامية قد توقفت عن العطاء عندما تفتت الدولة الإسلامية وسرى الوهن في جسد حضارتها، وكان السبب في ذلك هو فقدان هذه الحضارة لموثراتها وفاعليتها في هذا الإنسان المسلم، وأن المسلم إذا ذاك أسلم قيادة نفسه لغيره وتخلى عن حضارته

يوم تخلى عن ضميره الواعي وشخصيته الفعالة، وترك لهذه الحضارة الإستعمارية أن تصوغ له أسلوب حماية وطريقة تفكيره الفعالة، بل وللتدخل في شئون دينه من حيث إستعمالها لقيم هذا الدين الذي زيفته في كثير من الأحيان لفرض مزيد من القيود على حريته وحركة في حياته عن طريق إستخدامها لأدعياء الدين والجاهلين كعملاء مأجورين لها.

ولقد احتفظ الإسلام بمضامينه الصافية الذي صنعت بها الحضارة الإسلامية كدرة فريدة في التاريخ ولكن المسلم هو الذي فقد إستخدامه الإجتماعي ومع هذا فقد إحتفظ بالجوهر أي بهذا المضاء الروحي الضروري لحل عقدة العقد في العالم الراهن حيث لا يمكن أن تحل الأزمة بوسائل القوة، ومن هنا نجد أن المنقذ هو الإسلام. وما كان لحضارة أن تقوم إلا على أساس التعادل بين الكم والكيف، وبين الروح والمادة، وبين الغاية والسبب والحضارة الإسلامية فقدت تعادلها يوم فاتها أن ترعى سلامة العلاقة بين العلم والضمير، وبين العناصر المادية والوجود الروحي فغرقت في هاوية الصوفية الخالصة.

والواقع أن نهضة العالم الإسلامي ليست في الفصل بين القيم وإنما هي في أن تجمع بين العلم والضمير، وبين الخلق والفن، وبين الطبيعة وما وراء الطبيعة، حتى يتسنى له أن يشيد عالماً طبقاً لقانون أسبابه ووسائله أي طبقاً لمقتضيات غاياته.

ويفرق مالك بن نبي بين عالم الأشياء وعالم الأشخاص، ويرفض أن يتحول الإنسان من عالم الأشخاص إلى عالم الأشياء فالإنسان هو الإنسان والإله هو الإله، ولا يمكن أن يكون شيئاً واحداً.

وعلى المسلمين أن يركزوا على القيام بالواجب أكثر من تركيزهم على الرغبة في نيل الحقوق والمجتمع الذي يرتفع وينمو، هو ذلك المجتمع الذي لديه رصيد من الواجب يفيض دائماً عن الحقوق. والإنتاج الإجتماعي يرتقي بقدر ما يكون النشاط الإجتماعي موجهاً لسد حاجات غير فردية أي عند ما يكون موجهاً من أجل مصلحة عامة.

ولقد يظن البعض أن ظاهرة الجمود كانت من أسباب التخلف والواقع أن

من يتأمل هذه الظاهرة يعلم أن هذا الجمود إنما كان نوعاً من الإنطواء على الذات في مواجهة تحديات الفكر الأوروبي الإستعماري وفي مواجهة تيارات التغلغل الأجنبي التي كانت تعمل من أجل زعزعة إيمان المسلمين بقيمهم الحضارية. ولا شك أن روح الجمود إذ ذاك كانت نوعاً من الدفاع عن الذات وأنها حفظت على المسلمين وحضارتهم كيانها ولو في حالة توقف حضاري، صان الحضارة من الإنحراف في تيار حضارات دخيلة وحفظ عليها شخصيتها وسط الأنواء والعواصف الفكرية حتى تجمع للمسلمين من العزة الذاتية ومن عوامل اليقظة الفكرية والروحية، وأمكن لهم أن يقفوا على أقدامهم قبل أن ينطلقوا قدماً وفق إرادتهم وفي هدى من قيمهم الروحية والإجتماعية والحضارية على طريق الغد ».

ويقول إيتان دينيه: إن السبب الأول لتوقف الحضارة الإسلامية عن العطاء هو الخروج عن مبادىء المساواة التامة الشاملة التي بذل الرسول كل جهد خلال سنى حياته في فرضها والتي كانت سبب إنتصاراته وإنتصارات الخلفاء الأول. وبفضل هذه المبادىء القوية التي لا تلين لم يكن لأحد أن يفخر إلا بعمل، وكذلك أدى التنافس بين المسلمين في سبيل إعلاء كلمة الإسلام إلى ضروب من المعجزات ولم يكن يرقى إلى مناصب القيادة سوى الجديرين بها وكان الناس يتبعون قادتهم في كل كبيرة وصغيرة لأنهم كانوا يحترمونهم.

ويقول الأمير شكيب أرسلان أن توقف الحضارة الإسلامية عن العطاء بدأ عندما أخذت تفسد أخلاق أمراء المسلمين وحين راقبوا علماء الشرع وحظروا عليهم أحكام أبواب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وجعلوا عزائم الإسلام من الأمور التي تخص الأمراء وحدهم وإنتهى أمر هؤلاء العلماء بأن يكون قصارهم الإفتاء بما يوافق أهواء الأمراء وإستعمال فتاواهم الدينية لتسويغ شهوات الملوك والأمراء ولما فسد الأمر وتواطأ معهم العلماء رجع القرآن من المعنى إلى اللفظ فقط وصار يتلى دون عمل إقامة وما دام القرآن غير معمول به فلا خير يرجى لرقي المسلمين كمسلمين والعلوم العصرية لا تفيد المسلمين إلا إذا قرنت بتربيتهم الدينية وسارت جنباً إلى جنب مع أوضاعهم وعقائدهم. والتجارب من قديم الدهر قد أثبتت أن التربية العلمية لا تنهض

بالأمة نهوضاً حقيقياً إلا إذا حصلت ضمن دائرة لغتها وتاريخها وعقيدتها ومشربها. أن ينهض المسلمون وهمك ناهضون لا محالة، لم ينهض بهم روح أوروبية ولا روح شيء خارج عن الإسلام وما ينهض بهم إلا روح القرآن الذي كان مبعث نهضتهم الأولى والذي به حياتهم الأدبية والذي فيه لهم النازع والوازع والمحرك والمسكن والذي بدونه ليس أمامهم إلا أمرين: الفناء أو الإنحلال أما التحول عن الإسلام وكلاهما لن ترضى به هذه الأمة التي نزل في كتابها (ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون) ويعوز المسلمين إرهاف هذا الشعور بتلبية صريح القرآن المستمر وبوجوب النهضة والمبادرة إلى اليقظة وما دامت التضحية في العالم الإسلامي مفقودة أو ضعيفة فلا يرجى فلاح. إن أصل داء المسلمين من أنفسهم وأن مبدأه فساد الأخلاق ولا سيما أخلاق الأمراء الذين فساد الواحد منهم يفسد المجموع.

(٢) تدليس العلماء الدين بمواطأتهم للأمراء على شهواتهم إرتفعت كل سيطرة عن هؤلاء وأفلتوا من جميع القيود.

كذلك ولم تكن أوربا قادرة على إرهاق المسلمين لولا فساد أخلاقهم فقد إستولت على بلدانهم برجالهم وأمنت مصالحها بخيانة الكثيرين منهم لملكهم فأقطعت الأجانب غرر البلاد فضاعوا وغدوا وهم في أرضهم غرباء ولو كان المسلمون قائمين بواجباتهم من ناحية حياتهم الدينية وحياتهم العلمية وحياتهم الإقتصادية لما كانت أوروبا نالت منهم منالاً، نيولكان البحر المتوسط بين الفريقين فاصلاً.

إن الجنس الأوربي لا يشبه جنساً آخر من أجناس البشر وإن الإعتداء والتجاوز هما أصل نظرته لا يعيش بدونهما ولا يصده عن التعدي إلا القوة القاهرة، وقد أراد الله أن يكون الإسلام هو أقرب جيران القارة الأوربية في آسيا وأفريقيا فجاورها من الشمال من جهة الروسية وجاورها من الوسط من جهة البلقان وجاورها من الغرب من جهة إسبانيا وفرنسا وإيطاليا فذاق وبال أمره.

الفصل الخامس

حضارة الإسلام أمل البشرية

صاغ المسلمون حياتهم وحضارتهم في ظل الإسلام منذ نزوله ووجدوا الحياة مرة ومرة خلال تاريخهم المتصل به ومنه، وهم قادرون على صياغة التاريخ في الغد القريب والبعيد في ضوء الإسلام ولذلك فإن حاجة البشرية إلى الإسلام في هذا العصر الذي ادلهمت فيه الأحداث هو أولاً حاجة المسلمين إليهم لبناء حضارتهم.

ولم يعد هنا شك في تقدير الباحثين المثقفين أن الإسلام هو الذي أشرق فجر العصر الحديث ولكن الغربيين انحرفوا بمفهوم الإسلام للقيم، قبلوا المنهج العلمي التجريبي وانحرفوا به إلى الاستعلاء والعنصرية والاستعمار وإذلال الشعوب وفي مقدمتها الأمة التي قدمت لهم هذا المنهج الذي صنع حضارتهم.

واليوم فإن عودة المسلمين إلى اقتباس الحضارة الغربية أمر جدير بالنظر والاعتبار، ذلك أن الحضارة الغربية تمر الآن في مراحل التمزق والهزيمة من ناحية ولأنها تختلف في أصولها وقيمها عن مفاهيم حضارة الإسلام ولذا فإن المسلمين لا يأخذون من الحضارة إلا أصول العلوم والتكنولوجيا ليصيغوها من جديد في بوتقة الإسلام وفي إطار اللغة وفي مفاهيم القرآن.

ذلك أن الغربيين حرفوا مفهوم التقدم وحرفوا تلك القيم الأساسية التي أخذوها من الإسلام على نحو لم تعد به بعد هي نفسها التي تقدم للمسلمين اليوم مرة أخرى فقد دخلها زغل كثير، ولذلك فإن عليهم ألا يأخذوا الأمور من نهايتها وأن يكون موقف المسلمين من اقتباس الحضارة الغربية قائم على أساس واضح هو اقتباس الأساليب والتنظيمات وليس اقتباس الأيدلوجيات والمناهج.

وأخلاقيات الحضارة وطابعها الإنساني هو قانون بقائها وفطرتها وناموسها فإذا استمر سرى فيها روح القوة والنضوج وإذا سقط تدافعت إلى الانهيار، ذلك أن انطلاق الحضارة عن ضوابطها هو معارضة لقوانين الحياة نفسها حيث تظهر نزعة الإسراف في تدمير الإنسان ودفعه إلى شهواته وأهواءه.

إن حضارة الغرب في حقيقتها هي وليدة حضارة الإسلام التي سبقتها، ولكنها انحرفت مرة ومرة وما تزال تنحرف عن أصول حضارة الإسلام وعن قانون الحضارة أما حضارة الإسلام فما تزال قائمة وإن توقفت عن العطاء ثمة لتستعد لجولة جديدة، وما تزال الحضارة الوليدة تصيبها كل يوم قارعة حتى تذيل وتبقى حضارة الإسلام وكل حضارة تنبع فيها وتسير على الطريق المستقيم: طريق الله (صراط الله الذي له ما في السموات والأرض)

أما القول بالتقاء حضارة الإسلام: (حضارة التوحيد) مع حضارة الغرب (حضارة الوثنية) فهو قول مضلل ساذج وهو من الاستحالة بمكأن، ذلك لأنه لا يمكن أن تلتقي حضارتان إلا إذا كانتا تصدران عن عقيدة واحدة وتستمدان من نبع واحد وتسيران في طريق واحد، وبين حضارة الإسلام وحضارة الغرب فرق شاسع وأبعاد عميقة من الأساس الفكري.

ولذلك فإنه من المستحيل أن تلتقي الحضارتين في حضارة واحدة أو أن يقتبس منها المسلمون في مرحلة انهيارها أو يتخذوا أسلوب العيش الغربي ويتخلوا عن أسلوب العيش الإسلامي ومنهج الفكر والعقيدة والروح والأساس.

وإذا كانت المسيحية لا تستطيع إنقاذ الحضارة، ولم يستطيع العلم ولا الماركسية فإن الإسلام لا يستطيع أن ينقذ هذه الحضارة المتردية ولكنه يستطيع أن ينقذ البشرية. فإن بعث حضارة الإسلام الأصيلة التي توقفت عن العطاء قد يجعلها اليوم مؤهلة لتقدم للبشرية بإسم الحياة بوصفها الأمل الوحيد الباقي لإنقاذها.

والواضح أن الحضارة الغربية المعاصرة لم تعد تملك إمكان حل أزمتها الخانقة بعد أن عقمت التربة وفسد الهواء فهي تقفز من محاولة إلى محاولة، ومن

أيدلوجية إلى أخرى محاولة الخروج من الأزمة دون جدوى، فإنها منذ أن تركت الدين والأخلاق وبعد أن عجزت التفسيرات اللاهوتية أن تقدم للغربيين ما يتطلعون إليه من عطاء النفس والروح مرتبطاً بمنجزات العلم فقد عقمت، وفشلت: فشلت عن طريق الفردية، والقومية، والجماعية، والوجودية، والهيبية. لأن التفسيرات مستمدة من ركام الفكر البشري مختلطة بالوثنية الهلينية والمادية التلمودية، فقد أصبحت عدوانية عنصرية مع جيرانها.

وكذلك فشلت الرابطة العالمية لأنها كانت غير إنسانية، وهكذا إضطربت كل القيم والمقاييس فإلى أين يتحرك التطور بالحضارة وإلى أي مدى وأين وجهة الحضارة وأي هدف وأين غاية العلم وإلى أي حد، لا بد من وجود الأساس الثابت، حيث تبدو منه الحركة وعنده تنتهي نقطة البدء والنهاية وبعد الحركة الواسعة يجب أن تعود إلى أصل أصيل ليس من عند الإنسان وليس من صنعه ولكنه من عند الله.

(٢)

ليس أمل يرجى في إنقاذ الحضارة غير الدين، والدين الحق الذي هو الإسلام أما ما تخيله أرنولد توينبي مما أطلق عليه إسم الديانة الرباعية فإنه من أوهام مفكري الغرب الذين ما زالوا يأملون في الأديان التي فسدت تفسيراتها والأديان البشرية كالبوذية والماهايانا وغيرها. وليس هناك سبيل لإنقاذ البشرية إلا دين سماوي واحد هو خاتم أديان السماء، الذي ثبتت قيمه بالقرآن المنزل ذلك النص الموثق الذي لم يصبه التحريف والذي يدعو إلى الإخاء البشري والرحمة والعدل ويقيم للبشرية شريعة سمحة عالمية جامعة أين منها هذه الأيدلوجيات التي تصطدم وتنحرف يوماً بعد يوم بالفطرة الإنسانية وبالعلم وبتغيرات المجتمعات.

كذلك فإن أرنولد توينبي يخطىء حين يظن أن القومية هي التي ستنشىء العلاقات بين المسلمين والواقع أن الوحدة الإسلامية هي الأساس الأصيل والأمل المرتقب الذي لم يغب عن عهود المجددين ودعاة حركة اليقظة منذ سقطت الخلافة الإسلامية قبل خمسين عاماً. وإن كان أرنولد توينبي يدعو إلى

القومية ويرغب فيها خداعاً وغشاً، فإنه يعرف مدى الأثر الذي تحدثه يقظة الجامعة الإسلامية حيث يقول:

« إن الجامعة الإسلامية هاجعة ومع ذلك يجب أن نرتقب يقظة النائم من هجعته إذا ما ثارت القوى في العالم الغربي على السيطرة الغربية وراحت تطالب جهاراً بسلوك إتجاه أكثر أصالة. وذلك النداء قد يوقظ في العالم الإسلامي أصداء عهد بطولي عهد حرر في عهد الخلفاء سوريا ومصر من السيطرة الهلينية التي أثقلت كاهلها حوالي ألف سنة وفي أيام نور الدين والماليك حين وقف الإسلام في وجه هجات الصليبيين والمغول وإذا كان العالم اليوم سيندفع في حرب بشرية عامة فقد يهب الإسلام ليلعب دوره مرة أخرى ».

أما معادلة الأديان الأربعة العالمية فهي من قبيل الوهم الذي يحاول أن يدفع به توينبي عن حضارة الغرب القدر الذي ينتظرها بعد أن تصدعت.

ويقول ر. ج. كولبيجور، في التعليق على هذا: أن توينبي لا يفعل أكثر من أن يطبق إفتراضات تستجيب لحاجة عاطفية في الغرب على مجموعات بشرية تنظر إلى القيم من زاوية مختلفة. وفي نظرنا أن توينبي يعلن أن ديناميكية الحضارة الغربية تنطبق على الحضارة العالمية وهو لا يستطيع أن يفعل ذلك إلا بتجاهل شكل الحضارة غير الغربية لكن الفهم يصبح في هذا الحال مستحيلاً.

وبالرغم من أن توينبي تقرير في وضوح أن الحضارة الغربية نفسها تعاني الأزمة فهي حضارة علمانية لاحقة بالمسيحية على بقايا مختلفة من المبادىء المسيحية المشوهة، وأنها مأخوذة ببدعة تقديس الفكر، وبالرغم من أنه يعتبر الإسلام أحد عمد الديانة الرباعية فإن توينبي ما يزال يغض من شأن الإسلام حين يقول إن الإسلام يستطيع أن يعطي الحضارة العالمية المتحدرة:

عطاءان: في التفرقة العنصرية والخمر. وفي ذلك ما فيه من الإجحاف بقدر عطاء الإسلام الذي يشمل ميادين كثيرة وجوانب جمة يغضي عنهاتوينبي.

ولعل هاملتون جب كان أكثر صدقاً منه حين قال: إن الإسلام لا يزال عامل التوازن بين النقيضين في العالم الغربي فهو يقف في وجه فوضى الوطنية

الأوروبية كما يقف حائلاً دون زحف الشيوعية الروسية، ذلك لأنه لم يخضع بعد لضغط الجانب الإقتصادي الذي يعد من خصائص الحياة في أوروبا وروسيا على السواء.

ويقول جب: إن الإسلام مطالب بخدمة يسديها للإنسانية فهو إلى الشرق الحقيقي أقرب من أوربا إليه وله ماض بعيد في تعاون الشعوب وتفاهمها وليس في مجتمع آخر له ما ليس للإسلام من ماض كله النجاح في جمع كلمة مثل هذه الشعوب الكثيرة المتباينة على بساط المساواة في الحقوق والواجبات.

ولقد برهنت الطوائف الإسلامية الكبرى في أفريقيا والهند والهند الشرقية والجماعات الصغيرة في الصين واليابان على أن الإسلام يستطيع أن يوفق بين العناصر التي لا سبيل إلى التوفيق بينها وإذا ما أريد إحلال التعاون محل الخلاف بين المجتمعات في الشرق والغرب فإن (وساطة الإسلام) ضرورية لا غنى عنها فهو وحده الكفيل بحل المشكلة التي تواجه أوربا في علاقاتها مع الشرق».

ولا ريب أن هذا الذي يصوره جب هو بعض معطيات الإسلام ولكنه دون الحقيقة الكاملة فيما يمكن أن يعطي الإسلام للحضارة الإنسانية».

آفاق البحث

صفحة